بسم الله الرحمن الرحيم





رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

لسنة ٢٠١١ _ ١٥٩

BP
٤١ / ٧
٢ ف /
٨ و

الفتلاوي، علي، ١٩٦٠ - م.

ومضات السبط (ع): البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام / تأليف علي الفتلاوي؛ تقديم نبيل الحسني - كربلاء: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٢ق. = ٢٠١١م.

٢ ج. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛ ٥٣)

المصادر.

١. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - الخطب - دراسة وتعريف. ٢. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. - نظرية في العقائد . ٣. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. نظرية في الأخلاق الإسلامية. ٤. واقعة كربلاء، ٦١ق. - أسباب ونتائج. ٥. أهل البيت (ع) - فضائل. ٦.الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. الخطب - اللغة. ٧. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ق. أصحاب. ألف. الحسني، نبيل، ١٩٦٥ - م.، مقدم. ب. العنوان. ج.العنوان: البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام

BP ٤١ / ٧ / ٢ف ٨و

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر



البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام

تأليف

الشّيخ علي الفتلاوي

الجزء الأوّل

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة
وحدة الدراسات التخصصية في الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م



العراق: كربلاء المقدسة ـ العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية ـ هاتف: ٣٢٦٤٩٩

Web: www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com

مقدمة الشعبة الدراسات والبحوث

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها وتمام منن والاها، جم عن الاحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها.

والصلاة والسلام على خير الأنام وكاشف الظلام وعلى آله الهداة إلى الإسلام وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

لم يزل الإمام الحسين عليه السلام منهلاً عذباً لأصحاب الفكر والتأمل وموردأ خصباً لأهل البحث والتدقيق والدراسة، تحل في فناء روضته العلماء وتغدوا إلى درسه الأجلاء، فهم بين مستمع ومفكر ومتعلم قد تزاحمت ركبهم في محضره وتناسقت الأنفاس بمجلسه حتى كأن الطير على رؤوسهم.

من هنا:

نلمس ان عطاء المعين النبوي لا ينفد والفكر الحسيني لا يتوقف حتى كان الناظر إلى هذا العطاء يخال نفسه واقفاً أمام نواة الحياة ومشدوداً إلى سخاء الشمس ونورها، فما طعم العيش والمرء معصوب العينين عن كلام ابن بنت سيد النبيين وأبو الأئمة الميامين.

من هنا أيضاً:

انبرى سماحة حجة الإسلام الشيخ علي الفتلاوي دام توفيقه إلى الارتحال إلى معين أبي الأئمة ومرفئ العلم، ومنبع الدمعة لترسو به الوسيلة إلى بحر من بحور النبوة ليغرف من لئالئ بحر الخلق النبوي وجواهر بحر التوحيد العلوي فيضعها في كتابه الموسوم «ومضات السبط عليه السلام» كي يزدان بها المؤمن ويختزنها المتأمل ويتزودها المتقي.

﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وسيجد القارئ أن الكتاب مشبع بالأحاديث الشريفة والآيات الكريمة، والنكت العلمية الظريفة، ففضيلة الشيخ يميل إلى هذا اللون من الكتابة الذي يعتمد سلاسلة العبارة وغزارة المعلومة ومخاطبة كل الفئات حتى كأنك تخال نفسك في واحة من رياحين علوم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إذ لا يخفى على اللبيب ما للبعد الأخلاقي والعقائدي من الريادة في المكتبة الإسلامية وما له من الحظوة عند علماء الإمامية حتى ملئوا المكتبات بهذا النتاج الفكري.

نسأل الله القبول والخلف على باذل هذا الجهد فإنه خير زاد ليوم المعاد.

السيد نبيل الحسني

مسؤول شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية

في العتبة الحسينية المقدسة

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رزقنا موالاة محمد وآل محمد والذي دلنا على هداهم فأنعم علينا بنعمة ولايتهم، وأنار عقولنا بنور كلامهم، وطمأن نفوسنا بإتباع نهجهم، والصلاة والسلام على السراج المنير والبشير النذير وعلى آله الأخيار والأئمة الأبرار لاسيما سفينة النجاة ومصباح الهدى سيد الشهداء ورمز الفداء الإمام الحسين عليه السلام.

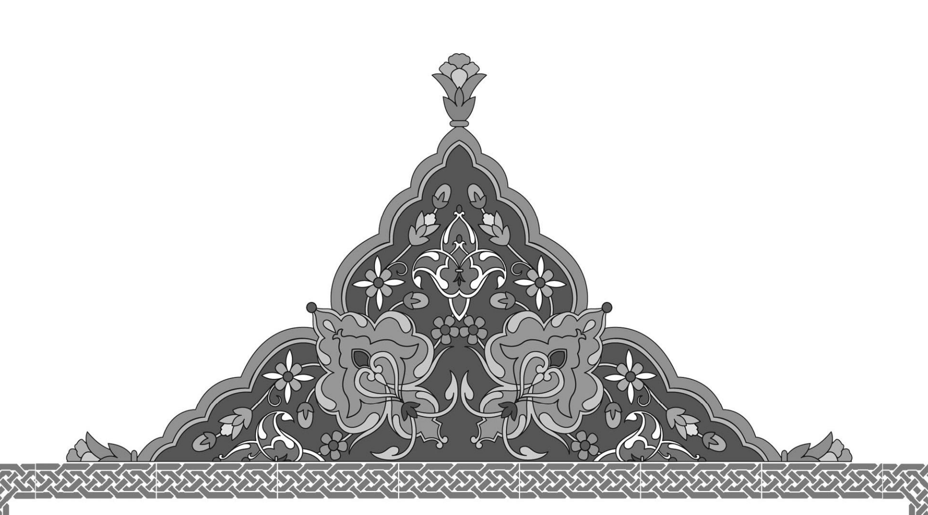
أما بعد:

لقد أطلعنا على كتب كثيرة تعني بشخص الإمام السبط عليه السلام وصفاته وثورته وجهاده ومواقفه وكلامه ورسائله وخطبه وكتبه ونصائحه، إلا أننا لم نعثر بعد تفتيش وفحص دقيقين على شروح تتناسب وكثرة ما تفوه به سيد شباب أهل الجنة عليه السلام إلا أن هناك بعض المؤلفات التي تعد على أصابع اليد الواحدة قد سلطت الضوء على بعض أقواله بشكل موجز ونافع، فرأينا من الواجب علينا أن نضيف تأليفا على ما سبق من المؤلفات، كما ندعوا أن يتصدى غيرنا لإضافة تأليفات أخرى ليتناسب ذلك مع ما صدر من كلام لإمامنا الحسين عليه السلام، سيما أن المكتبة الإسلامية بحاجة إلى إصدارات تشرح خطب ومواعظ الإمام السبط عليه السلام وتسلط الأضواء على الأبعاد الفقهية والعقائدية والأخلاقية فضلا عن الأبعاد الأخرى في كلامه الشريف.

ومن هذا المنطلق أخذنا على عاتقنا بيان البعدين العقائدي والأخلاقي في خطبه فقط دون سائر أقواله، وبيان المعنى اللغوي في هذه الخطب ليتسنى لمن يريد الاستفادة منها منبريا أو ثقافيا.

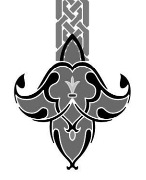
ولكي تسهل الإحاطة بنصوص الخطبة ومعانيها، وتيسير الاطلاع على البعدين العقائدي والأخلاقي فيها ارتأينا أن نذكر نص الخطبة أولا ثم نبدأ شرح الخطبة ببيان المعنى اللغوي لكل فقرة تحتاج إلى بيان ثم نتعرض إلى بيان البعد العقائدي في الخطبة ويتلو ذلك بيان البعد الأخلاقي فيها.

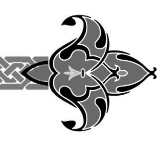
الشيخ علي الفتلاوي



الخطبة الأولى

في التوحيد





نص الخطبة

«أيّها النّاس، اتَّقُوا هؤُلاءِ المارِقَةَ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ اللهَ بِأنْفُسِهِمْ يُضاهِئونَ[1] قَولَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكِتابِ، بَلْ هُوَ اللهُ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ، لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ وَهُوَ الخَبِيرُ.

استَخلصَ الوَحدانِيَّةَ والجَبَرُوتَ، وأمضَى المَشِيئَةَ والإرادَةَ والقُدرَةَ والعِلمَ بِما هُوَ كائِنٌ، لا مُنازِعَ لَهُ في شَيءٍ مِنْ أمرِهِ، ولا كُفءَ لَهُ يُعادِلُهُ، وَلا ضِدَّ لَهُ يُنازِعُهُ، ولا سَمِيَّ لَهُ يُشابِهُهُ، ولا مِثْلَ لَهُ يُشاكِلُهُ، لا تَتَداوَلُهُ الأُمورُ، ولا تَجرِي عَلَيهِ الأحْوالُ، ولا تَنزِلُ عَلَيهِ الأحْداثُ، ولا يَقدِرُ الواصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، ولا يَخطُرُ عَلى القُلُوبِ مَبلَغُ جَبَرُوتِهِ، لأنَّه لَيسَ لَهُ في الأشْياءِ عَدِيلٌ، ولا تُدرِكُهُ العُلَماءُ بِألبابِها، ولا أهلُ التَّفكِيرِ بِتَفكِيرِهِمْ إلاّ بِالتَّحقِيقِ[2] إيقاناً بِالغَيبِ، لأنَّهُ لا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِن صَفاتِ المَخلُوقِينَ، وَهُوَ الواحِدُ الصَّمَدُ، ما تَصَوَّرَ في الأوهامِ فَهُوَ خِلافُهُ، لَيسَ بِرَبٍّ مَنْ طُرِحَ تَحْتَ البَلاغِ، وَمَعْبُودٍ مَن وجِدَ في هواءٍ أو غَيرِ هَواءٍ، هُوَ في الأشْياءِ كائِنٌ لا كَينُونَةَ مَحظُورٍ[3] بِها عَلَيهِ، وَمِنَ الأشْياءِ بائِنٌ لا بَينُونَةَ

(١) ضاهأه: شابهه، وفعل مثل فعله.

(٢) اللّبُّ: العقل. والتحقيق: التصديق.

(٣) المحظور: الممنوع.

غائبٍ عَنها، لَيسَ بِقادرٍ مَن قارَنَهُ ضِدٌّ أوْ ساواهُ نِدٌّ، لَيسَ عَن الدّهرِ قِدَمُهُ ولا بِالنّاحِيةِ أمَمُهُ[١]، احتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احتَجَبَ عَنِ الأبصار، وعَمَّنْ في السَّماءِ احتِجابُهُ كَمَنْ في الأرضِ، قُربُهُ كَرامَتُهُ وبُعده أهانَتُهُ، لا تُحلّهُ (في) ولا تُوَقِّتُهُ (إذ) ولا تُؤامِرُهُ (إنْ)، عُلُوُّهُ مِنْ غَيرِ تَوَقُّلٍ[٢]، وَمَجيئُهُ مِنْ غَيرِ تَنَقُّلٍ، يُوجِدُ المفقُودَ ويُفْقِدُ المَوجُودَ، ولا تَجتمِعُ لِغَيرِهِ الصِّفَتانِ في وَقتٍ، يُصِيبُ الفِكرُ مِنْهُ الإيمانَ به مَوجُوداً وَوُجُودُ الإيمانِ لا وُجُودُ صفةٍ، بِه تُوصَفُ الصِّفاتُ لا بِها يُوصَفُ، وبِه تُعرَفُ المَعَارِفُ لا بِها يُعرَفُ، فَذلِكَ اللهُ لا سَمِيَّ لَهُ، سُبحانَهُ لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ البصيرُ».

المعنى العام

﴿أيّها النّاس، اتَّقُوا هؤُلاءِ المارِقَةَ الَّذِينَ يُشَبِّهُوَن اللهَ بِأنْفُسِهِمْ يُضاهِئونَ قَولَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكِتابِ﴾.

وجه الإمام الحسين عليه السلام خطابه إلى عامة الناس سواء كانوا موالين أو غير موالين، أرشدهم فيه إلى التحرز والتحذر من فئة خرجت من الدين كما خرج السهم من الرمية (أي مرقت) خرجت بسرعة كما يمرق السهم من القوس، وما كان هذا التحذير إلا لانحرافهم عن التوحيد حيث إنهم يشبهون ويمثلون الله تعالى بخلقه، فقولهم هذا يشابه قول الكافرين من أهل الكتاب.

﴿بَلْ هُوَ اللهُ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ، لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ وَهُوَ الخَبِيرُ﴾.

ويردف الإمام عليه السلام قوله بقوله إن الله تعالى الذي احتارت فيه عقول العقلاء لا يمكن أن يشابه شيئا من خلقه، فهو محيط بالأسماع والمسموعات والأبصار

(١) النّد: المثل والنظير. وأممه: قصده.

(٢) تَوَقَّلَ في الجبل: صعد فيه.

والمبصرات، وممتنع على إدراك وإحاطة أبصار خلقه، وهو (اللطيف) الرفيق بعباده (الخبير) والعالم والعارف بكل صغيرة وكبيرة من خلقه.

(اسْتَخلصَ الوَحدانِيَّةَ والجَبَرُوتَ، وأمضَى المَشيئَةَ والإرادَةَ والقُدرَةَ العِلمَ بِما هُوَ كائِنٌ).

اختص الله سبحانه بأنه قاهر منفرد بقهاريته، وأنفذ الحكم والقدرة والعلم بالأشياء.

(لا مُنازِعَ لَهُ في شَيءٍ مِنْ أمرِه، ولا كُفءَ لَهُ يُعادِلُهُ، وَلا ضِدَّ لَهُ يُنازِعُهُ، ولا سَمِّيَ لَهُ يُشابِهُهُ، ولا مِثْلَ لَهُ يُشاكِلُهُ).

لا معطل ولا مفسد ولا مخاصم لما أراد هو سبحانه في خلقه، ولا نظير له ولا مساوي يعادله، ولا مخالف له يخالفه أو يخاصمه ويمنعه، ولا يوجد من اسمه اسم الله تعالى لعدم انطباق الاسم على المسمى في المخلوق، ولا نظير له يماثله ويشابهه.

(لا تَتَداولُهُ الأُمورُ، ولا تَجري عَلَيهِ الأحْوالُ، ولا تَنزِلُ عَلَيهِ الأحْداثُ، ولا يَقدِرُ الواصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِه، ولا يَخطُرُ عَلى القُلُوبِ مَبلَغُ جَبَرُوتِهِ، لأنَّه لَيسَ لَهُ في الأشْياءِ عَدِيلٌ، ولا تُدرِكُهُ العُلَماءُ بِألبابِها، ولا أهلُ التَّفكِيرِ بِتَفكِيرِهِمْ إلاّ بِالتَّحقِيقِ إيقاناً بِالغَيبِ، لأنَّهُ لا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِن صَفاتِ المَخلوُقِينَ، وَهُوَ الواحِدُ الصَّمَدُ، ما تُصُوِّرَ في الأوهامِ فَهُوَ خِلافُهُ).

لا تحوّله الأحوال من حال إلى حال، ولا تقع أو تتوالى عليه الأحوال والتغيرات، ولا تهبط أو تهطل عليه الأمطار، ولا يحيط الواصفون بقدر عظمته ولا يقع أو يمر في القلوب منتهى قاهريته وقدرته، لأن ليس له في الخلق مثيل أو نظير، ولا تعرفه أو تعقله العلماء بعقولها وبصائرها، ولا يحيط به الذين يفكرون أي الذين يحلون العقل في المعلوم ليصلوا إلى المجهول وهم أهل النظر والتأمل إلا أنهم يعرفونه من خلال

التصديق بالغيب والإيقان به، لأنه لا ينعت بنعوت المخلوقين، وهو الفرد الذي يقصد في الحاجات دون سواه، وما تشبه من صورة وما وقع في الذهن من خاطر فهو خلافه وليس من الحقيقة بشيء.

(لَيسَ بِرَبٍّ مَنْ طُرِحَ تَحْتَ البَلاغِ، وَمَعْبُودٍ مَن وجِدَ في هواءٍ أو غَيرِهَواءٍ).

ليس بمدبر ومربي للخلائق من ألقي أو وضع تحت الشجر، وليس له حق العبادة من وجد في ريح أو غيره.

(هُوَ في الأشْياءِ كائِنٌ لا كَيْنُونَةَ مَحظُورٍ بِها عَلَيهِ، وَمِنَ الأَشْياءِ بائنٌ لا بَيْنُونَةَ غائبٍ عَنها، لَيسَ بِقادِرٍ مَن قارَنَهُ ضِدٌّ أوْساواهُ نِدٌّ).

أي أنه سبحانه موجود وحاضر في الأشياء دون أن يكون حادثا بحدث كما في الخلائق لامتناع ذلك عليه وجريانه في الممكنات فقط، وهو مبتعد ومنفصل عن الأشياء لا ابتعاد غائب عنها كما في الممكنات، وليس بقادر من كان له قرين يخالفه أو نظير يساويه.

(لَيسَ عَن الدَّهرِ قِدَمُهُ ولا بِالنّاحِيةِ أمَمُهُ، احتَجبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احتَجَبَ عَنِ الأبصار، وعَمَّنْ في السَّماءِ احتِجابُهُ كَمَنْ في الأرضِ، قُربُهُ كَرامَتُهُ وبُعده أهانَتُهُ، لا تُحلّهُ (في) ولا تُوَقِّتُهُ (إذ) ولا تُؤامِرُهُ (إنْ)).

استتر عن العيون النواظر، واستتر عن أهل السماء كما عن أهل الأرض، دنوه من العبد يظهر في إكرامه له ونأبه وبعده يظهر في احتقاره أو استضعافه، واستخدم الإمام عليه السلام أدوات لغوية، (في) تشير إلى رفض حلوله في الأشياء أي غير متحد مع شيء أو داخل فيه، (وإذ) تشير إلى رفض جريان الزمن عليه، (وإن) إشارة إلى امتناع كونه مأمورا.

(عُلُوُّهُ مِنْ غَيرِتَوَقُّلٍ، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيرِتَنَقُّلٍ، يُوجِدُ المفقُودَ ويُفْقِدُ المَوجُودَ، ولا تَجتمِعُ لِغَيرِهِ الصِّفَتانِ في وَقتٍ).

ارتفاعه من غير صعود، واقدامه وإتيانه من غير حركة وانتقال، يخلق ما لم يكن، ويفني ما كان، وهاتان الصفتان لا يأتي بها أحد في آن واحد إلا الله تعالى.

(يُصِيبُ الفِكرُ مِنْهُ الإيمانَ به مَوجُوداً وَوُجُودُ الإيمانِ لا وُجُودُ صفةٍ).

لا يحصل الفكر منه إلا الإيمان به موجودا حاضرا شاهدا وهذا الإيمان الموجود في الفكر حقيقة لا شك فيها.

(بِه تُوصَفُ الصِّفَاتُ لا بِها يُوصَفُ، وبِه تُعرَفُ المعَارِفُ لا بِها يُعرَفُ، فَذلِكَ اللهُ لا سَمِيَّ لَهُ، سُبحانَهُ لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البصيرُ).

بالله تعالى تنعت النعوت وليست هي التي تثبت له نعتا، وبه تعالى تعرف العلوم والمعارف وليست هي التي تعرّفه وتشبه، فهذا الموجود المحير للعقول الذي تكلمت عنه هو الله تعالى الذي ينفرد بهذا الاسم والذي ينطبق في اسمه الاسم على المسمى، تنزه عن كل نقص ليس له نظير يشابهه، وهو المحيط بالمسموعات والمبصرات.

التحذير من الفكر المنحرف

(أيّها النّاس، اتَّقُوا هؤُلاءِ المارِقَةَ الَّذِينَ يُشَبِّهُوَن اللهَ بِأَنْفُسِهِمْ يُضاهِئونَ[1] قَولَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أهلِ الكِتابِ).

حذر الإمام المعصوم عليه السلام الأمة من الانجرار وراء الأفكار الضالة البعيدة عن سبيل الله تعالى وأرشد إلى التحرز من ترويجها وبثها وتبنيها بل حث الأمة على رفض أصحاب هذه الأفكار ومقتهم وعدم مخالطتهم والاقتراب منهم لخطورة ما ينطقون به من ترهات إذ إنهم يجعلون الله تعالى كأحدهم من خلال تشبيهه تعالى بأنفسهم ومن خلال فهمهم الخاطئ والقاصر لآيات القرآن الكريم والجمود على ظواهر

---

(١) ضاهأه: شابهه، وفعل مثل فعله.

هـذه الآيـات وتعطيـل دور العقـل في الوصـول إلى الحقـائق، فنـراهم يقولـون بالرؤيـة البصرية ويقولون بوجود يد لله تعالى أو رجل أو صورة ويجعلـون لـه أبعـاداً مـن طـول وعرض وحجم وكتلة في الوقت الذي يرفض القرآن الكريم هذا الفهم الخـاطئ كـما في قوله تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2].

الشبه بين المارقين وبين الكافرين

بعد أن أوردنا جهل وكفر أهل الكتاب الذين شـبهوا الله تعـالى بأنفـسهم، صـار لزوما علينا أن نبيّن وجه الشبه بين قول المارقة الذين ذمهـم الإمـام عليـه الـسلام وبـين قول الكافرين من أهل الكتاب الذين كفروا لتشبيههم الله تعـالى بخلقـه، ولكـي يتـضح هذا الأمر نورد هذا التشابه في أقوال الفريقين:

ـ ورد في التوراة في سفار الملوك الأول: الإصحاح الثاني والعشرون /١٩:

(قد رأيت الربّ جالساً على كرسيّه وكلّ جند السماء وقوفٌ لديه عن يمينه وعن يساره، فقال الربّ من يغوي أخآب فيصعد ويسقط في راموت جلعاد...)[3].

ـ وورد في إنجيل يوحنا: الإصحاح العاشر /٣٨:

(إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنـوا بي، ولكـن إن كنـت أعمـل فـإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الأب فيّ وأنا فيه...).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) الفوائد البهية: ص١٣٤.

ـ وورد في صحيح البخاري:

حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُوقِفُهُ أَبُو سُفْيَانَ: (يُقَالُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ قَطِ قَطِ)[1].

وورد أيضا في صحيح البخاري:

حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قَالَ: (يُلْقَى فِى النَّارِ).

وَقَالَ لِى خَلِيفَةُ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، وَعَنْ مُعْتَمِرٍ سَمِعْتُ أَبِي عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِىِّ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قَالَ:

(لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ قَدْ قَدْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلاَ تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ)[2].

وورد أيضا:

حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِىِّ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قَالَ:

(اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا فَقَالَتِ الْجَنَّةُ يَا رَبِّ مَا لَهَا لاَ يَدْخُلُهَا إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ ـ يَعْنِى ـ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِى، وَقَالَ لِلنَّارِ أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا

---

(١) صحيح البخاري: ج١٦، ص١٥٣، ح٤٨٤٩.

(٢) صحيح البخاري: ج٢٤، ص٢١٦، ح٧٣٨٤

مِلْؤُهَا ـ قَالَ ـ فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، ثَلاَثًا، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ فَتَمْتَلِئُ وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولَ قَطْ قَطْ قَطْ)[١].

فبعد هذا التشابه بين أقوال الذين كفروا من أهل الكتاب وبين أقوال الشبه المارقين تبين ضرورة الحيطة والحذر التي أمر بها الإمام عليه السلام الناس من الوقوع تحت تأثير هؤلاء المارقة.

ما هو التشبيه؟

التشبيه في اللغة: التمثيل، تشابه الشيئان أشبه كل منها الآخر[٢].

التشبيه في الاصطلاح: هو تشبيه ذات الله تعالى بشيء من مخلوقاته.

نشأت فكرة التشبيه عند ظهور أحاديث التشبيه التي بدأت في عهد عمر بن الخطّاب واشتد انتشارها في عهد الدولة الأموية لأغراض سياسية إذ إنها لم تكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عهد أبي بكر بدليل الروايات الآتية:

(ورد في تنبيه الخاطر: روي عن ابن عباس أنه حضر مجلس عمر بن الخطاب يوما ـ وعنده كعب الأحبار ـ إذ قال عمر: يا كعب! أحافظ أنت للتوراة؟

قال كعب: إني لأحفظ منها كثيرا، فقال رجل من جنبه: يا أمير المؤمنين! سله أين.

كان الله جل جلاله قبل أن يخلق عرشه؟ ومم خلق الماء الذي جعل عليه عرشه؟ فقال عمر: يا كعب! هل عندك من هذا علم؟

(١) صحيح البخاري: ج٢٤، ص٣٠١، ح٧٤٤٩.

(٢) المعجم الوسيط: ص٤٧١.

فقال كعب: نعم يا أمير المؤمنين! نجد في الأصل الحكيم أن الله تبارك وتعالى كان قديما قبل خلق العرش، وكان على صخرة بيت المقدس في الهواء، فلما أراد أن يخلق عرشه تفل تفلة كانت منها البحار الغامرة واللجج الدائرة، فهناك خلق عرشه من بعض الصخرة التي كانت تحته، وآخر ما بقي منها لمسجد قدسه.

قال ابن عباس: وكان علي بن أبي طالب عليه السلام حاضرا.. فعظم ربه وقام على قدميه، ونفض ثيابه، فأقسم عليه عمر عاد إلى مجلسه، ففعل.

قال عمر: غص عليها يا غواص، ما يقول أبو حسن فما علمتك إلا مفجرا للغم؟ فالتفت علي عليه السلام إلى كعب فقال:

«غلط أصحابك وحرفوا كتب الله، وقبحوا الفرية عليه، يا كعب! ويحك! إن الصخرة التي زعمت لا تحوي جلاله، ولا تسع عظمته، والهواء الذي ذكرت لا يجوز أقطاره، ولو كانت الصخرة والهواء قديمين معه لكانت لهما قدمته، وعز الله وجل أن يقال له مكان يومى إليه، والله ليس كما يقول الملحدون، ولا كما يظن الجاهلون، ولكن كان ولا مكان بحيث لا تبلغه الأذهان.

وقولي: (كان) لتعريف كونه، وهو مما علم من البيان، يقول الله عزّ وجل:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[١].

فقولي له كان مما علمني البيان لأنطق بحجة عظمة المنان، ولم يزل ربنا مقتدرا على ما يشاء، محيطا بكل الأشياء، ثم كون ما أراد بلا فكرة حادثة له أصاب، ولا بشبهة دخلت عليه فيما أراد، وإنه عز وجل خلق نورا ابتدعه من غير شيء، ثم خلق منه ظلمة وكان قديرا أن يخلق الظلمة لا من شيء، كما خلق النور من غير شيء، ثم خلق من الظلمة نورا وخلق من النور ياقوتة غلظها

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٣ و٤.

كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين، ثم زجر الياقوتة فماعت لهيبته فصارت مارا مرتعدا، ولا يزال مرتعدا إلى يوم القيامة، ثم خلق عرشه من نوره، وجعله على الماء، وللعرش عشرة آلاف لسان يسبح الله كل لسان منها بعشرة آلاف، ليس فيها لغة تشبه الأخرى، وكان العرش على الماء من دونه حجب الضباب، وذلك قوله:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(1).

يا كعب! ويحك! إن من كانت البحار تفلته. على قولك. كان أعظم من أن تحويه صخرة بيت المقدس، أو يحويه الهواء الذي أشرت إليه أنه حل فيه..»

فضحك عمر بن الخطاب، وقال: هذا هو الامر، وهكذا يكون العلم لا كعلمك يا كعب، لا عشت إلى زمان لا أرى فيه أبا حسن)(2).

ففي هذه الرواية يظهر أن عمر بن الخطاب هو من سمح لأفكار اليهود أن تدخل إلى الأمة الإسلامية من خلال رواية كعب الأحبار عما في التوراة، كما أن اعتراض أم المؤمنين عائشة على من يقول برؤية الله تعالى فيه دلالة على أن الثقافة السائدة لم تكن تؤمن برؤية الله تعالى بل أن ثقافة الرؤية لم تكن سائدة أو منتشرة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو في خلافة أبي بكر وإلاّ لسمحت بها أم المؤمنين عائشة ولتبنت فكرها ودافعت عنها، ولكن ما يظهر من الرواية الآتية لا يشير إلى ذلك.

جاء في صحيح البخاري (حدّثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٣٦، ص٢٢٢، ح٦.

«ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثمّ يعافيهم ويرزقهم»[١].

أن التشبيه والتجسيم انتشر في الشام بل عملت الشام بقوة على نشره، ومما يدل على ذلك هذه الرواية التي يذكرها الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد.

عن أسد بن سعيد النخعي، قال: (أخبرني عمرو بن شِمْر، عن جابر بن يزيد الجُعْفي، قال: قال محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام:

«يا جابر ما أعظم فِرْيَة أهل الشام على الله عزّ وجلّ، يزعُمون أنّ الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صَخْرَة بيت المَقْدِس[٢] ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على حَجَرَة[٣] فأمرنا الله تبارك وتعالى أن نتّخذه مصلّى يا جابر إنّ الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهّمين، واحتجب عن أعين الناظرين لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم»[٤].

التشبيه محال عقلاً

يتفق العقل مع الشرع على رفض التشبيه وإبطال التجسيم لما فيهما من جرأة على خالق الخلق ومدبر الأكوان ورب الأرباب، ولما فيهما من تحديد اللامحدود وافقار للغني المطلق، وجعل واجب الوجود ممكنا ضعيفا تعتريه الحوادث والمتغيرات وتحيط به الأماكن والأبعاد، وحيث إننا نريد أن نظل على قول العقل في تشبيه المخلوق بالخالق وتشبيه الممكن بالواجب وتحويل الإله الغني المطلق إلى فقير محتاج.

---

(١) صحيح البخاري: ج٦، ص٢٦٨٧، باب قول الله تعالى: (إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين)، ح٦٩٤٣.

(٢) المقدّم والتالي كلاهما مزعومهم الباطل.

(٣) هو إبراهيم النبيّ على نبيّنا وآله وعليه السلام وضع قدمه على حجرة في مكّة حين تفقد عن ابنه اسماعيل لتغسلها زوجته فبقي فيها نقش منها، وهي الآن في المحلّ المعروف بمقام إبراهيم عليه السلام قرب الكعبة، وقصّته طويلة تطلب من مظانّها.

(٤) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٧٤ ـ ١٧٥، ح١٣.

فنقول: اتفق أهل الاختصاص على أن العقل يدرك أن المعقول إمّا أن يصح اتصافه بالوجود الخارجي أو لا، والذي يصح اتصافه بالوجود إمّا واجب أو لا، فالذي لا يصح اتصافه بالوجود الخارجي هو ممتنع الوجود، والذي يصح اتصافه بالوجود الخارجي يكون على قسمين: واجب الوجود وممكن الوجود، وواجب الوجود ما كان وجوده واجبا بذاته لذاته أي لا يحتاج في وجوده إلى غيره بل أن وجوده من ذاته بذاته وهذا هو الله تعالى لا غير، وأمّا ممكن الوجود من كان وجوده بغيره، أي يحتاج في وجوده إلى غيره فيكون حينئذ وجوده متساوي النسبة إلى الوجود والعدم فيحتاج إلى موجود يوجده فإمّا أن يكون الموجد للمكن نفسه فيلزم الدور وإمّا يكون غيره فننتقل إلى ذلك الغير فيتسلسل الأمر وحيث إن التسلسل باطل ثبت أن الموجد للمكن لابد أن يكون واجب الوجود، فيظهر مما تقدم أن واجب الوجود غني مطلق وما سواه فقير محتاج مطلق، فلذا صار أن يتصف كل منهما بصفات تليق به، فإذا قلنا إن واجب الوجود يشبه ممكن الوجود في بعض الصفات التي يتصف بها الممكن الفقير المحتاج المحدود الحادث الفاني يلزم من قولنا انقلاب واجب الوجود الغني مطلقا إلى الممكن وهو لا يزال واجب الوجود وهذا محال لاجتماع النقيضين، أي ما فرضناه غنيا لا يحتاج إلى غيره مطلقا انقلب فقيراً محتاجا مع وجوب وجوده وهذا محال.

التشبيه لا يصح ولا يجوز في القرآن الكريم

حثنا القرآن الكريم على التدبر في آياته الكريمة لنفهم ما يمكن فهمه ونرد ما يصعب فهمه إلى أهله الذين خوطبوا به، ففي كل آية ظاهر أنيق وباطن عميق، ولكل آية تفسير وتأويل ولكن لا يعلم تأويله إلا الله تعالى وعباده الراسخون في العلم إلاّ أن هذا لا يمنع أن نفهم ما يظهر من آياته التي تشير إلى عدم صحة وجواز التشبيه كما في الآيات الآتية:

١ـ قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

يظهر هنا أن اليهود والنصارى نسبت إليه تعالى الأبوّة فجعلت عزيز وعيسى ولداً له تعالى، هذا قول يلزم منه مفاسد كثيرة تدل على جرأة قائله وجهله بمقام ربه، ففي هذا القول الباطل يشيرون إلى أن الله تعالى يشبه خلقه في حاجته للولد، ويشبهه في التناسل والتوالد تعالى عن ذلك علواً كبيراً فهو تعالى كما وصف نفسه:

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

وهو تعالى منزه عن كل صفات المخلوقين من حيث الحاجة والمحدودية والتجسيم والمكان والزمان وكل نقص، فلا يصح ولا يجوز ولا يمكن أن نجعل له ولداً أو امرأة ولا يمكن أن يكون له شبهٌ وهذا ما أكده قوله تعالى:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

فكيف بعزير وعيسى أن يكونا ولدين لله تعالى وهو الإله الغني المطلق اللامحدود؟ وكيف يكون الولد الفقير المحتاج المحدود الممكن المركب العاجز الحادث شبيها لله تعالى الكامل المطلق؟ فهذا محال لانتفاء الشبه بين الولد المدعى وبين الله تعالى الأب كما يدعون، فإذا انتفى الشبه انتفت البنوّة والأبوّة معاً، بل لا شبيه له في الوجود إذ إنه تعالى الخالق وما سواه مخلوق حادث فقير محتاج.

---

(١) سورة التوبة: ٣٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

٢ـ قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[1].

تؤكد هذه الآية الكريمة أن الله تعالى الذي خلق الخلق وبرأ النسمة وفطر السموات والأرض ودبر الكون واستوى على العرش، لا يمكن أن يكون رجلاً فقيراً محتاجا مولوداً من رحم امرأة، كما لا يمكن أن يكون هذا المولود الحادث الذي هو مسبوق بوجود أمه، والمحتاج إلى رعايتها إلاّ غنيا أزليا قديما له كل صفات الكمال، بل يلزم من هذا القول الباطل الانقلاب الحال.

٣ـ قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2].

تستنكر هاتان الآيتان الكريمتان أن يكون لله تعالى نسب كما لغيره من المخلوقات، وتؤكد أن على من يقول هذا القول فهو ممن يثبت الشبه بين الله تعالى الذي ليس كمثله شيء وبين خلقه الذي ينسب إلى غيره، فالجن ينتسب إلى الجن للتشابه بينهم، والإنسان ينسب إلى نوعه للتشابه بين أفراد النوع الواحد، وهكذا المخلوقات الأخرى تنتسب إلى جنسها ونوعها لاشتراكها في صفات واحدة، وهذا مما لا ينطبق على الله تعالى إذ لا شبه بينه وبين أحد من مخلوقاته كما تقدم أعلاه.

٤ ـ وهناك آيات أخرى تنفي التشبيه بين الله المثال وبين خلقه، فآية تنفي رؤيته

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٨ و١٥٩.

بالبصر كما في قوله تعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وأخرى تنفي الحاجة التي هي من صفات المخلوق كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(٣).

وثالثة تنفي فناءه إذ كل مخلوق فان كما في قوله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٤).

بعد هذه الآيات الكريمة وغيرها كيف يتسنى لأحد أن يشبه الله تعالى الغني بخلقه الفقير؟

التشبيه لا يجوز ولا يصح نقلا في السنة النبوية

بلغنا ما نقر بصحته من الروايات التي وردت عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ما يؤكد حكم العقل الذي يقول باستحالة التشبيه بين الخالق والمخلوق وبين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ و٢٧.

الواجب والممكن، وحيث إن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار هم عيبة علم الله تعالى ومنابع المعرفة الحقة وخزائن الحكمة ومصادر التشريع صار لزاما علينا أن نقف على رواياتهم وخطبهم وأقوالهم في هذا الموضع لتتضح لنا كيفية وصف الحق سبحانه.

١ ـ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يصف ربه تعالى وصفاً يليق به سبحانه، يؤكد فيه على نفي التشبيه.

عن إسحاق بن غالب، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض خطبه:

الحمد لله الذي كان في أوّليّته وحدانيّاً، وفي أزليّته متعظما بالإلهية، متكبرا بكبريائه وجبروته ابتدأ ما ابتدع، وأنشأ ما خلق على غير مثالٍ كان سبق بشيءٍ ممّا خلق»[1].

ويشير الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن المشبهة يجهلون مقام ربهم سبحانه كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما عرف الله من شبّهه بخلقه، ولا وصفه بالعدل من نسب إليه ذنوب عباده...»[2].

٢ ـ أمير المؤمنين عليه السلام وسيد البلغاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصدح بخطبته التي يوحد الله تعالى بها وينزهه عن صفات المخلوقين ويؤكد على أن الله تعالى لا يشبه خلقه ولا أحد من الخلق يشبه، بل يصرح بجهل من شبه الله تعالى بخلقه، ويشير أيضاً إلى عدم توحيد من يقول بالتشبيه، ولكي نترك القارئ الكريم يطلع على

(١) كتاب التوحيد للصدوق: ص٤٥، ح٤.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٤٨، ح١٠.

نهج أمير المؤمنين عليه السلام وفكره ويقف على معرفته بربه تعالى نورد إليه هذه الخطبة البليغة المليئة بالعلم والحكمة والتوحيد الحقيقي.

عن فرج بن فروة، عن مسعدة بن صدقة، قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر بالكوفة إذ قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا ربّك تبارك وتعالى لنزداد له حبّاً وبه معرفة، فغضب أمير المؤمنين عليه السلام ونادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس حتّى غصّ المسجد بأهله، ثمّ قام متغيّر اللون فقال:

الحمد لله الّذي لا يَفِرُه المنع، ولا يُكْديه الإعطاء إذ كلّ معطٍ منتقصٌ سواه، المليء بفوائد النعم وعوائد المزيد، وبجوده ضَمِنَ عيالة الخلق؛ فأنهج سبيل الطلب للراغبين إليه، فليس بما سئل أجود منه بما لم يُسأل، وما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال وضحكت عنه أصداف البحار من فِلَذِ اللُجَيْن وسبائك العِقْيان ونضائد المرجان لبعض عبيده، لما أثّر ذلك في وجوده ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الإفضال ما لا ينفَدُه مطالب السؤّال ولا يخطر لكثرته على بالٍ، لأنّه الجواد الّذي لا تنقصه المواهب، ولا ينحله إلحاح الملحّين (وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) الّذي عجزت الملائكة على قربهم من كرسيّ كرامته، وطول وَلَههم إليه، وتعظيم جلال عزّه، وقربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلاّ ما أعلمهم، وهم من ملكوت القدس بحيث هم من معرفته على ما فطرهم عليه أن قالوا: (سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم)»)[1].

---

(١) كتاب التوحيد للصدوق: ص٤٩ ـ ٥٠، ح١٣.

٣ـ وحيث إن الأئمة المعصومين عليهم السلام هم نور واحد وقول واحد ومنهج واحد نطمئن أن وصفهم لربهم سبحانه لا يختلفون فيه فقول كل واحد منهم هو قول جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأخيه المرتضى عليه السلام وخير دليل على ذلك ما قاله الإمام الرضا عليه السلام الذي هو ثامن الأئمة المعصومين عليهم السلام.

حدّثنا محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدّثنا محمّد بن عمرو الكاتب، عن محمّد بن زياد القلزمي، عن محمد بن أبي زياد الجُدي صاحب الصلاة بجُدّة، قال: (حدّثني محمّد بن يحيى بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يتكلّم بهذا الكلام عند المأمون في التوحيد، قال ابن أبي زياد: ورواه لي أيضا أحمد بن عبد الله العلوي مولى لهم وخالٌ لبعضهم عن القاسم بن أيّوب العلوي أنّ المأمون لّما أراد أن يستعمل الرضا عليه السلام على هذا الأمر جمع بني هاشم فقال: إني أريد أن استعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي، فحسده بنو هاشم، وقالوا: أتولّي رجلاً جاهلاً ليس له بصر بتدبير الخلافة؟! فابعث إليه رجلاً يأتنا فنرى من جهله ما يستدلّ به عليه، فبعث إليه فأتاه، فقال له بنو هاشم: يا أبا الحسن اصعد المنبر وانصب لنا علماً نعبد الله عليه، فصعد عليه السلام المنبر، فقعد مليّاً لا يتكلّم مطرقا، ثمّ انتفض انتفاضة واستوى قائماً، وحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه وأهل بيته، ثمّ قال:

«أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه لشهادة العقول أنّ كلّ صفة وموصوف مخلوق وشهادة كلّ مخلوقٍ أنّ له خالقا ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كلّ صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدث، وشهادة الحدث بالامتناع عن الأزل الممتنع من الحدث، فليس الله عرف من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إيّاه وحدّ من اكتنهه ولا حقيقته أصاب

من مثّله، ولا به صدّق من نهّاه ولا صمد صمده من أشار إليه ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا له تذلّل من بّعَضه، ولا إيّاه أراد من توهّمه، كلّ معروفٍ بنفسه مصنوع وكلّ قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدلّ عليه، وبالعقول يعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجّته خلق الله حجابٌ بينه وبينهم ومباينته إيّاهم مفارقته إنّيتهم، وابتداؤه إيّاهم دليلهم على أن لا ابتداء له لعجز كلّ مبتدئٍ عن ابتداء غيره، وأدْوُه إيّاهم دليل على أن لا أداة فيه لشهادة الأدوات بفاقة المتأدّين وأسماؤه تعبير وأفعاله تفهيم، وذاته حقيقة، وكنهه تفريق بينه وبين خلقه، وغُبُوره تحديد لما سواه فقد جهل الله من استوصفه، وقد تعدّاه من اشتمله وقد أخطأه من اكتنهه، ومن قال: كيف فقد شبّهه، ومن قال: لم فقد علّله، ومن قال: متى فقد وقّته، ومن قال: فيمَ فقد ضمّنه، ومن قال: إلى مَ فقد نهاه، ومن قال: حتّى م فقد غيّاه ومن غيّاه فقد غاياه، ومن غاياه، فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد وصفه، ومن وصفه فقد ألحد فيه، لا يتغيّر الله بانغيار المخلوق، كما لا يتحدّد بتحديد المحدود، أحدٌ لا بتأويل عددٍ ظاهرٌ لا بتأويل المباشرة، متجلّ لا باستهلال رؤية، باطن لا بمزايلة، مبائنٌ لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسّم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مقدّر لا بحول فكرة مدبّر لا بحركة، مريد لا بهمامة، شاء لا بهمة، مدرك لا بمجسّة سميع لا بآلة، بصير لا بأداة.

لا تصحبه الأوقات، ولا تضمّنه الأماكن، ولا تأخذه السِنات ولا تحدّه الصفات، ولا تقيّده الأدوات سبق الأوقات كَوْنُه، والعدم وجوده، والابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادّته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأمور عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، والجلاية بالبُهْم، والجَسو بالبلل والصرد بالحرور، مؤلّف بين متعادياتها،

مفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرّقها، وبتأليفها على مؤلّفها، ذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١].

ففرّق بها بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرّزها، دالّة بتفاوتها أن لا تفاوت لمفاوتها مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبينها غيرها له معنى الربوبيّة إذ لا مربوب وحقيقة الإلهيّة إذ لا مألوه ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع ليس منذ خلق استحقّ معنى الخالق، ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البارئيّة كيف ولا تغيّبه مذ، ولا تدنيه قد، ولا تحجبه لعلّ، ولا توقّته متى، ولا تشمله حين، ولا تقارنه مع، إنّما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلة إلى نظائرها وفي الأشياء يوجد فعالها منعتها منذ القدمة، وحمتها قد الأزلية، وجنّبتها لولا التكملة افترقت فدلّت على مفرّقها، وتباينت فأعربت عن مباينها لما تجلّى صانعها للعقول وبها احتجب عن الرؤية، وإليها تحاكم الأوهام، وفيها أثبت غيره ومنها أنيط الدليل وبها عرّفها الإقرار، وبالعقول يعتقد التصديق بالله، وبالإقرار يكمل الإيمان به، ولا ديانة إلاّ بعد المعرفة، ولا معرفة إلاّ بالإخلاص، ولا إخلاص مع التشبيه، ولا نفي مع إثبات الصفات للتشبيه فكلّ ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكلّ ما يمكن فيه يمتنع من صانعه، لا تجري عليه الحركة والسكون، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، أو يعود إليه ما هو ابتدأه إذاً لتفاوتت ذاته، ولتجزّأ كنهه، ولامتنع من الأزل معناه، ولما كان للبارئ معنى غير المبروء، ولو حدّ له وراء إذاً حدّ له أمام ولو التمس له التمام إذاً لزمه النقصان،

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

كيف يستحقّ الأزل من لا يمتنع من الحدث، وكيف ينشئ الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء، إذاً لقامت فيه آية المصنوع، ولتحوّل دليلاً بعد ما كان مدلولاً عليه، ليس في محال القول حجّة ولا في المسألة عنه جواب، ولا في معناه له تعظيم، ولا في إبانته عن الخلق ضيم، إلاّ بامتناع الأزليّ أن يثنّى وما لا بدأ له أن يبدأ، لا إله إلاّ الله العليّ العظيم، كذب العادلون بالله، وضلّوا ضلالا بعيدا، وخسروا خسرانا مبينا، وصلّى الله على محمدٍ النبي وآله الطيبين الطاهرين»)[1].

ولكي نؤكد على عدم جواز تشبيه الله تعالى بخلقه نورد حديثين عن الأئمة المعصومين عليهم السلام يبينان حال من يشبه الله تعالى بخلقه وهل أن الله له شيئا من الإيمان؟

١ ـ يشير الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام إلى أن المشبهة لا إيمان لهم بقوله:

«مَنْ شبّه الله بخلقه فهو مشرك، ومن أنكر قدرته فهو كافر»[2].

٢ـ ويؤكد ولده الإمام الرضا عليه السلام ذلك بقوله:

«من شبّه الله بخلقه فهو مشرك، ومن وصفه بالمكان فهو كافر، ومن نسب إليه ما نهى عنه فهو كاذب».

ثمّ تلا هذه الآية:

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[3]»[4].

فبهذا المقدار نكتفي من بيان عدم صحة القول بالتشبيه وعدم جواز ذلك.

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٣٥ ـ ٤٢، ح٢.

(٢) كتاب التوحيد للصدوق: ص٧٤، ح٣١.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٥.

(٤) التوحيد للصدوق: ص٦٧، ح٢٥.

هل أن الله تعالى شيء؟

تمتنع الكلمات من الانتقاش على سطورها وجلة كونها ترجمان المباحث العقائدية لاسيما في البحوث التي تتكلم عن بارئها، فكيف لي أن أبدأ الجواب على هذا السؤال؟ هل أن الله تعالى شيء؟ لمعرفتي أن الفطرة تقر بوجود خالق الخلق، والقلب مليء باليقين والتصديق، والجوارح مذعنة معترفة بقدرته وإحاطته، فلذا أقول بلسان صريح أن الله تعالى موجود، وأنه تعالى شيء لما جاء في كتب اللغة من أن الشيء هو الموجود[1].

فلذا يصح أن نطلق كلمة (شيء) على الله تعالى مع الاحتفاظ بقيود الآيات والروايات الشريفة التي صرحت بأنه تعالى (ليس كمثله شيء) ولكي يتاح لي أن أجيب على هذا السؤال بطريقة علمية لابد أن أسلسل الجواب وفق النقاط التالية:

١ـ لا شك في وجود الله تعالى بالدليل العقلي كبرهان الإمكان وبرهان العلة والمعلول وبرهان المحدودية وبرهان الأثر والمؤثر التي ذكرها أهل الاختصاص في محلها.

٢ـ لا شك في وجود الله تعالى بالدليل النقلي كما في قوله تعالى:

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

---

(١) المعجم الوسيط: ص٥٠٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٣١.

وقال عزّ وجل:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[(١)].

وهناك أكثر من آية تصرح بأن الله تعالى موجود لخلقه الخلق وتدبيره الأمر.

كما أن الكثير من الروايات التي تشير إلى وجوده تعالى كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في حواره مع السائلين والمستفهمين ومع المشككين والملحدين، وقد أشار مولانا الإمام الصادق عليه السلام إلى دليل الفطرة الذي يظهر عند الشدائد، (قال له رجل: يابن رسول الله دُلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيّروني.

فقال الإمام عليه السلام:

«يا عبد الله هل ركبتَ سفينة قطّ؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل كُسرتْ بك حيث لا سفينة تنجّيك ولا سباحة تغنيك؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل تعلّق قلبُكَ هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلّصك من ورطتك؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»)[(٢)].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

(٢) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية، محمد جميل حمّود: ج١، ص٨٨. بحار الأنوار: ج٣، ص٤١

٣ـ ثبت عند أهل الحكمة وكثير من المتكلمين أن الشيئية تساوق الوجود والعدم لا شيئية له أي أن كل ما له الوجود له الشيئية، وكل ما له الشيئية له الوجود[١].

٤ ـ ثبت في لسان النقل أن الله تعالى شيء ولكن ليس كمثله شيء كما في قوله تعالى:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

وما ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام صريح في جواز إطلاق (شيء) على الله تعالى ولكن دون أن ننفي وجوده أو ننفي صفاته، ودون أن نشبهه بصفات خلقه كما في قول الإمام الجواد عليه السلام: (عن الحسين بن سعيد قال: سُئِلَ أبو جعفر الثاني عليه السلام: يجوز أن يقال لله: إنّه شيءٌ؟ قالَ ـ عليه السلام ـ:

«نَعم يُخرِجُهُ مِنَ الحَدَّين: حَدِّ التَّعْطيلِ وَحَدِّ التَشْبيهِ»)[٣].

وروايات أخرى تبيّن أنه تعالى شيء لا كالأشياء في ذاته وصفاته بل هو تعالى فوق الإدراك والأوهام وهذا ما صرح به الإمام الباقر عليه السلام: (عن محمد بن عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عَنِ التّوحيدِ فَقُلتُ: أَتَوَهَّمُ شَيئاً؟ فَقالَ ـ عليه السلام ـ:

«نَعَمْ، غَيْرَ مَعْقُولٍ وَلا مَحْدُودٍ، فَما وَقَعَ وَهْمُكَ عَلَيْهِ مِنْ شَيءٍ فَهوَ خِلافُهُ، لا يُشبِهُهُ شَيءٌ ولا تُدرِكُهُ الأوْهامُ، كَيفَ تُدْرِكُهُ الأوهام وهوَ خلاف ما يُعقَلُ وخلاف ما يتصوَّرُ في الأوْهامِ؟! إنّما يتوهّم شيءٌ غَيرُ مَعْقُولٍ ولا مَحدودٍ»)[٤].

---

(١) بداية الحكمة: ص١٦٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) أصول الكافي للكليني: ج١، ص١٠٤، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ح٢.

(٤) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١٠٤، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ح١.

وما نورده من الروايات الشريفة الآتية صريح في إطلاق الشيئية عليه تعالى مع الاحتفاظ بشروطها كما فيما يلي:

١ــ عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن زرارة بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«إنّ اللهَ خِلو من خلقه وخلقه خلو منه وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كل شيء تبارك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[1].

٢ــ عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن عطية، عن خيثمة، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إنّ الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله تعالى فهو مخلوق والله خالق كل شيء»[2].

٣ــ عن العباس بن عمرو الفقيمي، عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال للزّنديق حين سأله: ما هو؟

قال:

«هو شيء بخلاف الأشياء ارجع بقولي إلى إثبات معنى وأنه شيء بحقيقة الشيئية غير أنه لا جسم ولا صورة ولا يحسّ ولا يجسّ ولا يدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدّهور ولا تغيّره الأزمان»[3].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٠٥، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ح٤.

(٢) أصول الكافي للكليني: ج١، ص١٠٥، ح٥.

(٣) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١٠٥، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ح٦.

السميع البصير اسمان من أسمائه تعالى

إن صفتي السمع والبصر مما يتصف بهما الله تعالى دون أن يمس هذا الاتصاف عظمة الحق سبحانه، ومن غير أن يشترك معه السامعون والمبصرون لجلاله عن آلتي السمع والبصر، فهو سميع بغير آلة وبصير بغير جارحة، ولذا أشتق اسما السميع والبصير من هذا الاتصاف، ولكي نقف على حقيقة هاتين الصفتين لابد أن نطلع على ما قيل في تفسيرهما وانطباقهما على الله تعالى.

١ـ إنّ سمعَهُ وبصرَهُ سبحانه ليسا وصفين يغايران وصف العلم، بل هما من شُعَب علمه بالمسموعات والمبصرات، فلأجل علمه بهما صار يطلق عليه تعالى أنّه سميعٌ بصير.

٢ـ إنّهما وصفان حسّيان، وإدراكان نظير الموجود في الإنسان.

٣ـ إنّ السّمع والبصر يغايران مطلق العلم مفهوماً، ولكنهما علمان مخصوصان وراء علمه المطلق من دون تكثر في الذات ومن دون أن يستلزم ذلك التوصيف تجسماً، وما هذا إلاّ حضور الهويّات المسموعة والمبصرة عنده سبحانه، فشهود المسموعات سمع، وشهود المبصرات بصر، وهو غير علمه المطلق بالأشياء العامة، غير المسموعة والمبصرة[1].

ولبيان صحة هذه الأقوال الثلاثة التي وردت عن أهل العلم نقول:

ألف: إن السمع والبصر في الله تعالى لا يمكن أن يكونا حسيين لتنزهه عن صفات الممكنات، ولجلاله عن الحاجة والتركيب، فلذا لا صحة للقول الثاني لاستحالة انطباقه على الله تعالى.

باء: بما أنه تعالى يحيط بكل شيء علما فهو تعالى عالم بالمسموعات والمبصرات ولذا يصح إطلاق اسمي السميع والبصير عليه تعالى.

(١) الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ج١، ص١٥٩.

الوصفان في القرآن الكريم

السميع

تتجلى العظمة الإلهية من خلال الخلق لمن ينظر إليها من نافذة الممكنات، ويشهدها بقلبه حينما يتأمل صفات الحق سبحانه، وخير مَن وصف البارئ عزّ وجل هو كتابه الكريم بآيات مليئة بالحكمة والعلم، وبكلمات تحوي بطونا سبعة لا يعلمها إلا أهلها، ولكي نقف على هذه الصفة (السمع) التي إذا اتصف بها فاعلها سمّي بالسميع لابد أن نطلع على ما جاء في ذكر هذا الاسم وهذه الصفة في الآيات الكريمة من القرآن الكريم:

١ـ كونه تعالى واجب الوجود وخالق الخلق ومدبّر الأمور يقتضي ذلك أن يكون محيطا بكل شيء، لا تخفى عليه الأصوات ولا تفوته الخفايا والأسرار، فهو لكل صوت سميع وبكل سر عليم فلذا قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

٢ـ كونه تعالى رؤوفاً بالعباد لطيفاً بالخلق رحيماً بالمؤمنين يقتضي ذلك أن يجيبهم إذا سألوا ويحميهم إذا لجأوا ويغيثهم إذا استغاثوا فلذا نجده سبحانه يصف نفسه تعالى بأنه سميع لدعاء عباده كما في قوله تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

رغم أن دعاء زكريا كان خفيا كما حكى لنا ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣.

فهو يسمع الدعاء ويسمع النداء ويعلم الاستغاثة سواء كان ذلك في الجهر أو الإخفاء.

٣ـ لا شك في أن يكون خالق الخلق والمحيط بكل شيء قريباً من عباده لا قرب مكان ولا قرب زمان لأنه تنزه عن مجانسة مخلوقاته وإنما هو مقتضى إحاطته لذا يصف نفسه بقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾[1].

مداراة لعقولنا التي آنست بالأبعاد المادية الدنيوية وإلاّ فهو تعالى أسمى في قربه من أن ندركه فلذا يخاطبنا بقوله:

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾[2].

٤ ـ وصف الله سبحانه نفسه بأنه يسمع دون أن تؤثر فيه الأصوات ودون أن تؤثر على سمعه الأماكن فهو يسمع من في السموات كما يسمع من في الأرض وفي آن واحد وبمستوى واحد كما في قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[4].

٥ ـ لو تتبعنا كل آية ورد فيها اسم السميع لطال بناء المقام فلذا اكتفينا بذكر بعضها علما أن اسم السميع أو كلمة سميع وردت في كثير من الآيات.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

(٣) سورة الأنبياء: ٤.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٠.

البصير

علْمنا بأنه تعالى يرى ويسمع يجعلنا في حياء دائم لاسيما عندما تقع من بعضنا الآثام ويقترف بعضنا الذنوب، فنعيش في دائرة التقصير مستغفرين تائبين، كيف لا يكون ذلك ونحن نقرأ هذه الآيات الكريمة؟

١ــ آية تشير أنه تعالى مطلع على ظواهرنا وبواطننا بغير جارحة أو آلة للبصر كما في قوله تعالى:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1].

٢ــ آية تصرح بأن ما نقترف من سيئات ونرتكب من ذنوب في أعمالنا وأقوالنا ونياتنا تحت مراقبته كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2].

٣ــ عندما نتأمل ونتدبر قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[3].

نعتقد بأن بصره ليس كبصرنا وإبصاره ليس كإبصارنا، فبصره لابد أن يكون منزهاً عن الحدود والأماكن والأزمان، ولابد أن يكون بصره واسعاً سعة تليق به تعالى وليس ذلك إلاّ علمه بالمبصرات وإحاطته بها.

٤ــ حيث إننا نعلم أن كلمة (البصير ــ بصير) وردت في أكثر من آية في القرآن الكريم وكلها تشير إلى اتصافه تعالى بالبصر وتسميته بالبصير نكتفي بما تقدم ونتدبر في

(١) سورة غافر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٩.

الآيات التي ذكرت هذه الصفة لنعرف شيئا من عظمة ربنا سبحانه وتعالى.

وقوله عليه السلام:

«احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وعمن في السماء احتجابه كمن في الأرض».

تقدمت الأبحاث التي أثبتت عدم الرؤية البصرية بل أثبتنا عدم إحاطة العقل به سبحانه لمحدودية العقل وعجزه عن أن يحيط بالله تعالى، وأدرجنا الروايات التي تشير إلى عجز الأوهام والأفهام عن الإحاطة به تعالى، ولكي نذكر القارئ الكريم نقول باختصار:

الله تعالى هو واجب الوجود ومن صفات واجب الوجود وكماله أنه منزه عن الحدود والأوصاف الناقصة، ومنزه عن كل صفات الممكن، ولذا فهو تعالى فوق العقول المحدودة وخارج إدراكها، كما أنه تعالى منزه عن الجسم والجسمانية فيكون أيضا خارجا عن الرؤية البصرية، وهو تعالى خالق الخلق ومحيط بكل شيء فلا شيء يحيط به، فاحتجب عن خلقه لا بحجاب أو ساتر، وإنما احتجب بذاته وصفاته ووجوب وجوده.

ولكي نؤكد قولنا ونربط بين قول الإمام الحسين عليه السلام وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام نورد هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام التي تبين بوضوح ما أراده الإمام الحسين عليه السلام، فلقد جاء في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده، وباشتباههم على أن لا شبه له، الذي صدق في ميعاده، وارتفع عن ظلم عباده، وقام بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه، مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته، وبما وسمها به من العجز على قدرته، وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه، واحد لا بعدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة، وتشهد له

المرائي لا بمحاضرة، لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها، وإليها حاكمها، ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيما، ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيدا، بل كبر شأنا، وعظم سلطانا»[1].

وهناك روايات تذكر علة احتجاب الله عزّ وجلّ عن خلقه.

عن محمد بن بندار، عن محمد بن علي ، عن محمد بن عبد الله الخراساني ـ خادم الرضا عليه السلام ـ قال: (قال بعض الزنادقة لأبي الحسن عليه السلام:

لِمَ احتجب الله؟ فقال أبو الحسن عليه السلام:

«إن الحجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار».

قال: فلِمَ لا تدركه حاسة البصر؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار، ثم هو أجل من أن تدركه الأبصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل».

قال: فحده لي، قال ـ عليه السلام ـ:

«إنه لا يحد».

قال: لِمَ؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«لأن كل محدود متناه إلى حد فإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزائد ولا متجزٍ ولا متوهم»)[2].

وجاء عن القاسم بن محمد، عن حمدان بن الحسين، عن الحسين بن الوليد، عن عبد الله بن سنان، عن أبي حمزة الثمالي قال: (قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام:

---

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة للعلامة حبيب الله الهاشمي: ج١١، ص٥، الخطبة ١٨٤.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٣، ص١٦، ح١.

لأي علة حجب الله عز وجل الخلق عن نفسه؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«لان الله تبارك وتعالى بناهم بنية على الجهل فلو أنهم كانوا ينظرون إلى الله عز وجل لما كانوا بالذين يهابونه ولا يعظمونه، نظير ذلك أحدكم إذا نظر إلى بيت الله الحرام أول مرة عظمه فإذا أتت عليه أيام وهو يراه لا يكاد أن ينظر إليه إذا مر به ولا يعظمه ذلك التعظيم»[1].

ـ وقوله عليه السلام:

«قربه كرامته وبعده إهانته».

أشار الإمام عليه السلام إلى القرب الإلهي وبين أنه قرب معنوي لا قرب مادي فلذا يقول إن قرب الله تعالى من العبد يظهر من خلال إكرامه لهذا العبد وأن بعد الله تعالى عن العبد يظهر من خلال سخطه وعدم رضاه وإهانته لهذا العبد، فيظهر من قول الإمام عليه السلام أن الله تعالى لا يحويه مكان ولا يحيط به موضع فلذا لا يكون له قرب وبعد مادي، وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال»[2].

ـ وقوله عليه السلام:

(عُلُوُّهُ مِنْ غَيرِتَوَقُّلٍ، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيرِتَنَقُّلٍ، يُوجِدُ المفقُودَ ويُفْقِدُ الَموجُودَ، ولا تَجتمِعُ لِغَيرِهِ الصِّفَتَانِ في وَقتٍ).

أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أبحاث نوجزها في النقاط التالية:

١ـ إن الله تعالى عال علواً معنوياً، وما كان علوّه ناشئاً عن صعود سلّم أو ارتقاء منبر، أو طيران طائر بل هو علو خارج عن صفات المادة والجسمية.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٣، ص١٦، ح٢.س

(٢) نهج البلاغة بشرح محمد عبده: ص١٣٠، الخطبة ٩١.

٢ـ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

فأراد الإمام الحسين عليه السلام أن يبيّن أن مجيئ الله تعالى له معنى غير مادي ليس معتمداً على الحركة والانتقال.

٣ـ بيّن الإمام عليه السلام أن الله تعالى هو الذي أوجد الأشياء وهو الذي يفنيها.

٤ــ إن الله تعالى قادر على أن يجمع بين الصفتين المتضادتين في آن واحد، كالإحياء والإماتة، وكالرازق وغير الرازق، وقادر على الجمع بين صفة الحلم والكرم مثلا في آن واحد دون أن تتأخر إحداهما عن الأخرى.

الوصفان في حديث أهل البيت عليهم السلام

السميع

وصف أهل البيت عليهم السلام يتقدمهم جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ربّهم بصفة السمع وأطلقوا عليه اسم السميع كما أطلق هو تعالى على نفسه، إلاّ أنهم بيّنوا في أحاديث متفرقة كيفية هذا السمع فتارة يسمع الأصوات المرتفعة كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا سامع الأصوات، يا عالم الخفيات، يا دافع البليات»[3].

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٣) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٥، ح٤٧٠٦.

وأخرى يسمع الأصوات الضعيفة التي يصدرها الضعفاء من العباد عندما يأنون من آلامهم كما ورد ذلك في دعاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا من يعلم مراد المريدين، يا من يعلم ضمير الصامتين، يا من يسمع أنين الواهنين، يا من يرى بكاء الخائفين»[١].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يبيّن سعة سمعه وكيفيته، فهو تعالى يسمع الأصوات الصغيرة والكبيرة على حد سواء والقريبة والبعيدة كذلك كما جاء ذلك في قوله عليه السلام:

«كل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها»[٢].

ويشير الإمام زين العابدين عليه السلام إلى سعة سمعه أيضا بقوله:

«اللهم أنت الملك الذي لا يملك، والواحد الذي لا شريك لك، يا سامع السر والنجوى»[٣].

وفي موضوع آخر يدعو فيقول:

«يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوى، وشاهد كل ملا، وعالم كل خفية»[٤].

وأمّا الإمام الصادق عليه السلام فيوضح لنا علة تسميته تعالى بالسميع من خلال بيان سعته وقوته بقوله:

« إنما سمي سميعا؛ لأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو

(١) موسوعة العقائد الإسلامية، محمد الريشهري: ج٤، ص٢٦٦، ح٤٧٠٧.
(٢) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٦، ح٤٧٠٩.
(٣) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٦، ح٤٧١٠.
(٤) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٦، ح٤٧١١.

سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، يسمع النجوى، ودبيب النمل على الصفا، وخفقان الطير في الهواء، لا تخفى عليه خافية ولا شيء مما أدركته الأسماع والأبصار، وما لا تدركه الأسماع والأبصار، ما جل من ذلك وما دق، وما صغر وما كبر، ولم نقل سميعا بصيرا كالسمع المعقول من الخلق»[1].

ويؤكد الإمام الكاظم عليه السلام أن الله تعالى سميع دون أن يشك بصحة سمعه ودقته فيقول:

«اللهم... أنت..... سميع لا يشك»[2].

ويؤكد أيضا أنه تعالى يسمع الأصوات القوية دون أن تؤثر عليه كما تؤثر على سمع المخلوق فيهم منها، ويسمع الخفية التي لا يستطيع أن يسمعها غير صاحبها، ويوضح أن سمعه واسع شامل لجميع اللغات المختلفة التي تصدرها المخلوقات بل هو رقيب على كل ما يصدر من خلقه ويرى الإمام الرضا عليه السلام أن الله سبحانه يسمع كل صوت يصدر من خلقه دون أن يشتبه بأحد منها كما في قوله:

« اللهم إني أسألك، يا سامع كل صوت، ويا بارئ النفوس بعد الموت، ويا من لا تغشاه الظلمات، ولا تتشابه عليه الأصوات، ولا تغلطه الحاجات»[3].

وينفي الإمام الرضا عليه السلام أن يكون سمع الله تعالى بآلة سمع مثقوبة كما هو في خلقه فيقول:

« سمي ربنا سميعا لا بخرت فيه يسمع به الصوت ولا يبصر به، كما أن خرتنا الذي به نسمع لا نقوى به على البصر، ولكنه أخبر أنه لا يخفى عليه شيء من

(1) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧، ح٤٧١٣.

(2) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٧، ح٤٧١٦.

(3) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٧ ـ ٢٦٨، ح٤٧١٨.

الأصوات، ليس على حد ما سمينا نحن، فقد جمعنا الاسم بالسمع واختلف المعنى»[١].

ويبيّن الإمام الرضا عليه السلام سعة سمعه ودقته في موضع آخر (لما سأله رجل: أخبرني عن قولكم: إنه لطيف وسميع...: قلنا:

«إنّه سميع لا يخفى عليه أصوات خلقه ما بين العرش إلى الثرى من الذرة إلى أكبر منها في برها وبحرها، ولا يشتبه عليه لغاتها، فقلنا عند ذلك: إنّه سميع لا بأذن»[٢].

سمعه لا كسمعنا

ورد على لسان أهل البيت عليهم السلام أن سمع الله تعالى منزه عن صفات سمع المخلوق كما جاء ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام في أكثر من حديث كقوله:

«السميع لا بأداة، سميع لا بآلة، السميع لا بتفريق آلة، سميع للأصوات المختلفة، بلا جوارح مؤتلفة».

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«ولم نقل سميعا بصيرا كالسمع المعقول من الخلق».

وفي قول آخر يقول:

«هو سميع بصير، سميع بغير جارحه، بصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه».

وورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله:

«قلنا: سميع لا مثل سمع السامعين».

وجاء عن ولده الإمام الجواد عليه السلام قوله:

«ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس».

---

(١) موسوعة العقائد الإسلامية للريشهري: ج٤، ص٢٦٨، ح٤٧١٩.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٦٨، ح٤٧٢٠.

البصير

وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام ربّهم بصفة البصر المنزهة عن الشبه، وأطلقوا عليه اسم البصير تبعا لما ورد في القرآن الكريم إلا أنهم بيّنوا أموراً تتعلق بهذه الصفة وهذا الاسم وهي كالآتي:

ـ إنّ الله تعالى يرى الأشياء ويبصرها دون أن يحول بينه وبينها حاجب سواء كان سميكا أو شفافاً، كبيراً أو صغيراً وهذا ما ورد على لسان سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«يا من لا يحجبه شيء عن شيء».

ـ إن البصير من المخلوقات لا يستطيع أن يرى الألوان الخفية، والأجسام الدقيقة الصغيرة إلا أن الله سبحانه بصير بذلك مطلع عليه وهذا ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«كل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان، ولطيف الأجسام».

ـ إنما سمي الله تعالى البصير، لأنه يرى ويبصر ما تدركه الأبصار وما لا تدركه من مخلوقات صغيرة أو كبيرة، حقيرة أو عظيمة وهذا ما أجاب به الإمام الصادق عليه السلام لما سأله الزنديق (أفرأيت قوله: سميع بصير عالم؟ قال:

«إنّما سمّي ـ تبارك وتعالى ـ بهذه الأسماء لأنه لا يخفى عليه شيء مما لا تدركه الأبصار امن شخص صغير أو كبير أو دقيق أو جليل»).

ـ إنه تعالى بصير لا يشك ولا يشتبه ولا تلتبس عليه اللوابس كما في دعاء الإمام الكاظم عليه السلام:

«سبحانك اللهم وبحمدك... أنت.... بصير لا يرتاب».

ـ إن الله تعالى يوصف بالبصير دون أن يشبه بغيره من الخلق فلذلك ورد عن

الإمام الصادق عليه السلام:

«ولا نصفه بصيرا بلحظ عين كالمخلوق».

وأكد ذلك الإمام الرضا عليه السلام بقوله:

«إنه بصير لا كبصر خلقه».

وفي قوله عليه السلام:

«وهكذا البصر لا بخرت منه أبصر، كما أن نبصر بخرت منا لا ننتفع به في غيره».

وهذا الوصف صرح به أيضا الإمام الجواد عليه السلام بقوله:

«ولم نصفه ببصر لحظة العين».

ـ وقوله عليه السلام:

(عُلُوُّهُ مِنْ غَيرِ تَوَقُّلٍ، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيرِ تَنَقُّلٍ).

ـ تقدم في الأبحاث السابقة أن الله تعالى لا يتصف بصفة من صفات الممكنات ولا تحده الحدود الزمانية والمكانية ولا يتكيف بكيف ولا يسري عليه ما يسري على خلقه، ومما ينزه عنه سبحانه هو العلوّ المكاني، فلله تعالى علوٌّ حقيقي عن كل ما سواه لأنه واجب الوجود وخالق الخلق وبارئ المكان والزمان ومحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء إلاّ أنه تعالى رغم علوّه وارتفاعه عن خلقه فهو أقرب إليهم من حبل الوريد بل يحول بين المرء وقلبه وما هذا القرب إلاّ لإحاطته وقيوميته، ولو تأملنا في الآيات الكريمة كقوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

وقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢].

لاتضح لنا عدم صحة نعته بصفة من صفات الممكنات وعدم جواز وصفه بصفة الأجسام، وعلى هذا لابد من تفسير علوّه سبحانه بامتناع اتصافه بصفات خلقه وارتفاعه عن كل صفات المخلوقات واستغنائه عن العلوّ والسفل التي هي من ملازمات المكان، فعلوّه هو نزاهته عن كل نقص، وعلوّه هو ربوبيته لما سواه، وعلوّه هو غناه عن كل شيء، وعلوّه هو إحاطته بكل شيء، وعلوّه هو قيوميته على خلقه وغير ذلك من صفات الكمال اللائق به تعالى.

ـ وأمّا تفسير مجيئه تعالى يتضح مما تقدم أنه مجيء أمره تعالى لجلاله عن المجيء والحركة والانتقال، وهذا ما أكدته الرواية الشريفة عن الإمام الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

قال:

«إنّ الله عزّ وجل لا يوصف بالمجيء والذهاب، تعالى عن الانتقال وإنما يعني به وجاء أمر ربك والملك صفا صفا»[٣].

وهناك معنى آخر للمجيء ذكره العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان هو (أن

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٣) التوحيد للصدوق: ص١٦٢، ح١.

المجيء يعني حصول القرب وارتفاع المانع والحاجز بين الشيئين)[١].

ـ وقوله عليه السلام:

(يُوجِدُ المفقُودَ ويُفْقِدُ المَوجُودَ).

ـ أوجد الله الشيء: أنشأه من غير سبق مثال، وفلانا أغناه، يقال: الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر.

الواجد: من أسماء الله تعالى، وهو الغني الذي لا يفتقر[٢].

ـ فقد الشيء ـ فقداً، الكتاب وـ المال ونحوه: خسره وعدمه[٣].

لا شك أن الله تعالى على كل شيء قدير، ووسعت قدرته كل ما ينطبق عليه مفهوم الشيء، فهو تعالى قادر على غير المحال إذ إن المحال باطل محض لعدم انطباق مفهوم الشيئية عليه، وحيث إن الله تعالى هو خالق كل شيء فهو تعالى قد أبدع خلقه وأنشأه من غير أن يقيس ذلك على مثال سابق لغناه عن ذلك، فلقد ورد في الروايات ما يشير إلى ذلك كقول الإمام الصادق عليه السلام:

«لا يكوّن الشيء لا من شيء إلا الله، ولا ينقل الشيء من جوهريته إلى جوهر آخر إلا الله...»[٤].

وأمّا بالنسبة لفناء الأشياء فلقد صرح تعالى بقوله:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٥].

---

(١) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ج٢، ص١٠٤.

(٢) المعجم الوسيط: ص١٠١٣.

(٣) المعجم الوسيط: ص٦٩٦.

(٤) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤، ص١٤٨، ح٢.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

وفي هذا إشارة إلى القانون الإلهي الذي يحكم بانقطاع أمد هذه النشأة الدنيوية وولادة نشأة أخرى بعد التأمل في النشأة الأولى التي هي الدنيا ومادياها والنشأة الأخرى التي هي الآخرة ومعنوياها تظهر نتيجة واضحة أن الله تعالى هو الذي أوجد ما كان في العدم وعدم ما هو في الوجود، وهذا ماصرح به الإمام الصادق عليه السلام:

«ولا ينقل الشيء من الوجود إلى العدم إلا الله»[1].

ـ وقوله عليه السلام:

(ولا تَجتمِعُ لِغَيرِهِ الصِّفَتانِ في وَقتٍ).

ثبت في محله أن لله تعالى نوعين من الصفات هما الصفات الثبوتية والتي تسمى بصفات الكمال والصفات السلبية والتي تسمى بصفات الجلال، والصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين هما: الصفات الذاتية وهي التي تنتزع من الذات فقط، والصفات الفعلية وهي التي تنتزع من مقام الفعل كالخالقية والرازقية.

وثبت أيضا أن صفات الذات هي عين الذات كالحياة والعلم والقدرة، أي أن قدرته هي حياته وحياته هي قدرته فهو حي من حيث هو قادر وقادر من حيث هو حي، فبهذا اللحاظ نستطيع أن نقول أن أكثر من صفة اجتمعت له تعالى وفي وقت واحد.

وهناك معنى آخر كاجتماع الصفتين له تعالى في وقت كاتصافه بأنه يخلق ولا يخلق أو يرزق ولا يَرزق أو يرحم ولا يَرحم، إذ أن هذه الصفات هي من صفات الفعل وليس من صفات الذات.

ولكي يتضح البحث نورد باقة من الروايات الشريفة التي تشير إلى هذا المعنى:

١ـ عن هشام بن الحكم في حديث الزّنديق الذي سأل أبا عبد الله عليه السلام فكان من سؤاله أن قال له: (فله رضاً وسخط؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام:

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج٤، ص١٤٨، ح٢.

«نعم ولكن ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، وذلك أن الرضا حال تدخل عليه فتنقله من حال إلى حال؛ لأن المخلوق أجوف معتمل مركب، للأشياء فيه مدخل، وخالقنا لا مدخل للأشياء فيه لأنه واحد واحدي الذات واحدي المعنى، فرضاه ثوابه، وسخطه عقابه من غيرشيء يتداخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال، لأن ذلك من صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين»[1].

هذه الرواية تشير إلى اجتماع الرضا للمؤمنين والسخط على الكافرين في وقت واحد.

٢ـ عن حريز، عن محمد بن مسلم، (عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال في صفة القديم:

«إنّه واحد صمد أحدي المعنى ليس بمعانٍ كثيرة مختلفة».

قال: قلت: جعلت فداك يزعم قوم من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر ويبصر بغير الذي يسمع، قال: فقال ـ عليه السلام ـ:

«كذّبوا وألحدوا وشبهوا تعالى الله عن ذلك، إنه سميع بصيريسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع».

قال: قلت: يزعمون أنه بصير على مايعقلونه، قال: فقال ـ عليه السلام ـ:

«تعالى الله إنما يعقل ماكان بصفة المخلوق وليس الله كذلك»)[2].

وهناك معنى آخر هو أنه تعالى يوجد المفقود ويفقد الموجود في وقت لا يشغله الإيجاد عن الافقاد ولا الافقاد عن الإيجاد، ولا يشغله أمر عن أمر ولا سمع عن سمع ولا صوت عن صوت.

(١) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص٦٤، ح٦.

(٢) أصول الكافي للكليني: ج١، ص٦٣، ح١.

هل هما من صفات الذات؟

بيّنا أن هاتين الصفتين قد اتصف بهما الله سبحانه وتعالى، وأنهما بمعنى علمه بالمسموعات والمبصرات، وأن ذكرهما قد ورد في القرآن الكريم وعلى لسان أهل بيت العصمة عليهم السلام.

وكذلك بيّنا سعة هاتين الصفتين ودقتهما وأنهما في الله تعالى ليس كما في خلقه، وأن إطلاق اسمي السميع البصير عليه تعالى لا يشابه إطلاقه على غيره.

بعد هذا البيان لنا أن نسأل عن هاتين الصفتين هل هما من صفات الذات أم من الصفات الفعلية؟

الجواب عن ذلك سيعرف من خلال وقوفنا على الأحاديث التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام إذ إنها تبين لنا نوع هاتين الصفتين وهي كما يلي:

في السمع

ـ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«سميعا إذ لا مسموع».

ـ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله:

«يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع».

ـ وقال عليه السلام:

«والسمع ذاته ولا مسموع».

ـ ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله:

«إنه يسمع بما يبصر ويرى بما يسمع».

البصر

ـ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«بصير إذ لا منظور إليه من خلقه».

ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«لم يزل الله عزّ وجل ربنا... والبصر ذاته ولا مبصر... فلما أحدث الأشياء وقع البصر على المبصر».

ـ ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله:

«إنه يسمع بما يبصر ويرى بما يسمع»[1].

من خلال التمعن في هذه الأحاديث الشريفة نجد قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«سميعا إذ لا مسموع».

يثبت أن الله تعالى متصف بالسمع والبصر قبل أن يخلق المسموعات والمبصرات وهذا يدل على أن هاتين الصفتين من صفات الذات.

ولو نظرنا أقوال الإمامين الباقر والرضا عليهما السلام:

«يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع».

يتضح لنا أن هاتين الصفتين لا يمكن أن تكونا هكذا إلا إذا كانتا عين الذات فيلزم أنهما من صفات الذات، وتصريح الإمام الباقر عليه السلام بقوله:

«والسمع ذاته ولا مسموع».

لا يحتاج إلى توضيح وبيان كما أن قول الإمام الصادق عليه السلام:

«والبصر ذاته ولا مبصر فلما أحدث الأشياء وقع البصر على المبصر».

يصرح بأن البصر صفة ذات يتصف الله تعالى بها منذ الأزل.

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ص٦٥.

وهاتان الصفتان لا يخرجا عن علمه فلذلك قال الإمام الصادق عليه السلام:

«وقع البصر على المبصر».

أي وقع العلم الذاتي على المعلوم.

سؤال مهم

السؤال: هل يصح أن نطلق عليه أنه شام أو ذائق أو لامس لعلمه بالمذوقات والمشمومات والملموسات؟

الجواب:

ألف

لا نصف ربنا إلاّ بما وصف به نفسه ونقف عند ذلك دون أن نخوض في غيره استحسانا أو اجتهاداً وقياساً وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام في حديث طويل فيقول:

«سبحانه ما عرفوك ولا وحدوك ومن أجل ذلك وصفوك، سبحانك لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك، سبحانك كيف طاوعتهم أنفسهم أن شبّهوك بغيرك إلهي لا أصفك إلاّ بما وصفت به نفسك، ولا أشبّهك بخلقك، أنت أهل لكلّ خير فلا تجعلني من القوم الظالمين»[1].

وجاء عن محمد بن سليمان، عن علي بن إبرهيم الجعفري، عن عبد الله بن سنان، (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال:

«إنّ الله عظيم، رفيع، لا يقدر العباد على صفته، ولا يبلغون كنه عظمته، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا يوصف بكيف

(1) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص110، ح13.

ولا أين ولا حَيث فكيف أصفه بكيف وهو الذي كيّف الكيف حتّى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كيّف لنا من الكيف، أم كيف أصفه بأين وهو الذي أيّن الأين حتّى صار أيناً، فعرفت الأين بما أيّن لنا من الأين، أم كيف أصفه بحيث وهو الذي حيّث الحيث حتّى صار حيثاً، فعرفت الحيث بما حيّث لنا من الحيث، فالله تبارك وتعالى داخل في كلّ مكان، وخارج من كلّ شيء، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، لا إله إلاّ هو العليّ العظيم، وهو اللطيف الخبير»[١].

باء

هناك قول لأهل العلم لا يصح إطلاق الشام أو الذائق عليه تعالى للزوم صفات المادة فيقول: (يجب أن يكون سميعا بصيراً، لأنه حي لا آفة به، وفائدة السميع البصير أنه على صفة يجب فيها أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به، ولا يوصف بأنه سميع بصير، والمعلوم خلاف ذلك.

وأمّا سامع مبصر فمعناهما أنه مدرك للمسموعات والمبصرات، وذلك يقتضي وجود المسموعات والمبصرات فلذلك لا يوصف بهما في الأزل، فأمّا شام وذائق فليس المراد بهما كونه مدركاً بل المستفاد بالشام أنه قرب الجسم المشموم إلى حاسة شمه، والذائق أنه قرب الجسم المذوق إلى حاسة ذوقه، ولذلك (يقولون شممته فلم أجد له رائحة، وذقته فلم أجد له طعماً ولا) يقولون: أدركته فلم أدركه لأنه مناقضه وجرى مجرى قوله أصغيت له فلم أسمعه فهما بأن يكونا سبب الإدراك على وجه دون أن يكونا نفس الإدراك)[٢].

---

(١) التوحيد للصدوق: ص١١١ ـ ١١٢، ح١٤.

(٢) الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للشيخ محمد بن الحسن الطوسي: ص٥٧ ـ ٥٨.

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار

امتناع الرؤية

استشهد القرآن الناطق الإمام المعصوم عليه السلام بآية من القرآن الكريم في خطبته الشريفة ليقول بلسان فصيح وقول صريح أن الحق سبحانه أجل وأكبر وأعظم من أن تناله الأبصار أو تدركه الأفهام، امتنع عليها بوجوب وجوده وعجزت عن إدراكه بإمكان وجودها، وتعالى بكماله اللامتناهي عن نقصها المحض، وارتفع بغناه المطلق عن فقرها اللامحدود، فلذا صارت محالاً رؤيته، سمت فوق العقول ذاته، فلا يعرفه إلا بصفته ولا يرى إلا بالبصيرة، فهو تعالى أكبر من أن يقال شيء عن رؤيته ولذا نقسم القوم إلى ثلاث فرق:

١ ـ قالت العدلية بعدم رؤيته تعالى بالبصر سواء كانت الرؤية في الدنيا أو في الآخرة.

٢ـ جوّز المجسمة رؤيته تعالى بالبصر في الدارين.

٣ـ قال بعض الأشاعرة برؤيته تعالى يوم القيامة وإنه سينكشف إليهم كانكشاف القمر ليلة البدر، وحيث إن قول المجسمة يستلزم شروطاً للرؤية، فلابد أن نذكرها كما يلي:

١ـ يستلزم تحقق الرؤية أن يكون المرئي في جهة معينة.

٢ـ يستلزم تحقق الرؤية أن يكون المرئي مقابلا للرائي أو ما في حكم المقابل كما في المرآة.

٣ـ يستلزم تحقق الرؤية أن تنعكس صورة المرئي على العين.

٤ـ أو أن تكون الرؤية بواسطة خروج شعاع مخروطي الشكل فيقع على المرئي.

وبناء على ما تقدم من الأقوال جميعاً يلزم أن يكون المرئي جسماً محدوداً ذا أبعاد مختلفة كالطول والعرض والعمق، كما يلزم منها أن يكون واجب الوجود ممكنا له كل صفات الممكنات، فينتفي الكمال المطلق له تعالى ويتصف بالنقص تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وبعد أن حكم العقل السليم بعدم صحة القول برؤيته تعالى بالبصر لابد أن نؤيد حكم العقل بما جاء في الكتاب الكريم، وبما صرح به لسان العصمة من أحاديث محمد وآل محمد صلوات الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

الآيات الكريمة

قال الله تبارك وتعالى:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

وقوله تعالى:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[1].

وبهذه الباقة العطرة من الآيات الكريمة التي تفند مدعى الرؤية البصرية نكتفي بالرد على من يقول بجواز رؤيته تعالى بالبصر.

الأحاديث الشريفة

ما نطق به لسان أهل الذكر، وما صرحت به كلماتهم عليهم السلام يرشدنا إلى صحة ما حكم به العقل من رفض التجسيم لله تعالى ورفض الرؤية البصرية التي تستلزم التجسيم، ولكي تنشرح الصدور بأحاديثهم النورانية نذكرها كالآتي:

١ـ ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً في مسجده إذ دخل عليه رجل من اليهود فقال: يا محمّد ما تدعو؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله».

قال: يا محمّد أخبرني عن هذا الربّ الّذي تدعو إلى وحدانيّته وتزعم أنّك رسوله كيف هو، قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«يا يهوديُّ إنّ ربّي لا يوصف بالكيف لأنّ الكيف مخلوق وهو مكيّفه».

قال: فأين هو؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«إنّ ربّي لا يوصف بالأين لأنّ الأين مخلوق وهو أيّنه».

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

قال: فهل رأيته يا محمّد؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«إنّه لا يرى بالأبصار ولا يدرك بالأوهام».

قال: فبأيّ شيء نعلم أنّه موجود؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«بآياته وأعلامه».

قال: فهل يحمِل العرش أم العرش يحمله؟ فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«يا يهودي إنّ ربّي ليس بحالٍّ ولا محلّ».

قال: فكيف خروج الأمر منه؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«بإحداث الخطاب في المحالّ».

قال: يا محمّد أليس الخلق كلّه له؟! قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«بلى».

قال: فبأيّ شيء اصطفى منهم قوماً لرسالته؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«بسبقهم إلى الإقرار بربوبيّته».

قال: فَلِمَ زعمت أنّك أفضلهم؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«لأنّي أسبقهم إلى الإقرار بربّي عزّ وجلّ».

قال: فأخبرني عن ربّك هل يفعل الظلم؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«لا».

قال: ولِمَ؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«لعلمه بقبحه واستغنائه عنه».

قال: فهل أنزل عليك في ذلك قرآناً يتلى؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«نعم، إنّه يقول عزّ وجلّ:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[١].

ويقول ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٢].

ويقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[٣].

ويقول ـ عزّ وجلّ ـ:

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾[٤]».

قال اليهودي: يا محمّد فإن زعمت أن ربّك لا يظلم فكيف أغرق قوم نوح عليه السلام وفيهم الأطفال؟ فقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«يا يهودي إنّ الله عزّ وجلّ أعقم أرحام نساء قوم نوح أربعين عاماً فأغرقهم حين أغرقهم ولا طفل فيهم، وما كان الله ليهلك الذرّية بذنوب آبائهم، تعالى عن الظلم والجور علوّاً كبيراً».

قال اليهودي: فإن كان ربّك لا يظلم فكيف يخلّد في النار أبد الآبدين من لم يعصه إلاّ أيّاماً معدودة؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«يخلّده على نيّته، فمن علم الله نيّته أنّه لو بقي في الدنيا إلى انقضائها كان يعصي الله عزّ وجلّ يخلّده في ناره على نيّته، ونيّته في ذلك شرّ من عمله، وكذلك يخلّد من يخلّد في الجنّة بأنّه ينوي أنّه لو بقي في الدنيا أيّامها لأطاع الله أبداً، ونيّته خير من

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٨.

(٤) سورة غافر، الآية: ٣١.

عمله، فبالنيّات يخلّد أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار، والله عزّ وجلّ يقول:

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[1]».

قال اليهودي: يا محمّد إنّي أجد في التوراة أنّه لم يكن لله عزّ وجلّ نبيّ إلاّ كان له وصيّ من أمّته فمن وصيّك؟ قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ:

«يا يهودي وصيّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام واسمه في التوراة أليا وفي الإنجيل حيدار، وهو أفضل أمّتي وأعلمهم بربّي، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي، وأنّه لسيّد الأوصياء كما أنّي سيّد الأنبياء».

فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله وأنّ عليّ بن أبي طالب وصيّك حقّاً، والله إنّي لأجد في التوراة كلّ ما ذكرت في جواب مسائلي، وإنّي لأجد فيها صفتك وصفة وصيّك، وأنّه المظلوم ومحتوم له بالشهادة، وأنّه أبو سبطيك وولديك شبراً وشبيراً سيّدي شباب أهل الجنة)[2].

٢ـ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: (جاء حِبْرٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال ـ عليه السلام ـ:

«ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره».

قال: وكيف رأيته؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»)[3].

٣ـ ومن الروايات التي تبين أن القول بالرؤية البصرية يجر إلى التشبيه المحال

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٣٨٦ ـ ٣٨٧ في الهامش.

(٣) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٠٦، ح٦.

والباطل قول الإمام أبي الحسن الثالث عليه السلام: (عن أحمد بن إسحاق، قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما فيه الناس فكتب عليه السلام:

«لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئيّ هواء ينفُذه البصر، فإذا انقطع الهواء وعدم الضياء بين الرائي والمرئيّ لم تصحّ الرؤية وكان في ذلك الاشتباه لأنّ الرائي متى ساوى المرئيّ في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان في ذلك التشبيه، لأنّ الأسباب لابدّ من اتّصالها بالمسبّبات»).

٤ ـ وهذه الرواية تكذّب من افترى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه رأى ربه بالبصر فيقول: (عن ابن فضّال، عن أبي جميلة، عن محمّد بن عليّ الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[1].

قال:

«تبارك الجبّار».

ثمّ أشار إلى ساقه فكشف عنها الإزار، قال:

«ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون».

قال:

«أُفحِم القوم ودخلتهم الهَيْبَة، وشخصت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون»)[2].

وهناك الكثير من الروايات التي تركناها لتجنب الوقوع في الإطالة.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٤٩ ـ ١٥٠.

الرؤية القلبية

لا تخلو الرؤية من أحد المعنيين، المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي لها، فإن كان مرادنا من الرؤية المعنى الحقيقي لها فهي بمعنى الإدراك الحسّي أي الرؤية البصرية، وإن كان مرادنا المعنى المجازي لها فهي بمعنى الإدراك العلمي التام أي الرؤية بالبصيرة أو ما يسمى بالرؤية القلبية، وقد تقدم بطلان الرؤية بالمعنى الأول عقلاً ونقلاً، فتنحصر الرؤية بالمعنى الثاني ولهذا نقول:

إن عظمة الحق سبحانه تتجلى في ذاته وصفاته وأفعاله، وحيث إن الذات الإلهية لا يحاط بها لإحاطتها بكل شيء فلذا عجز المخلوق مهما ارتفعت رتبته وعلت مكانته وسمى فوق غيره من أن ينال الذات الإلهية أو يعرف كنهها وهذا ما أكده الإمام أبو جعفر عليه السلام بقوله: (عن محمّد بن الحسن، عن سهل بن زياد، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي بصير، قال: قال أبو جعفر عليه السلام:

«تَكَلَّمُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَكلّمُوا فِي اللهِ فَإِنَّ الكَلامَ فِي اللهِ لا يَزْدادُ صاحِبُهُ إلاّ تَحَيُّراً».

وفي رواية أخرى عن حَريزٍ، قال عليه السلام:

«تَكَلَّمُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَتَكَلَّمُوا فِي ذاتِ اللهِ»)[1].

والنظر في ذات الله تعالى يؤدي إلى وقوع الناظر في التيه والضلال والاضطراب كما في هذا الحديث:

(عن محمد بن حُمران، عن أبي عبيدة الحذاء قال: قال أبو جعفر عليه السلام:

«يا زِيادُ، إيّاكَ وَالخُصُوماتِ فَإِنَّها تُورِثُ الشَّكَّ وَتُحْبِطُ العَمَلَ وَتُرْدِي صاحِبَها وَعَسى أنْ يَتَكَلَّمَ بِالشَّيْءِ فَلا يُغْفَرُ لَهُ، إنَّهُ كانَ فِيما مَضى قَوْمٌ تَرَكُوا عِلْمَ ما

---

(١) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١١٤، باب النّهي عنِ الكلام في الكيفية، ح١.

وُكِلُوا بِهِ وَطَلَبُوا عِلْمَ ما كُفُوهُ حَتَّى انْتَهى كَلامُهُمْ إِلَى اللهِ فَتَحَيَّرُوا حَتّى أنْ كانَ الرَّجُلُ لَيُدْعى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَيُجِيبُ مِنْ خَلْفِهُ وَيُدْعى مِنْ خَلْفِهِ فَيُجِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ».

وفي روايةٍ أخرى:

«حَتّى تاهُوا في الأرضِ»[(1)].

بل إن المفكر في ذات الله تعالى الذي يبغي الإحاطة بها جاهل محض وعاجز ضعيف وسيقوده تفكيره في ذلك إلى عاقبة سيئة كما في قول الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«مَنْ نَظَرَ فِي اللهِ كَيْفَ هُوَ، هَلَكَ»[(2)].

فلذا أبى الإمام أبو جعفر عليه السلام إلا أن يرشدنا وينصحنا رعاية منه لنا ورحمة منه بنا بقوله:

«إيّاكُمْ وَالتَّفَكُّرَ فِي اللهِ وَلكِنْ إذا أرَدْتُمْ أنْ تَنْظُرُوا إلى عَظَمَتِهِ فَانْظُرُوا إلى عَظيمِ خَلْقِهِ»[(3)].

وبعد هذه الجولة في أحاديث أهل العصمة والطهارة عليهم السلام صار لابد لنا أن نتأمل فيها بإمعان ونستلهمها بقوة ونسترشد بها بدقة لكي نصل إلى اطمئنان القلب وسكون النفس وخضوع الجوارح ونسلم بأن رؤية الله تعالى لا تتم من خلال الحواس، ولا تتحقق رؤية الذات الإلهية إلا من خلال النظر في عظمتها وصفاتها، فبناء على ما تقدم لا تكون الرؤية إلا بالبصيرة، ولا تتحقق إلا الرؤية القلبية وهذا ما تؤكده الأحاديث والروايات الشريفة التي سنقف على مضامينها الآتية:

(١) أصول الكافي للكليني: ج١، ص١١٥، باب النّهي عنِ الكلام في الكيفية، ح٤.

(٢) أصول الكافي للكليني: ج١، ص١١٥، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ح٥.

(٣) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١١٦، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ح٧.

١ ـ في هذا الحديث الشريف يؤكد الإمام عليه السلام على عدم إمكان تحقق الرؤية البصرية لجلال الله تعالى عن صفات الأجسام، كما يؤكد على حصول الرؤية القلبية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول:

«إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى أرى رَسُولَهُ بِقَلْبِهِ مِنْ نُورِ عَظَمَتِهِ ما أَحَبَّ»[1].

٢ـ وحديث الإمام أبي جعفر عليه السلام يشير إلى أن الرؤية القلبية تتحقق لكل مؤمن عالم عارف بربّه من خلال نظره في آيات الله تعالى الأنفسية والآفاقية، فيقول: (عن علي بن معبد، عن عبد الله بن سنان، عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر عليه السلام فدخلَ عليه رجلٌ من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر، أيّ شيء تعبد؟ قال ــ عليه السلام ــ:

«الله تعالى».

قال: رأيته؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«بَلْ لم تَرَهُ العيونُ بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو».

قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته)[2].

٣ـ بيّن الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام أن رؤية الذات الإلهية لا يمكن تتحققها بالبصر ولا بالبصيرة معاً لمحدودية الرائي وقصوره عن إدراك الذات اللامتناهية، فلذا قال: (عن أحمد بن محمد، عن أبي هاشم الجعفري، قال سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: عنِ الله يوصفُ؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«أما تَقرَأ القرآن؟».

---

(١) أصول الكافي للكليني: ج١، ص١١٤، بابٌ في إبطال الرّؤية، ح١.

(٢) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١١٩، باب في إبطال الرؤية، ح٥.

قُلتُ: بَلى، قال ـ عليه السلام ـ:

«أما تقرأ قوله تعالى:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

قلت: بلى، قال ـ عليه السلام ـ:

«فتعرفون الأبصار؟».

قلتُ: بلى، قال ـ عليه السلام ـ:

«ما هي؟».

قلت: أبصار العيون، فقال ـ عليه السلام ـ:

«إنّ أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام»[1].

وهناك الكثير من الروايات التي تؤكد هذا المعنى لجمنا عنها قلمنا لكي لا نقع في الإطالة.

ما هو سبب شبهة الرؤية؟

إن الذين قالوا بجواز رؤيته تعالى بالبصر وقعوا في شبهة التجسيم بسبب فهمهم الخاطئ للآيات الكريمة، وبسبب ابتعادهم عن نهج العترة الطاهرة والثقل الأصغر، فقادهم هذا الابتعاد إلى التعامل مع الآيات الكريمة بسطحية وبساطة في الفهم، ودفعهم إلى الجمود على ظواهر الآيات الكريمة وهذا بدوره أدى إلى صدور أفكار مخالفة للعقل وأقوال تتقاطع مع النصوص الصريحة في تنزيه الحق سبحانه كقوله تعالى:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2].

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٢٠، باب في قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، ح١٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

وقوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[١].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢].

وقد ترك هذا الفهم السطحي والخاطئ تركة فكرية ثقيلة على عقول بعض طوائف المسلمين وهذا ما نلمسه من الحديث الآتي:

(عن أحمد بن إدريس، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرّة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتّى بلغ سؤاله إلى التوحيد فقال أبو قرّة: إنا روينا أنّ اللهَ قسم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسم الكلام لموسى ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام:

«فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

أليس محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟».

قال: بلى. قال عليه السلام:

«كيف يجيء رجل إلى الخَلقِ جميعا فيخبُرُهُمْ أنّه جاء من عند الله وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله فَيقولُ: (لا تدركه الأبصار)، و(لا يحيطون به علما)، و(ليس كمثله شيء)، ثمّ يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علما وهو على صورة البشر، أما

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

تستحون؟ ما قدرَتِ الزّنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر».

قال أبو قرّة: فإنّه يقول:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[1].

فقال أبو الحسن عليه السلام:

«إنّ بعد هذه الآية ما يدلّ على ما رأى حيث قال:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾.

يقول: ما كذب فؤادُ محمّد ما رأتْ عَيناه، ثمّ أخبر بما رأى فقال:

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2].

فآيات اللهِ غيرُ اللهِ وقد قال الله:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾.

فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة».

فقال أبو قرّة: فتُكَذِّبُ بالرّوايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام:

«إذا كانَتِ الرّوايات مخالفة للقرآن كذّبْتُها، وما أجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَيهِ أنّه لا يُحاط به عِلْماً ولا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ»[3].

فمن هذا الحديث الذي سقناه إليكم تظهر بعض الإرشادات التي أفاض بها الإمام عليه السلام على السائل لكي يضع قدمه على الصراط المستقيم، ويرتفع اللبس عن عقله وتنار ظلمة أفكاره بنور الإمام عليه السلام وهي كما يلي:

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٣.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٣) أصول الكافي للشيخ الكليني: ج١، ص١١٧ ـ ١١٨، باب في إبطال الرّؤية، ح٢.

١ـ في حالة وجود تقاطع مع كلام الله تعالى يقدم كلام الله تعالى على غيره من الكلام وإن كان منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ـ يؤكد الإمام عليه السلام للسائل أن حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يناقض القرآن الكريم كون مصدرهما واحداً وهو نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ـ ثم يفسر الإمام عليه السلام الآيات تفسيرا يدفع شبهة الرؤية البصرية عن فهم السائل الذي أوسر عقله بفهم خاطئ للآية.

معنى الإدراك الإلهي

ورد قوله تعالى:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[١].

كعبارة على لسان الإمام الحسن عليه السلام يصف بها ربه سبحانه، ولكي نقف على معنى هذه العبارة لابد أن نعرف معنى الإدراك.

الإدراك في اللغة: أدرك الشيء: بلغ علمه أقصى الشيء[٢].

الإدراك في الاصطلاح: هو علمه تعالى بالمدركات والإحاطة بها.

إذا اطلع الإنسان على أمر ما في الواقع الخارجي يدركه بأحد حواسه الخمس، أمّا من خلال البصر أو السمع أو الذائقة أو اللمس أو الشم فيستطيع أن يصفه بحسب علمه الحسي لذلك الشيء المحسوسيّ، لكن الإدراك بالنسبة لله تعالى لا يمكن أن يكون كذلك لتنزّهه تعالى عن الحواس، فيكون إدراكه تعالى للأشياء المدركة هو علمه بها دون اشتباه أو التباس أو خطأ، وكيف لا يدرك المحسوسات وغيرهاوهو الذي أحاط بكل شيء علما؟

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) المعجم الوسيط: ص٢٨١.

وهو اللطيف الخبير

اللطيف

للطيف معنيان هما:

اللطيف: (من أسماء الله الحسنى البر بعباده الرفيق بهم والعالم بخفايا الأمور ودقائقها.

اللطيف: الصغير، الرقيق، ألطف فلانا بكذا: أتحفه وبرّه.

استلطف الشيء: قربه منه وألصقه بجنبه.

اللّطّف: الرفق، الهدية، يقال: أهدى إليه لطفا، وما أكثر تحفه وألطافه.

اللطف: من قبل الله تعالى: التوفيق العصمة)[1].

فلو تأملنا هذه المعاني لكلمة (اللطيف، اللطف) لانطبقت بعضها على صفته تعالى، فهو الرفيق بعباده الحنّان الذي يرأف بعبده أكثر من رأفة الوالدين بالصغير، وهو الذي يغدق على عبده بعطاياه ومنحه ونعمه، ويتقرب إلى صالحهم ويوفقه ويحول بينه وبين الآثام والخطايا رحمة وحباً وتفضلاً.

فالله تعالى لطيف بالمعنى الذي يليق بشأنه سبحانه، كما أنه تعالى منزه عن معنى الصغير أو الرقيق التي هي من معاني صفات الممكنات المحدودة العاجزة.

وهناك معنى آخر يتضح من خلاله اسم اللطيف: وهو أن الله تعالى خلق خلقاً في غاية الصغر والدقة واللطافة وقد أحاط به علما فلذا سمي باللطيف وهذا ما تؤكده الروايات الشريفة:

ـ ورد عنه عليه السلام:

«إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه ما العباد مقرّفون في ليلهم ونهارهم، لطف به خبرا وأحاط به علما».

---

(١) المعجم الوسيط: ص٨٢٦.

ـ ورد عنه عليه السلام:

«لا إله إلا الله اللطيف بمن شرد عنه من مسرف في عباده ليرجع عن عتوه وعناده».

ـ عن الإمام الحسن عليه السلام:

«ربنا اللطيف بلطف ربوبيته».

ـ عن الإمام الصادق عليه السلام:

«سميناه لطيفا للخلق اللطيف ولعله بالشيء اللطيف ما خلق من البعوض والذرة، وما هو أصغر منها لا يكاد تدركه الأبصار والعقول، لصغر خلقه من عينه وسمعه وصورته، لا يعرف من ذلك لصغر الذكر من الأنثى، ولا الحديث المولود من القديم الوالد، فلما رأينا لطف ذلك في صغره وموضع العقل فيه والشهوة للفساد، والهرب من الموت، والحدب على نسله من ولده، ومعرفة بعضها بعضا، وما كان منها في لجج البحار، وأعنان السماء والمفاوز والقفار، وما هو معنا في منزلنا، ويفهم بعضهم بعضا من منطقهم، وما يفهم من أولادها ونقلها الطعام إليها والماء علمنا أن خالقها لطيف، وإنه لطيف بخلق اللطيف».

ـ عن الإمام الرضا عليه السلام:

«وأمّا اللطيف فليس على قلة وقضافة (دقة) وصغر، ولكن ذلك على النفاذ في الأشياء والامتناع من أن يدرك، كقولك للرجل لطف عني هذا الأمر ولطف فلان في مذهبه، وقوله يخبرك أنه غمض فيه العقل وفات الطلب وعاد متعمقا متلطفا لا يدركه الوهم، فكذلك لطف الله تبارك وتعالى عن أن يدركه بحد أو يحد بوصف، واللطافة منا الصغر والقلة، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى».

وهناك الكثير من الروايات التي تؤكد نفس المعنى لكلمة اللطيف الذي ورد في الروايات المبينة أعلاه.

الخبير

جاء المعنى اللغوي لاسم الخبير بمعنى: اسم من أسماء الله عز وجل، وهو العالم بما كان وما يكون، وذو الخبرة الذي يخبر الشيء بعلمه وفي التنزيل العزيز (فاسأل به خبيرا)[١].

فالله تعالى هو واجب الوجود الذي اتصف بصفات كمالية مطلقة كالعلم والإحاطة بكل شيء، وهو الذي لا يعزب عنه شيء ولا يفوته مهما دق وصغر واختفى، وهو الذي يعلم السر وأخفى، مما يدل على إحاطة علمه بحقيقة الأشياء وبظاهرها وباطنها وهذا ما أكده الإمام الرضا عليه السلام بقوله:

«وأمّا الخبير فالذي لا يعزب عنه شئ ولا يفوته، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء، وأمّا في بعض المصادر: فتفيده التجربة والاعتبار علما لولاهما ما علم؛ لأن من كان كذلك كان جاهلا، والله تعالى لم يزل خبيرا بما يخلق، والخبير من الناس المستخبر عن جهل المتعلم، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»[٢].

وعنه أيضا عليه السلام:

«لم يكن قوام الخلق وصلاحهم إلا بالإقرار منهم بعليم خبير، يعلم السر وأخفى، آمر بالصلاح، ناه عن الفساد»[٣].

وتشير الأحاديث التي سبق ذكرها إلى خبرته التي هي بمعنى الإحاطة التامة بما خلق لا عن تجربة أو اعتبار كما يحصل ذلك في البشر، كما أن خبرته لم تكن عن تعلم لرفع جهل أو تدريب لصقل موهبة.

---

(١) المعجم الوسيط: ص٢١٥.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٤، ص٢٠١، ح٤٥٥٤.

(٣) المصدر السابق: ح٤٥٥٥.

استخلص الوحدانية والجبروت

عند الوقوف على هذه العبارات الحسينية التي نطق بها لسان العصمة، وصرح بها عقل الإمامة تلمس المعاني الملكوتية التي تسمو بسامعها إلى سحاب الحكمة وشمس الحقيقة الإلهية التي تحار العقول في معرفة كنهها وتعجز الألباب عن الإحاطة بها، وأنى لغير عنوان العصمة وسليل النبوة ومعدن العلم أن يقف على عمق هذه المفردات؟ إلاّ أن ذلك لا يمنع عن بيان ما وصلت إليه الأفهام وأدركته العقول فأقول:

تقدم بيان المعنى اللغوي لمفردة الوحدانية في شرح المعنى العام، فلذا نعطف الكلام على بيان المعنى الاصطلاحي للمفردة فتأتي الوحدانية بعدة معاني كلها تنطبق على الذات المقدسة، فتارة بمعنى لا نظير له ولا شبيه، وأخرى بمعنى الذات البسيطة التي لا تركيب فيها ولا أجزاء لها، وثالثة بمعنى المعبود الذي لا معبود سواه، ويترسخ معنى الوحدانية في عقولنا.

عندما نتأمل هذا الكون الفسيح وهذه الموجودات الممكنة التي تنصور كأنها مجموعة واحدة لما فيها من ارتباط وتناسب وهذا بدوره يدل على أن صانعها ومدبرها واحد لا أحد سواه، وعند التفكر والنظر في معنى الإله لا يظهر لنا إلا معنى واحداً وهو أن الإله هو الموجود الغني مطلقاً، وهذا المعنى ينفي بدوره تعدد الإله، ولكي ندرك المعنى لابد من توضيح البرهانين فنقول: (وجدت في هذا الكون موجودات مرتبطة بعضها ببعض أي لا تستطيع الاستغناء عن بعضها البعض فلو ضربنا مثلا نقول: لكي يتغذى الإنسان لابد من وجود نبات مثمر وهذا النبات يحتاج إلى أرض وماء وهواء وعوامل أخرى لكي يعطي ثماره وإلا لو فقد عامل من هذه العوامل لما وجد النبات ولما تغذى الإنسان ولما تحققت غاية الخلقة التي هي العبادة لله الواحد الأحد (وما خلقت الجن والإنسان إلا ليعبدون) فيظهر مما تقدم لابد من وجود ترابط بين الموجودات بل هو من سماتها دل هذا بدوره على أن صانعها ومدبرها واحد لا أحد

سواه تعالى، وإلا للزم التعارض والتدافع والفساد كما في قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢).

وأمّا لبيان البرهان الثاني نقول: لو فرضنا تعدد الآلهة للزم من فرضنا وجود جهات اختلاف بينهم، أي يتصف أحدهم بصفة غير موجودة عند غيرهم فيلزم من ذلك الحاجة ويلزم من الحاجة الفقر وهذا خلاف صفات الإله الذي هو غني مطلق، ومن جهة أخرى لو قلنا بتعدد الآلهة للزم وجود الفواصل بينهم وهذا يؤدي بدوره إلى تعدد القدماء إذ إن الإله يتصف بالقدم فيلزم أن يكون الفاصل بينه وبين الإله الآخر قديماً أيضا فيتعدد القدماء ويتسلسل الفواصل وحيث إن التسلسل باطل كما هو ثابت في محله إذن يلزم من ذلك عدم التعدد ومن عدم التعدد يلزم القول بالوحدانية.

ويؤيد ما تقدم من بيان ما جاء في القرآن الكريم من آيات كريمة نذكرها كما يلي:

١ـ قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٣).

٢ـ قال الباري عزّ وجل:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ٥١.

٣ـ قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[١].

٤ـ قال الله تبارك وتعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٢].

٥ـ قال الله عزّ وجل:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[٣].

كما يؤكد ذلك ما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وهي كما يلي:

١ـ عن إسحاق بن غالب، (عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض خطبه:

الحمد لله الذي كان في أوّليّته وَحْدانيّاً، وفي أزليّته متعظّماً بالإلهيّة، متكبّراً بكبريائه وجبروته ابتدأ ما ابتدع، وأنشأ ما خلق على غير مثالٍ كان سبق بشيءٍ ممّا خلق، ربّنا القديم بلطف ربوبيّته وبعلم خُبره فتق وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق، وبنور الإصباح فلق، فلا مبدّل لخلقه، ولا مغيّر لصنعه، ولا معقّب لحكمه، ولا رادّ لأمره، ولا مستراح عن دعوته ولا زوال لمُلكه، ولا انقطاع لمدّته، وهو الكَيْنون أوّلاً والدَيموم أبداً، المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامح، والعزّ الشامخ والملك الباذخ، فوق كلّ شيءٍ علا، ومن كلّ شيءٍ دنا، فتجلّى لخلقه من غير أن يكون يُرى، وهو بالمنظر الأعلى، فأحبّ الاختصاص

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٣) سورة التوحيد، الآية: ١.

بالتوحيد إذ احتجب بنوره، وسما في علوّه، واستتر عن خلقه، وبعث إليهم الرسل لتكون له الحجّة البالغة على خلقه ويكون رسله إليهم شهداء عليهم، وابتعث فيهم النبييّن مبشّرين ومنذرين ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة، وليعقل العباد عن ربّهم ما جهلوه فيعرفوه بربوبيّته بعد ما أنكروا ويوحّدوه بالإلهيّة بعد ما عضدوا»)[1].

٢ـ وصيّة من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام عند إنصرافه من صفّين، وقد جاء فيها:

«... واعلم يا بنيّ! أنّه لو كان لربّك شريك لأتَتْك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته.

ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً، أوّل قبل الأشياء بلا أوّلية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية...»[2])[3].

٣ـ حدّثنا أبي؛ وعبد الواحد بن محمّد بن عَبْدوس العطّار رحمهما الله، قالا: حدّثنا عليّ بن محمّد بن قُتَيبة، عن الفضل بن شاذان، عن محمّد بن أبي عمير، قال: (دخلت على سيّدي موسى بن جعفر عليه السلام فقلت له: يا بن رسول الله علّمني التوحيد فقال ـ عليه السلام ـ:

«يا أبا أحمد لا تتجاوز في التوحيد ما ذكره الله تعالى ذكره في كتابه فتهلك واعلم أنّ الله تعالى واحد، أحد، صمد، لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يتّخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً، وإنّه الحيّ الّذي لا يموت، والقادر الّذي لا يعجَز، والقاهر الّذي لا يغلب، والحليم الّذي لا يعجل، والدائم الّذي لا يَبيد، والباقي

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٤٥ ـ ٤٦، ح٤.

(٢) نهج البلاغة: قسم الرسائل، ص٤٩، الوصية رقم ٣١.

(٣) العقائد الحقّة للسيد علي الحسيني الصدر: ص٤٨، ح٢.

الّذي لا يَفْنى، والثابت الّذي لا يزول، والغنيّ الّذي لا يفتقر، والعزيز الّذي لا يذلّ، والعالم الّذي لا يجهل، والعدل الّذي لا يجور، والجواد الّذي لا يبخل، وإنّه لا تقدّره العقول، ولا تقع عليه الأوهام، ولا تحيط به الأقطار، ولا يحويه مكان، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير (ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا) وهو الأوّل الّذي لا شيء قبله، والآخر الّذي لا شيء بعده، وهو القديم وما سواه مخلوق محدث، تعالى عن صفات المخلوقين علوّاً كبيراً»)[1].

٤ـ عن أبي هاشم الجعفري، قال: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام ما معنى الواحد؟ قال ـ عليه السلام ـ:

«الّذي اجتماع الألسن عليه بالتوحيد، كما قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2]»[3].

٥ـ حدّثنا محمّد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه، قال: حدّثنا محمّد بن سعيد بن يحيى البُزُوري، قال: حدّثنا إبراهيم بن الهيثم البلديّ، قال: حدّثنا أبي، عن المعافي بن عمران، عن إسرائيل، عن المقدام بن شُرَيْح بن هانئ، عن أبيه، قال: (إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين أتقول إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، قالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب، فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٧٤، ح٣٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٣) كتاب التوحيد للصدوق: ص٨٠، ح٢.

«دعوه، فإنّ الّذي يريده الأعرابي هو الّذي نريده من القوم».

ثمّ قال ـ عليه السلام ـ:

«يا أعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجلّ، ووجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه، فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لا يجوز، لأنّ مالا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة، وقول القائل: هو أحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز عليه لأنّه تشبيه، وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالى، وأمّا اللذان الوجهان يثبتان فيه فقول القائل: (هو واحد ليس له في الأشياء شبه، كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ وجل أحدي المعنى، يعني به أنّه لا ينقسم في وجوه ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجل)»[1].

معنى الجبروت

جاء المعنى اللغوي للجبروت بمعنى القهر[2]، والقهر يعني الغلبة، والقهار اسم من أسماء الله الحسنى: الغالب لا يحد غلبته شيء[3]، والتأمل في هذه المعاني اللغوية يقودنا إلى معرفة أن الله تعالى غالب مهيمن له السلطة المطلقة لا ند ولا ضد له في ذلك، إذ لا معنى أن يكون قهاراً ولقاهريته حدود أو يكون ذا جبروت ولجبروته انقطاع وتقهقر بجبروت آخر وقاهرية أخرى، وحيث إننا نعلم أن القاهر صفة يمكن انطباقها على المخلوق فيشعر ذلك باشتراك الخالق والمخلوق في صفة القاهرية إلا أن القرآن الكريم نفى هذا الشعور كما في قوله تعالى:

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٨١، ح٣.

(٢) المعجم الوسيط: ص١٠٥.

(٣) المعجم الوسيط: ص٧٦٤.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[(١)].

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾[(٢)].

وغيرها من الآيات الكريمة الأخرى التي تؤكد أن الله تعالى هو قاهر كل قاهر ومتسلط على جميع القاهرين وقاطع لقاهرية كل قاهر فلذا وصف بصفة المبالغة (القهّار) التي تقدم معناها في أول البحث، كما أن الآيات التي تشير إلى فقر الموجودات وحاجتها تؤكد أن هذه القاهرية التي يتصف بها الموجود هي قاهرية غير حقيقية لأنها ناشئة من أقدار الله تعالى وتمكينه لهذا المخلوق القاهر، أي أن صفة القاهرية في المخلوق جاءت من غيره وليس بالاستقلال بذاته، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[(٣)].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٨.

بل أن الآيات الكريمة تبيّن أن هذا الإنسان القاهر يحتاج إلى ربه في قاهريته حدوثا واستمرارية كما في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾(1).

وقال الباري عزّ وجل:

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾(2).

فمعنى (القيوم) في الآيتين هو القائم بذاته والمقوّم لغيره، فهو تعالى الذي أوجد الأشياء ودبرها وأدام بقاءها.

(وقد أثبت الله تعالى أصل القيام بأمور خلقه لنفسه في كلمه حيث قال تعالى:

﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾(3).

وقال تعالى ـ وهو أشمل من الآية السابقة ـ:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(4).

فأفاد أنه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطي ولا يمنع شيئاً في الوجود (وليس الوجود إلاّ الإعطاء والمنع) إلاّ بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ثم بين أن

---

(1) سورة البقرة، الآية: 255.

(2) سورة طه، الآية: 111.

(3) سورة الرعد، الآية: 33.

(4) سورة آل عمران، الآية: 18.

هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين العزيز الحكيم، فبعزته يقوم على كل شيء وبحكمته يعدل فيه.

وبالجملة لما كان تعالى هو المبدأ الذي يبتدئ منه وجود كل شيء وأوصافه وآثاره لا مبدأ سواه إلاّ وهو ينتهي إليه، فهو القائم على كل شيء من كل جهة بحقيقة القيام الذي لا يشوبه فتور وخلل، وليس ذلك لغيره قط إلاّ بإذنه بوجه، فليس له تعالى إلاّ القيام من غير ضعف وفتور، وليس لغيره إلاّ أن يقوم به، فهناك حصران: حصر القيام عليه، وحصره على القيام، وأول الحصرين هو الذي يدل عليه كون القيوم في الآية خبرا بعد خبر لله (الله القيوم)، والحصر الثاني هو الذي تدل عليه الجملة التالية أعني قوله:

﴿سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1])[2].

فيظهر مما تقدم أن القاهرية الحقيقية صفة لله تعالى وحده لا شريك له، أي أن الجبروت منحصر به تعالى قد استخلصه لنفسه، وما يؤيد ذلك أيضا عجز المخلوقات ومحدوديتها وفناؤها، كما في قوله تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[3].

المشيئة والإرادة

ـ وقوله عليه السلام:

(وأمضَى المَشِيئَةَ والإرادَةَ والقُدرَةَ العِلمَ بما هُوَ كائِنٌ).

خلق الله تعالى الخلق لغاية ذكرها في كتابه الكريم كما في قوله عز وجل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ج٢، ص٣٣٥.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

ودبر شؤون خلقه ونهج لهم المناهج وشرع لهم الشرائع وأغدق عليهم البركات بإرادته ومشيئته وبقدرته وعلمه، ولكي نقف على معنى قول الإمام الحسين عليه السلام (وأمضَى المَشِيئَةَ والإرادَةَ والقُدرَةَ العِلمَ بما هُوَ كائِنٌ) لابد من معرفة معاني هذه المفردات ومفاهيمها.

الإمضاء في اللغة: أمض الحكم والأمر: أنفذه[١].

الإرادة والمشيئة: كلمتان لمعنى واحد كما ورد في المعجم الوسيط[٢].

القدرة: الطاقة: القوة على الشيء والتمكن منه[٣].

العلم: إدراك الشيء بحقيقته و ـ اليقين ـ نور يقذفه الله في قلب من يحب[٤].

ولبيان المعنى التام لقوله عليه السلام نقول:

ثبت في محله أن الله تعالى مريد والإرادة من صفاته إلا أن هذه الإرادة تختلف عن الإرادة في الإنسان لأنه تعالى ليس كمثله شيء ولكي يتضح الفرق بين إرادة الإنسان وبين إرادة الله تعالى لابد من استعراض الأقوال في معنى الإرادة في الإنسان قبل ذلك.

الإرادة: كيفية نفسانية تشتمل عليها النفس البشرية كغيرها من الكيفيات النفسانية والأقوال فيها ما يلي:

١ ـ يرى المعتزلة أن الإرادة هي اعتقاد النفع، ويلاحظ على هذا القول عدم تماميته لأن مجرد الاعتقاد بالنفع لا يكفي أن يكون داعيا للفعل لما نلاحظ من كثرة من يعتقد النفع ولا يريده.

٢ ـ وهناك قول آخر بأن الإرادة شوق نفساني يقع في النفس بعد الاعتقاد بالنفع،

---

(١) المعجم الوسيط: ص٨٧٥.

(٢) المعجم الوسيط: ص٥٠٢.

(٣) المعجم الوسيط: ص٧١٨.

(٤) المعجم الوسيط: ص٦٢٤.

وهذا القول لا يمكن الالتزام به لأننا نرى من يريد شيئا ويحققه دون أن يكون لديه شوق إزاءه.

٣ـ وقول ثالث يشير إلى أن الإرادة كيفية نفسانية ولكن ليست هي الاعتقاد فقط أو هي الشوق كما تقدم بل هي القصد والعزم(١).

وما ورد من الأقوال في تفسير الإرادة لا يمكن انطباقه على إرادة الله تعالى لتنزهه عن الكيفيات النفسانية حيث إنها من صفات الممكن لا من صفات الواجب سبحانه ولكي يتضح الأمر نقول ما يلي:

لو قلنا إن الإرادة هي مجرد الاعتقاد بالنفع للزم من هذا القول أن الإرادة هي العلم والقطع بالنفع والحال أننا نجد أن هناك شيئا يدفعنا إلى الفعل ليس هو العلم بالنفع فقط، ونجد كذلك أننا نعتقد بالنفع ولكن لا نترك إزاء تحصيله لعدم وجود إرادة لذلك وتفسير الإرادة بالشوق محال على الله تعالى لمعرفتنا أن الشوق من مقولة الانفعال التي تعالى الله عنها، وأمّا القول الثالث بأنها قصد وعزم يلزم منه الحدوث بعد العدم ويلزم من هذا التغيير في الذات الإلهية المقدسة التي تنزهت عن صفات الممكن.

حقيقة الإرادة الإلهية

بعد أن اتضح أن الإرادة بمعانيها التي تقدمت لا تنطبق على إرادة الله تعالى صار لابد لنا من بيان حقيقة الإرادة الإلهية التي لا تشبه إرادة المخلوق فنقول:

وردت أقوال عديدة لأهل العلم في معنى الإرادة نذكرها باختصار دفعاً للتوسع:

ألف: إرادته سبحانه علمه بالنظام الأصلح:

أي أن علمه بالنظام الأتم والأكمل هو عين إرادته فيلزم من هذا أن تكون الإرادة هي عين العلم بالنظام وليس شيئا غيره وهذا العلم هو الداعي للفعل لا شيء آخر.

---

(١) الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ص١٦٦.

باء: إرادته سبحانه ابتهاجه بفعله:

أي أنه تعالى خير محض فهو مبتهج بذاته ولأنه كذلك فهو مبتهج في مرحلة الفعل لأنه من أحب شيئاً أحب آثاره ولوازمه.

جيم: إرادته سبحانه إعمال القدرة والسلطة:

المقصود من هذا أن إعمال القدرة والسلطة على خلقه هي بعينها إرادته.

دال: إرادته سبحانه نسبة تمامية السبب إلى الفعل:

المقصود من هذا هو أن الفعل يكون مراداً له تعالى إذا اكتملت علله ومقتضياته[1].

هذه الأقوال هي أقوال الفريق الأول وما يراه الفريق الثاني فهو: (أن الإرادة من الصفات الذاتية وتجري عليه سبحانه مع تجردها من صفات النقص والإمكان كالحدوث والطروء والتدرج... الخ)[2].

(ومعنى كونه مريداً أي فاعلاً مختاراً في مقابل كونه فاعلاً مضطراً)[3].

وأمّا لسان الروايات فإن إرادته تعالى هي فعله ليس إلاّ كما دلّت على ذلك الأحاديث الشريفة:

ألف: حدّثنا محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، قال: حدّثنا الحسين بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن عاصم بن حُمَيْد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قلت له: لم يزل الله مريداً؟ فقال ـ عليه السلام ـ:

«إنّ المريد لا يكون إلا لمرادٍ معه، بل لم يزل عالماً قادراً ثمّ أراد»)[4].

(١) كتاب الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ص١٦٨ ـ ١٧٣.

(٢) كتاب الإلهيات، جعفر السبحاني: ص١٧٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٤١، ح١٥.

باء: حدّثنا الحسين بن أحمد بن إدريس، عن أبيه، عن محمّد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، قال: (قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن المخلوق، فقال ـ عليه السلام ـ:

«الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنّه لا يروّي، ولا يهمّ، ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر، ولا كيفَ لذلك كما أنّه بلا كيفٍ»)[1].

أسئلة مهمة في الإرادة

السؤال: ما هو الفرق بين إرادة العبد وإرادة الله تعالى؟

الجواب:

١ـ إرادة العبد يسبقها تفكير وترويّ وهم، وإرادة الله تعالى منزهة عن ذلك بل هي فعله.

٢ـ إرادة العبد سابقة على الفعل، وإرادة الله تعالى في مقام الفعل هي عين الفعل.

وهذا ما تؤكد الرواية الشريفة:

قال أبو الحسن عليه السلام:

«الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنّه لا يروّي، ولا يهمّ، ولا يتفكّر، وهذه

(١) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٤٢، ح١٧.

الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر، ولا كيفَ لذلك كما أنّه بلا كيفٍ»[1].

السؤال: هل أن إرادة الله تعالى تلغي إرادة العبد واختياره؟

الجواب: أن إرادة الله تعالى لا تلغي إرادة العبد ولا تمنع اختياره وللتوضيح أقول:

إنه تعالى جعل العبد مستطيعا فأمره فيما أمره ونهاه عما ليس فوق طاقته وهذا ما أشارت له الروايات الشريفة:

عن عبيد بن زرارة، قال: حدّثني حمزة بن حُمران، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الاستطاعة فلم يجبني، فدخلت عليه دخلة أخرى فقلت: أصلحك الله إنّه قد وقع في قلبي منها شيء لا يخرجه إلاّ شيء أسمعه منك.

قال ـ عليه السلام ـ:

«فإنّه لا يضرّك ما كان في قلبك».

قلت: أصلحك الله فإنّي أقول: إنّ الله تبارك وتعالى لم يكلّف العباد إلاّ ما يستطيعون وإلاّ ما يطيقون، فإنّهم لا يصنعون شيئاً من ذلك إلاّ بإرادة الله ومشيئته وقضائه وقَدَره؛ قال ـ عليه السلام ـ:

«هذا دين الله الّذي أنا عليه وآبائي أو كما قال»)[2].

كما أن العدل الإلهي يقتضي أن يكون المكلف مستطيعا لما كلف به وإلاّ يلزم التكليف بما لا يطلق فيلزم من ذلك الظلم، والله تعالى عادل لا يجور ولا يظلم.

---

(١) كتاب التوحيد: ص١٤٢، ح١٧.

(٢) كتاب التوحيد للصدوق: ص٣٣٧، ح٣.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[2].

السؤال: كيف نفسّر ما يصيب العبد من الأذى هل بإرادة الله تعالى أم بإرادة العبد؟

الجواب:

هناك أسباب ودواعٍ لوقوع الأذى على العبد نذكرها كالآتي:

١ ـ قد يصيب العبد الأذى بسبب سوء فعله فيجزى بذلك كما صرحت الآيات والروايات كقوله تعالى:

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٧.

وقال تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وقال الباري عزّ وجل في سورة الشورى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[٢].

وهناك الكثير من الآيات التي تشير إلى أن بعض الأذى التي يصيب الإنسان هو بسبب فعله السيئ، وهذا لا يخرج عن إرادة الله تعالى.

وهناك الكثير من الروايات التي تؤكد أن بعض الآلام أو الآثار المؤذية هي بسبب سوء فعل الإنسان كما في الروايات الآتية:

ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أوحى الله تعالى إلى أيوب هل تدري ما ذنبك إليّ حين أصابك البلاء؟ قال: لا. قال: إنّك دخلت على فرعون فداهنت في كلمتين»[٣].

ـ وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يجني على المرء إلا يده»[٤].

٢ـ هناك بعض الأذى قد يصيب العبد دون أن يكون لإرادته دخل في ذلك، كإصابته بمرض دون تقصير منه أو غير ذلك من الأمثلة الكثيرة، بل قد يتعرض العبد لأنواع من الألم لا يتحملها إلا من صبر واحتسب، وهذا يتم بلحاظين:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٣) الدعات للراوندي: ٣٠٤/١٢٣. أنظر المداهنة: باب ١٢٧٥. ميزان الحكمة: ج١، ص٤٠٠، ح١٩١٢.

(٤) نور الثقلين: ٧٧/٢٠٩/٤. ميزان الحكمة: ج١، ص٤٠٢، ح١٩١٣.

ألف: إمّا أن ذلك الأذى ابتلاء للعبد وإن كان تعالى عالما بما يؤول إليه الأمر إلاّ أن ذلك الابتلاء لكي تكون الحجة البالغة لله تعالى على الناس كما في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

وورد أيضا في الروايات الشريفة ما يشير إلى ذلك كما في قول أبي عبد الله عليه السلام:

«ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه المنّ والابتلاء»(٣).

وجاء في كتاب التوحيد أيضا عن علي بن إبراهيم بن هشان، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن يونس بن عبد الرحمن، عن حمزة بن محمد الطيّار، (عن أبي عبد الله عليه السلام:

«ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه مشيّة وقضاء وابتلاء»(٤).

ولقد جاء هذا الابتلاء لكي يقع ما يعلمه الله تعالى من العبد وباختياره فيجزئ كل عامل بعمله ولا شك أن هذا الابتلاء يصنع فئة مؤمنة صابرة تكون قدوة لغيرها كما يحكي ذلك القرآن الكريم في قصة نبي الله أيوب عليه السلام.

باء: قد يصاب العبد بأذى وآلام لا لذنب اقترفه ولا للابتلاء والامتحان بل لكي ينال درجة ورتبة عالية عند ربه كما حصل ذلك للإمام الحسين عليه السلام حيث

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٣) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص٣٤٤، باب الابتلاء والاختيار، ح١.

(٤) التوحيد للصدوق: ص٣٤٤ ـ ٣٤٥، ح٢.

أصابه من الألم والأذى ما لا يستطيع أحد تحمله إلاّ المعصوم لكي ينال درجة ادخرها الله تعالى له كما في حديث جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم:

«حبيبي يا حسين إن أباك وأمك وأخاك قدموا عليّ وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشهادة»[١].

وهذا ما تؤكده الروايات الشريفة كما في قول هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل».

ورواية سلمان بن خالد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إنه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلا بإحدى خصلتين، إما بذهاب ماله أو ببلية في جسده»[٢].

فيظهر من هاتين الروايتين وغيرهما أن هذا البلاء هو لطف إلهي يمنّ به الله تعالى على عباده ليوصلهم إلى مقاماتهم المحمودة السامية.

وللبلايا فوائد كثيرة منها:

ألف: أن تكون المصائب دافعاً لتحرك القابليات ونهوض الهمم.

باء: أن تكون المصائب هزة لإيقاظ الغافلين المنغمسين في لذائذ الدنيا لكي يرجعوا إلى بارئهم الحق سبحانه.

جيم: أن تكون المصائب سببا في معرفة النعم وشكرها وتعظيمها كالعافية لا تعرف قيمتها إلا بعد الإصابة بالمرض وهكذا.

وخلاصة القول: إن أفعال العباد أمر بين الأمرين بين الجبر والتفويض الباطلين

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٤، ص٣٢٨.

(٢) الكافي للكليني: ج٢، ص٢٥٧، ح٢٣؛ وسائل الشيعة: ج٣، ص٢٦٢، ح٣٥٨٧.

أي أن الله تعالى جعل الاختيار لعباده في الفعل والترك مع قدرته على منعهم عما يختارون وعلى جبرهم فيما يتركون، كما أنه أقدرهم على أفعالهم ولكن حد لهم الحدود ونهاهم عن القبائح، وبناء على هذا فإن إرادة العبد في طول إرادة الله تعالى لا في قبالها.

وأمّا إرادته في الطاعات فهي الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها.

قدرة الله تعالى

تعريف القدرة: هي الطاقة، القوة على الشيء والتمكن منه[(١)].

القدير: ذو القدرة، وهو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يوصف به إلاّ الله تعالى.

تعريفها اصطلاحا: هي المكنة على الفعل أو الترك، مع الاختيار والإرادة[(٢)].

وهناك تعاريف أخرى لا تخرج عما ذكرناه لا حاجة لذكرها.

وإن القدرة التي يتصف بها الحق سبحانه لابد أن تلازم الاختيار وإلاّ انقلب القادر إلى موجَب أي مجبور على الفعل أو مجبور على الترك ولكي يتضح معنى القادر ومعنى الموجب لابد من ذكر الفارق بينهما:

ألف: للقادر أن يفعل إذا شاء ذلك، وله أن يترك إذا شاء ذلك في آن واحد وبالنسبة لشيء واحد، وأمّا الموجَب ليس له أن يفعل إذا وجب عليه أن يترك، وليس له أن يترك إذا وجب عليه أن يفعل.

باء: للقادر العلم بما يقدم عليه قبل الإقدام وأثناءه، وليس للموجب ذلك.

---

(١) المعجم الوسيط: ص٧١٨.

(٢) بداية المعرفة: ص١٠١.

جيم: فعل القادر يجوز أن يتأخر عن فاعله وجوداً، وليس للموجب ذلك حيث إن فعله لا ينفك عنه كالإحراق بالنسبة للنار.

وحيث إن من صفاته تعالى أنه قدير لابد لنا من معرفة الدليل على ذلك، ومعرفة صحة هذه القدرة، وهل هي من صفات الذات أم الفعل؟ وهذا ما سنتعرض له في بحثنا هذا بحسب الحاجة لذلك فنقول:

١ـ أمّا بالنسبة للدليل على قدرته تعالى فلدينا دليل عقلي وآخر نقلي نوردهما كالآتي:

ـ الدليل العقلي وهو كما يلي:

ألف: دليل الفطرة

تشهد الفطرة السليمة على أن هناك قدرة عليا نلجأ إليها عند وقوعنا في شدة أو أزمة لاسيما عند نفاد الأسباب أو فقدانها، وهذا ما تلمسه النفس البشرية دون تعليم أو توجيه، فلذا نجد أن هناك ميلاً وانجذابا في النفس تجاه قوة قاهرة تستطيع إنقاذنا من الهلكة كما في حديث الإمام الصادق عليه السلام مع رجل يبحث عن وجود الله تعالى[1].

قال رجل: (يا ابن رسول الله دُلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني، فقال الإمام عليه السلام:

«يا عبد الله هل ركبتَ سفينة قطّ؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل كُسرتْ بك حيث لا سفينة تنجّيك ولا سباحة تغنيك؟».

(١) الفوائد البهية: ص٨٨؛ ليل ركوب السفينة في ص٦٥ من الكتاب.

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل تعلّق قلبُك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلّصك من ورطتك؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»)[1].

باء: دليل النظام في الخلقة

يشير هذا الدليل إلى أن لهذا الوجود خالقا قادراً مختاراً استطاع أن يوجده بهذه الهيئة وبهذا الجمال من حيث الدقة والتنظيم والتناسب والإبداع.

قال الإمام أمير المؤمنين في خطبة له:

«أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها وألزمها أشباحها عالما بها قبل ابتدائها محيطا بحدودها وانتهائها، عارفا بقرائنها وأحنائها، ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الارجاء وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطما تياره متراكما زخاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده، وقرنها إلى حده، الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق، ثم أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبها وأدام مربها، وأعصف مجراها وأبعد منشاها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى

---

(١) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية، الشيخ محمد جميل: ص٨٨.

مائره، حتى عب عبابه، ورمى بالزبد ركامه فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق، فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجا مكفوفا وعلياهن سقفا محفوظا، وسمكا مرفوعا، بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها، ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجا مستطيرا، وقمرا منيرا، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر»[1].

جيم: قدرة المخلوق دليل على قدرة الخالق

إننا من خلال معرفتنا بأن المخلوقات الحية قادرة والقدرة كمال لها، نعرف أن مفيض هذا الكمال لابد أن يكون واجداً له غير فاقد لأن فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه، وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك»[2].

فيه إشارة صريحة إلى قدرة الله تعالى التي تتجلى في هذه النفس البشرية من خلال جمال هذه الخلقة ومن خلال القدرة التي أودعت فيها.

الدليل النقلي على وجود القدرة الإلهية:

الآيات الكريمة الآتية تشير إلى وجود القدرة الإلهية:

قوله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: الخطبة الأولى، ص١٦ ـ ١٨.

(٢) التوحيد للصدوق: ص١٢٣.

(٣) سورة يس، الآية: ٨١.

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾(١).

وقوله عزّ وجلّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾(٢).

وقال الله تبارك وتعالى:

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

وغيرها من الآيات الكثيرة.

ألف: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول:

«لم يزل الله عزّ وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور»[١].

باء: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام، هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغر الدنيا أو يكبّر البيضة؟ فقال عليه السلام:

«إنّ الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز»[٢].

وفي رواية أخرى قال عليه السلام:

«ويلك، إنّ الله لا يوصف بالعجز ومن أقدر ممّن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة»[٣].

وهناك أحاديث كثيرة تدل على قدرة الله تعالى راجع كتاب التوحيد باب القدرة.

٢ـ أمّا بالنسبة إلى سعة هذه القدرة نقول:

حكم العقل السليم بأن واجب الوجود له الصفات الكمالية ومن صفاته الكمالية أن يكون قادراً قدرة لا حد لها ولا نهاية وإلا يلزم النقص والعجز والانقلاب إلى ممكن فقير محتاج، ولذا يجب الإذعان بعموم قدرته سبحانه وسعتها لكل ما هو ممكن، وهذا ما أيدته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتقدمة، ولا بأس بالإشارة إلى غيرها من الآيات والروايات كقوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾[٤].

وقوله تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾[٥].

(١) كتاب الكافي للكليني: ج١، ص١٢٨، ح١.

(٢) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٢٦، ح٩.

(٣) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٢٦، ح١٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾(١).

وكقول الإمام الصادق عليه السلام:

«والأشياء له سواء علما وقدرة وسلطانا وملكا وإحاطة»(٢).

وقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

«هو القادر الذي لا يعجز»(٣).

٣ـ أمّا بالنسبة إلى قدرته هل هي من صفات الذات أم الفعل؟ فنقول:

اجتمعت كلمة الإلهيين على أن القدرة من صفات الله تعالى الذاتية الكمالية كالعلم والحياة ولا يختلف اثنان على ذلك، ولا بأس بتوضيح بسيط لهذا، فنقول: يحكم العقل السليم باستحالة أن يصنع الصانع هذا الكون دون أن يتصف بالقدرة، ويحكم كذلك بأن العجز نقص، ومحال أن يتصف به واجب الوجود لوجوب كماله، فيلزم من هذا أن القدرة صفة كمالية ذاتية، ومما يؤيد قولنا لهذا ما ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام كقول الإمام أبي جعفر عليه السلام:

عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير قال: (جاء رجل إلى أبي جعفر عليه السلام فقال له: يا أبا جعفر أخبرني عن ربّك متى كان؟ فقال:

«ويلك، إنّما يقال لشيء لم يكن فكان: متى كان، إنّ ربّي تبارك وتعالى كان لم يزل حيّاً بلا كيف، ولم يكن له كان ولا كان

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٤.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٢٩.

(٣) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٧.

لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء ولا كان على شيء، ولا ابتدع لكونه مكاناً ولا قوي بعد ما كوّن شيئاً، ولاكان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مكوَّناً، ولا كان خِلْواً من [القدرة على] المُلك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه، لم يزل حيّاً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، ومَلِكاً جبّاراً بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف، ولا له أين، ولا له حدّ، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يَهْرَم لطول البقاء ولا يَصْعَق لشيء، ولا يُخوفه شيء، تصعق الأشياء كلّها من خيفته، كان حيّاً بلا حياةٍ عاريةٍ ولاكونٍ موصوف، ولا كيفٍ محدود، ولا أثر مقفوّ ولا مكان جاوَر شيئاً، بل حيّ يعرف، ومَلِك لم يزل له القدرة والمُلْك، أنشأ ما شاء كيف شاء بمشيّته، لا يحدّ ولا يبعّض، ولا يفنى، كان أوّلاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكلّ شيء هالك إلاّ وجهه، له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين، ويلك أيّها السائل، إنّ ربّي لا تغشّاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يجار من شيء ولا يجاوره شيء ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيء يفعله، ولا يقع على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى»[1].

وقول الإمام الرضا عليه السلام، عن محمد بن إسماعيل البرمكي قال: حدّثنا الحسين بن الحسن قال: (حدّثنا محمّد بن عيسى، عن محمد بن عرفة، قال: قلت للرضا عليه السلام خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة؟ فقال ـ عليه السلام ـ:

«لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنّك إذا قلت: خلق الأشياء بالقدرة فكأنّك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلة له بها خلق الأشياء،

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق: ص١٦٨ ـ ١٦٩، ح٢.

وهذا شرك، وإذا قلت: خلق الأشياء بقدرة فإنّما تصفه أنّه جعلها باقتدار عليها وقدرة، ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلى غيره»)[1].

أسئلة في القدرة

بعد أن عرفنا أن قدرته من صفات الذات وهي عين ذاته، كما عرفنا أن الذات الإلهية ذات لا نقص فيها ولا عجز ووقفنا على سعة قدرته صار لابد أن نسمع أسئلة السائلين ونجيب عليها إضافة لما تقدم:

السؤال: هل يقدر الله تعالى أن يخلق مثله؟

الجواب: المثل إمّا يكون واجباً أيضا أو ممكنا، فإن كان واجبا يلزم اجتماع الضدين لأن ما فرضناه واجباً لابد أن يكون قديما وهذا المثل مخلوق فهو حادث فيلزم أن يكون هذا المثل واجبا وحادثاً في آن واحد ويتفرع على هذا أن يكون واجباً وممكناً لأنه خلق من قبل غيره، فإذن المثل محال والمحال باطل ليس بشيء والله تعالى تتعلق قدرته بالأشياء.

السؤال: هل أنه تعالى قادر على أن يدخل الدنيا في البيضة دون أن تكبر البيضة وأن نصغر الدنيا؟

الجواب: يلزم من هذا القول أن يكون الظرف الكبير في مظروف صغير، وهذا مرفوض بالبداهة لأن العقل السليم يحكم ببداهة وجوب كبر الظرف عن المظروف لكي يتحقق الاحتواء، ويلزم أيضا أن يكون المظروف الكبير في داخل الظرف الصغير فيحصل اجتماع النقيضين، أي يكون المظروف الكبير صغيراً في آن واحد، ويكون الظرف الصغير كبيراً في آن واحد وهذا محال وقد تقدم عدم تعلق قدرة الله تعالى بما هو محال لبطلانه وعدم شيئيته.

---

(١) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٢٦، ح١٢.

السؤال: هل لله القدرة على إيجاد شيء لا يقدر على إفنائه؟

الجواب: أيضا هذا من المحال لأن كل ممكن حادث وهو قابل للفناء، فكيف يكون حادثا ممكناً قابلاً للفناء وغير قابل للفناء، ويلزم من عدم فنائه انقلابه إلى واجب فيلزم المحال من ذلك.

وهناك الكثير من الأسئلة التي يجاب عنها بهذه الطريقة الواضحة.

ـ وقوله عليه السلام:

(لا تَتَداولُـهُ الأُمـورُ، ولا تَجـرِي عَلَيـهِ الأحْـوالُ، ولا تَنـزِلُ عَلَيـهِ الأحْـداثُ، ولا يَقـدِرُ الواصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِه).

لا يكون الواجب إلاّ كاملا ولا كمال إلاّ ينفي النقص عمن اتصف بالكمال وعلى هذا نقول:

لا يليق بالإله الذي خلق ودبر وربى إلاّ أن يكون واجداً لصفات الكمال ومنزّهاً عن كل نقص وقبيح، ومما يجب أن ينزه عنه تعالى هو أن لا يكون محتاجا إلى الغير لا في ذاته ولا في صفاته، ولا يحتاج إلى المكان والزمان والكيفية والأدوات والآلات، فهو الغني المطلق والحق المبين لاحتياج كل ما سواه إليه واستغنائه عن كل شيء، فالكمال ذاته وبالغنى ألوهيته وربوبيته وتدبيره، وحيث إن واجب الوجود غني كامل له الصفات العليا والأسماء الحسنى فهو منزه عن الأجزاء والتركيب لما فيها من نقص وفقر وحاجة، ومنزه عن كونه محلاً للتغييرات والحوادث كالنوم واليقظة أو الحركة والسكون أو القيام والقعود أو الكهولة والصبا أو الشباب والشيب أو القوة والضعف أو النشاط والكسل أوالفرح والحزن أو الرضا والسخط لما في ذلك من نقص وقبح وعجز وحاجة وفقر وحدوث، ومنزه عن الحلول والاتحاد فلا يحل بغيره ولا يتحد به لما في ذلك من حاجة إلى المحل وافتقار إلى الغير، ومنزه عن الجسم والجسمانية والأبعاد والكثافات والحجم

والكتلة والخفة والثقل والطول والعرض والعمق والسطح.

فكيف يكون محتاجا وذاته الغني؟ وكيف يكون مركبا، والتركيب نقص؟ وكيف يكون محلاً للحوادث وهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم؟ وكيف يكون في محل ومكان والمحل والمكان من خلقه وهو بكل شيء محيط؟ وكيف يكون له عمرٌ وسن وهو الذي خلق الزمان؟ وكيف يتحد بغيره ولا غير في الوجود سواه؟ وكيف يتحد مع غيره وهو لا شريك له في الوجود ولا مثيل ولا ند ولا ضد ولا منازع ولا شبيه؟ وكيف يكون جسما والجسم حادث تعتريه التغيرات وتحده الحدود وتراه العيون؟ فلا وصف له إلاّ ما وصف به نفسه ولا إحاطة بكنهه ولا علم بذاته إلاّ إحاطته وعلمه فتعالى الله عن كل صفة صفته وسمى ربنا عن المربوب وتجلى عن المخلوقات.

وما ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السلام خير ما يدل على جلال الله تعالى وعلوه عن صفات الخلق كقوله:

«أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها

ولا حركة أحدثها ولا هامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها ولاءم بين مختلفاتها وغرز غرائزها وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها عارفاً بقرائنها وأحنائها»[١].

ـ وقوله عليه السلام:

«لا يَخطُرُ عَلى القُلُوبِ مَبلَغُ جَبَروتِهِ، لأنَّه لَيسَ لَهُ في الأشْياءِ عَدِيلٌ».

اعلم أن المخلوق لا قدرة له ولا سبيل إلى معرفة كنه الخالق ولا علم ولا إحاطة بحقيقته جل شأنه لاستحالة إحاطة المحدود باللامحدود والممكن بالواجب، وجلاله تعالى عن أن يحد أو يحاط به، وهذا ما أكده قوله تعالى:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[٢].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٣].

كما أن الروايات كثيرة في هذا المضمون كقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللهُ مَعْنَاهُ المَعْبُودُ الّذِي يَألَـهُ فِيْهِ الْخَلْقُ وَيُؤْلَهُ إلَيْهِ، وَاللهُ هُوَ المَسْتُورُ عَنْ دَرْكِ الأبْصَارِ، المَحْجُوبُ عَنِ الأوْهَامِ وَالخَطَرَاتِ»[٤].

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«اللهُ مَعْنَاهُ المَعْبُودُ الّذِي ألِهَ الخَلْقُ عَنْ دَرْكِ مَاهِيَّتِهِ والإحَاطَةِ بِكَيْفِيَّتِهِ»[٥].

---

(١) حق اليقين، السيد عبد الله شبر: ص٦٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٤) ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ج١، ص١٢٤، ح٦٥٨.

(٥) ميزان الحكمة، الريشهري: ج١، ص١٢٤، ح٦٨٩.

ومما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام هو بيان علة عدم الإحاطة به تعالى والوقوف على كنه ذاته، فقال عليه السلام:

«لأن ليس له في الأشياء عديل».

وكأنما أراد الإمام عليه السلام أن يقول أمراً وهو أن بعض التصورات والأفكار التي تجول في ذهن الإنسان منتزعة من الوجودات الخارجية كمعرفتنا مثلاً للشجرة التي وقع عليها الحس، أو كمعرفتنا للأرض والسماء، وأمّا ما ليس له وجودٌ مرئيٌ فلا يمكن تصوره ووصفه، وحيث إن الله تعالى ليس له في الأشياء مثيل لا نستطيع تصوره أو وصفه إلاّ بما وصف به نفسه تعالى، ويمكن تفسير قوله عليه السلام لأن ليس له في الأشياء عديل أي لا يوجد من له القدرة والإحاطة بغاية جبروته لأن لا شبيه ولا عديل لجبروته حتى نستطيع أن نقف على جبروت الله تعالى ونعرف كنهه، كما أن الإمام عليه السلام ينفي أن يكون لله تعالى شبيه أو مثل فكيف نستطيع من خلال معرفة الشبيه أن نعرف الأصل وهو الله تعالى كنه ذات الله تعالى ممتنعة على مخلوقاته لمحدودية المخلوق وتناهيه، ولإحاطة الخالق وكبره عن أن يوصف وخير من أشار إلى ذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله،

ورد في التوحيد (عن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة الوسيلة:

«الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال إلا وجوده، وحجب العقول عن أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه والشكل، بل هو الذي لم يتفاوت في ذاته ولم يتبعض بتجزية العدد في كماله، فارق الأشياء لا على اختلاف الأمكان، وتمكن منها لا على الممازجة، وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها وليس بينه وبين معلومه علم غيره، إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود وإن قيل لم يزل، فعلى تأويل نفي العدم»[1].

---

(١) حق اليقين: ص٦٦.

وقال عليه السلام:

«لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها وإليها حاكمها، ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً، ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً، بل كبر شأناً وعظم سلطاناً».

ـ وقوله عليه السلام:

«لا تُدرِكُهُ العُلَماءُ بِألبابِها، ولا أهلُ التَّفكيرِ بِتَفكيرِهِمْ إلاّ بِالتَّحقِيقِ[1] إيقاناً بِالغَيبِ».

أشار الإمام الحسين عليه السلام بقوله هذا إلى قصور إدراك العلماء فضلاً عن غيرهم، وعجز عقولهم مع ما لهم من العلم والمعرفة وقوة الملاحظة وتوقد الذهن وسعة الفطنة، وعجز الألباب وحيرة الفكر في ذات الله تعالى وكنهه ناشئ من امتناعه على الألباب لوجوب وجوده، ومحدودية الألباب لأنها ممكنه، فلذا نهانا أمير المؤمنين عليه السلام من الخوض في هذا الأمر بقوله:

«لا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

وأكد الإمام عليه السلام أن إدراك وجود الله تعالى وعظمته تتم من خلال الآثار والصفات التي تجلّت في عالم الوجود، ويحصل اليقين بوجوده تعالى وعظمته من خلال الأخبار التي وردت على لسان خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين وهو من الإيمان بالغيب.

ومما يؤكد عجز العلماء والمفكرين في إدراك الحق سبحانه قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«محرم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده، وعوامق ناقبات الفكر تكييفه، وعلى

(١) اللبُّ: العقل. والتحقيق: التصديق.

غوائص سابحات النظر تصويره، لا تحويه الأماكن لعظمته، ولا تذرعه المقادير لجلاله، ولا تقطعه المقاييس لكبريائه، ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه، وعن الأفهام أن تستغرقه، وعن الأذهان أن تمثله، قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول، ونضبت عن الإشارة إليه بالاكتناه بحارة العلوم، ورجعت بالصغر عن السمو إلى وصف قدرته لطائف الخصوم.

واحد لا من عدد ودائم لا بأمد وقائم لا بعمد، ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتعارضه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات، قد ضلت العقول في أمواج تيار إدراكه، وتحيرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليته، وحصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته، وغرقت الأذهان في لجج أفلاك ملكوته، مقتدر بالآلاء وممتنع بالكبرياء ومتملك على الأشياء، فلا دهر يخلقه ولا وصف يحيط به، قد خضعت له ثوابت الصعاب في محل تخوم قرارها، وأذعنت له رواصن الأسباب في منتهى شواهق أقطارها، مستشهد بكلية الأجناس على ربوبيته، ويعجزها على قدرته، وبفطورها على قدمته، وبزوالها على بقائه، فلا لها محيص عن إدراكه إياها، ولا خروج عن إحاطته بها، ولا احتجاب عن إحصائه لها، ولا امتناع عن قدرته عليها، كفى باتقان الصنع لها آية وبمركب الطبع عليها دلالة وبحدوث الفطر عليها قدمه وبإحكام الصنعة لها عبرة، فلا إليه حد منسوب ولا له مثل مضروب ولا شيء عنه بمحجوب، تعالى عن ضرب الأمثال والصفات المخلوقة علواً كبيراً»[1].

ـ وقوله عليه السلام:

«لأَنَّهُ لا يُوصَفُ بِشَيءٍ مِن صَفاتِ المَخلُوقِينَ».

(١) حق اليقين، السيد عبد الله شبر: ص٦٦ ـ ٦٧، الباب الثالث: معرفة الذات والصفات.

ثبت في محله أن في الوجود واجب الوجود وممكن الوجود، وثبت أن الواجب هو عين الغنى، والممكن عين الفقر والحاجة، وثبت أيضا أن الواجب يتصف بكل صفات الكمال ومنزه عن كل نقص وقبح، بينما يتصف الممكن بالنقص والحاجة، ولكي يتضح قول الإمام الحسين عليه نقول:

يتصف المخلوق بصفات حسنة وكاملة بالنسبة إليه إلاّ أنها نقص وقبح وفقر بالنسبة لخالقه، فلو قلنا إن المخلوق يتصف بصفة العلم أو القدرة أو الإدرك فهي صفات كمال بالنسبة للمخلوق ولكن هذه الصفات لو نسبناها إلى الله تعالى بحدودها ومقدارها وشروطها لصارت نقصا وحاجة، لأنه تعالى سيكون عالما بعلم محدود وقادراً بقدرة محدودة ومدركاً بإدراك محدود وهكذا، فلذا لا يصح أن يوصف بصفات المخلوقين، ومحال أن يكون كالمخلوق لأن (ليس كمثله شيء)، كما أنه تعالى منزه عن كل صفات المخلوقين من التركيب والمكان والزمان والحدوث والاتحاد والفناء... الخ.

وقد تقدم الكلام في ذلك.

ولكي لا يقع الإنسان في محذور التشبيه الذي حذر منه الإمام الحسين عليه السلام نورد بعض فقرات الأدعية التي جاءت على لسان أمير المؤمنين عليه السلام التي تؤكد أن ذات الله تعالى لا يحيط بها العالم أو المفكر فضلاً عن عامة الناس، فلقد ورد في دعاء المشلول المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا من لا يعلم ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ولا حيث هو إلاّ هو».

وفي دعاء الإمام السجاد عليه السلام دليل واضح على عجز المخلوق في معرفة الله تعالى كقوله:

«ولم تجعل للخلق طريقا إلى معرفتك إلاّ بالعجز عن معرفتك»[1].

---

(١) مفاتيح الجنان: مناجاة العارفين.

(وهو الواحد الصمد)

معنى الواحد

كل شيء يدل على وحدانيته كما دل على وجوده، وكل جارحة تشهد على أن خالقها واحد ومدبرها واحد وفانيها واحد، فالقلب يتوجه إلى الله تعالى عندما يلم به الخطر، والضمير يفزع إليه عندما يضطر إلى حاجته، والوجدان لا يستعين ولا يستغيث إلا به تعالى، وهذا مما يكشف عن أن القلب والعقل لا يعرفان إلا هو تعالى بالفطرة قبل الدليل، ولكي يتضح ما تقدم ننقل محاورة الإمام الصادق عليه السلام مع رجل سأله عن الدلالة على الله تعالى:

قال رجل: (يا بن رسول الله دُلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني، فقال الإمام عليه السلام:

«يا عبد الله هل ركبتَ سفينة قطّ؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل كُسرتْ بك حيث لا سفينة تنجّيك ولا سباحة تغنيك؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فهل تعلّق قلبُك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادرٌ على أن يخلّصك من ورطتك؟».

قال: نعم، فقال عليه السلام:

«فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»)[1].

---

(١) الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية، الشيخ محمد جميل: ص٨٨.

فبعد هذه المحاورة يتضح لنا أن الإمام الصادق عليه السلام أشار إلى وحدانية الله تعالى فضلاً عن وجوده في قوله (فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك)؟

فقوله (أن شيئا) وقوله (قادر) فيه دلالة على وحدانية الله تعالى لأن الإمام عليه السلام لو كان يعتقد أن مع الله تعالى إلها آخر لما قال للرجل (أن شيئا) و(قادر) بصيغة المفرد، فمن هذا يتضح أن وحدانية الله تعالى ترتكز في فطرة الإنسان وهذا ما أكده الرجل بقوله (نعم) أي أن قلبي تعلق بشيء واحد وقادر واحد ولم يقل (كلا) لقد تعلق قلبي بأكثر من شيء.

فبهذه المقدمة تبين من خلال الفطرة أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأمّا ما دل على وحدانيته في مقام الذات والصفات والأفعال فلقد تقدم الحديث عن ذلك في بحثنا (استخلص الوحدانية والجبروت).

معنى الصمد

وأمّا عن قوله عليه السلام (الصمد) نقول:

الصمد في اللغة: المقصود لقضاء الحاجات، اسم من أسماء الله الحسنى، ويقال شيء صمد: مصمت لا جوف له[1].

الصمد في الاصطلاح: السيد المعظم الذي يصمد إليه في الحوائج، أي يقصد، وقيل: هو السيد الذي ينتهي إليه السؤدد[2].

بعد التأمل فيما سبق من الآيات التي تطرقنا فيها إلى بيان صفات واجب الوجود يظهر لنا جلياً أن اسم الصمد اسم لا يليق إلا بالغني المطلق والعالم والقادر

---

(١) المعجم الوسيط: ص٥٢٢.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٤٤.

المطلق وهذا لا يصدق إلاّ على الله الواحد الأحد الفرد الصمد، فلا شك أن الله تعالى هو الذي برأ الخلق وأوجد كل ذي وجود بعلمه وقدرته، وهو الذي أعطى كل خلقه حاجته وأدام فيضه على خلقه فلذا استحق أن يكون مقصوداً في الحاجات، لأنه تعالى الغني المطلق فهو يقصد ولا يقصد أحدا لافتقار كل ما سواه إليه فلذا أورد قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾(١).

وإذا تأملنا المعنى اللغوي للصمد الذي هو مصمت لا جوف له، يظهر لنا عدم حاجته للأكل والشرب والنوم كما أنه لم يلد ولم يولد، وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير الصمد يدلنا على معاني كثيرة نذكرها للفائدة الكبيرة.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«حدّثني أبي زين العابدين عليه السلام، عن أبيه الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال: (الصمد) الذي قد انتهى سؤدده، والصمد: الدائم الذي لم يزل ولا يزال، والصمد: الذي لا جوف له، والصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد: الذي لا ينام».

وقال أيضا عليه السلام:

«والصمد: السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر ولا ناه».

وسُئل الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن (الصمد) فقال:

«الصمد: الذي لا شريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء».

وقال عليه السلام:

«الصمد: الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والصمد: الذي أبدع

---

(١) سورة النجم، الآية: ٤٢.

الأشياء، فخلقها أضدادا وأصنافا، وأشكالا وأزواجا، وتفرد بالوحدة بلا ضد، ولا شكل، ولا مثل، ولا ند».

قال وهب بن وهب: وحدثني الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وإن الله قد فسر سبحانه الصمد.

فقال:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1]»[2].

(ما تَصَوَّرَ في الأوهام فهو خلافه)

التصوّر في اللغة: (تصوّر: تكونت له صورة وشكل ــ والشيء ــ تخيله واستحضر صورته في ذهنه.

التصوّر في علم النفس: استحضار صورة شيء محسوس في العقل دون التصرف فيه.

التصوّر عند المناطقه: إدراك المفرد: أي معنى الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات)[3].

---

(١) سورة الإخلاص، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) تفسير مجمع البيان، الطبرسي: ج١٠، ص٥٥٠.

(٣) المعجم الوسيط: ص٥٢٨.

التصوّرية في الفلسفة: المذهب القائل بأن الكليات لا توجد إلا في الذهن وهو يقابل مذهبي الواقعية والأسمية.

الوهم: ما يقع في الذهن من الخاطر، وهم الشيء دار في خاطره، توهّم الشيء: ظنه ـ وتمثله وتخيله كان في الوجود أو لم يكن[١].

التصور والتصديق

التصور: هو علمك بالشيء دون أن تجزم أو تعتقد بمطابقة علمك للواقع.

التصديق: هو علمك بالشيء مع مطابقة ذلك للواقع مما يدفع النفس للإذعان والتصديق بالمطابقة.

ولكي يتضح المطلب نقول: إذا حصل في ذهنك علم بشيء دون أن تصل إلى حد الجزم والاعتقاد به فهذا يسمى تصوراً مجرداً، وإذا قمت بالبرهنة والاستدلال على ثبوته أو نفيه وحصل لك جزم واعتقاد بذلك فهذا يسمى تصديقاً ولكي يكون المطلب أوضح نضرب مثلا لذلك:

(لو قلت لك أن قبة الإمام الحسين عليه السلام بيضوية الشكل مذهبة بذهب خالص حصل عندك تصور عما أخبرتك به، ولما ذهبت وتحققت من الخبر وثبت لك صحة ما قلت حصل لك تصديق لمطابقة الخبر للواقع).

فالتصور مجرد علمك بشيء دون أن يستتبع ذلك التصور جزم واعتقاد، والتصديق هو ترجيح أحد طرفي الخبر مع نفي احتمال الطرف الآخر وهذا هو (اليقين) أو مع وجود احتمال ضعيف للطرف الآخر وهذا يسمى (الظن) وهذا ما ينقسم إليه التصديق على بعض الآراء.

---

(١) المعجم الوسيط: ص١٠٦٠.

الوهميات

وهي القضايا الوهمية الصرفة، وهي قضايا كاذبة[1]، ولكي نقف على هذا المطلب نحتاج إلى مقدمة فنقول:

أخرج الله تعالى الإنسان من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً، إلا أنه يملك حواساً ظاهره كحاسة السمع والبصر والذوق واللمس فيستخدم هذه الحواس في بيئته فيحس بالأشياء ويتأثر بها ويحصل عنده علم نتيجة استخدامه لهذه الحواس، ويسمى (العلم الحسي) وهو أول درجات العلم وهذا ما يؤكده الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

ثم يحفظ هذه الصورة التي أدركها بالحس في ذهنه فينسب بعضها إلى بعض كقوله (هذا أطول من ذاك) أو يؤلف بعضها مع بعض فتكون عنده صوراً لا واقع لها في الخارج، فهذا الحفظ أو التأليف يسمى (العلم الخيالي) ثم يتجاوز إدراك المحسوسات إلى إدراك أمور ليست هي من جنس المحسوسات كحبّ الغير له وحبه لغيره أو بغض الغير له أو بغضه لغيره وهذا يسمى (بالعلم الوهمي) يحصل عليه الإنسان بقوة الوهم.

للوهم معنيان تارة يراد منه ما يقابل الظن وهو: أن تحتمل مضمون الخبر أو عدمه مع ترجيح الطرف الآخر، وأخرى: يراد منه تصوير الأمور غير المحسوسة تصويراً محسوساً فترتكز هذه الصور في ذهنه حتى تستفحل وتتحول إلى قضايا ثابتة في النفس لا يمكن رفضها حتّى مع قيام البرهان على خلافها وقد تتحول إلى معتقدات يصعب زوالها، ولكي نوضح هذا الأمر بالمثال نقول: نجد الإنسان لا يقبل الاجتماع مع ميت

---

(١) منطق المظفر: ج٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

في مكان مظلم رغم علمه أنه جماد لا يتحرك ولا يضر ولا ينفع، وإذا كان خوفه ناشئاً من عودة الحياة إلى هذا الميت فالعقل يحكم بأنه سيرجع إنساناً سويا لا سيما إذا كان من الأحبة، ولكن الوهم والقوة الواهمة ترفض حكم العقل وتجعل صاحبها في خوف دائم من الميت.

فالوهم تابع للحس ومنقاد له ولذا يطبق أحكام المحسوسات على غير المحسوس أيضا كتوهمه بأن الله تعالى في مكان عالٍ وله هيئة كبيرة وإلخ من التوهمات فيقع في التجسيم والتشبيه وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام بقوله أعلاه.

ـ وقوله عليه السلام:

«لَيسَ بَربٍّ مَنْ طُرِحَ تَحْتَ البَلاغِ، وَمَعْبُودٍ مَن وجِدَ في هواءٍ أو غَيرِهَواءٍ».

من خلال معرفتنا لعظمة الله تعالى وغناه وتنزهه عن الحدود المكانية والزمانية يتضح لنا قول الإمام الحسين عليه السلام المتقدم ونراه يؤكد فيه أن الرب الذي يدبر شؤون مخلوقاته ويدير أمر الممكنات لا يمكن أن يخضع للحدود، ولا يمكن أن يحده مكان أو يحيط به شيء مهما كانت سعته حتى لو كان هواءً أو غيره ممن هو أوسع من الهواء وأكثر مرونة منه، ولا يستحق المحدود والمتناهي العبودية لانتفاء صفات المعبود فيه، إذ إننا نعلم أن من يستحق أن يعبد هو من لا شريك ولا ند ولا مثيل ولا شبيه ولا حاجة ولا كتلة ولا حجم ولا كثافة ولا وزن ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا صورة ولا جسم له بل ولا صفة من صفات العباد الكمالية وغيرها، لأنه ليس كمثله شيء وتعالى من أن يحاط بأرض أو سماء أو ماء أو هواء، وما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة بقوله:

«قد علم السرائر وخبر الضمائر وله الإحاطة بكل شيء».

يؤكد هذا المعنى بل يترجم قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴾[1].

ـ وقوله عليه السلام:

«هُوَ فِي الأشْياءِ كائِنٌ لا كَيْنُونَةَ مَحظُورٍ بِها عَلَيهِ، وَمِنَ الأَشْياءِ بائِنٌ لا بَيْنُونَةَ غائِبٍ عَنها».

تبين مما تقدم جلالة الله تعالى عن صفات الأجسام وقوانينها وآثارها فلذا لا يمكن أن نفسر قول الإمام الحسين عليه السلام بتفسير يوحي بالجسمية والمحدودية والمادية، بل لابد من بيان لقوله عليه السلام يؤكد نزاهة الله تعالى عن كل صفة من صفات المخلوقين وهذا ما سنتعرض له فنقول:

لا يصح أن نفسر قول الإمام عليه السلام (في الأشياء) بالدخول، وقوله (من الأشياء) بالخروج لأنهما من صفات الأجسام وهو تعالى ليس بجسم، فضلا عن غناه المطلق عن كل شيء، فلو دخل في الأشياء كدخول الأجسام في بعضها لزم افتقاره إلى المكان والمحدودية وهذا من صفات الممكن وقد ثبت أنه تعالى واجب الوجود غني مطلق، وكذلك لو قلنا بدخوله في الأشياء كدخول الأجسام يلزم من قولنا هذا وصفه بالنقص لأن الدخول إما أن يكون كاملاً له أو لا؟ فعلى الأول يلزم وصفه بنقص سابق فأراد أن يستكمل بالدخول، وعلى الثاني: يكون الدخول نقصا بذاته يتصف به الحق سبحانه وعلى الفرضين يقع التجسيم والوصف القبيح تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلذا لابد من تفسير قول الإمام عليه السلام بأنه سبحانه هو القيوم المحيط بكل شيء، وهذه الإحاطة التي يحيط الأشياء بها هي إحاطة تامة للظاهر والباطن على حد سواء، وهذا المعنى ورد في أقوال أمير المؤمنين عليه السلم في أكثر من خطبة كما في قوله عليه السلام:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٦.

«ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج»[١].

ولنزاهته تعالى عن الحدود والحلول والعجز نجد سيد الموحدين عليه السلام يصفه في خطبة أخرى فيقول:

«لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن»[٢].

ولكي لا يفسر قربه وبُعده تعالى تفسيراً مادياً بوجب التشبيه يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق»[٣].

وهكذا ديدن أهل البيت عليهم السلام في وصفهم لخالقهم وربهم ومعبودهم، لا يختلف أمير المؤمنين عليه السلام مع ولده الإمام الحسين عليه السلام ولا الإمام الحسين مع ذريته الأئمة المعصومين عليهم السلام في وصفهم لله تعالى وتنزيهه وتسبيحه عما لا يليق بكماله سبحانه، ومن ضمن هذه الروايات:

عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن زرارة بن أعين قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«إنّ الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كل شيء، تبارك الذي:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٤])[٥].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٦٤.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٢.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) أصول الكافي: ج١، ص٤٨ ـ ٤٩، ح٤.

عن علي بن إبراهيم عن أبيه، عن أبي عمير عن علي بن عطية عن ثيثمة (عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«إنّ الله خلو من خلقه، وخلقه خلو منه، وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله تعالى فهو مخلوق والله خالق كل شيء»)[1].

ـ وقوله عليه السلام:

(لَيسَ بِقادِرٍ مَن قارَنَهُ ضِدٌّ أوْ ساواهُ نِدٌّ).

أشار الإمام عليه السلام إلى حدود قدرة من له ضد، إذ إن كل ضدين يدفع أحدهما الآخر لتساوي قدرتهما ومحدوديتهما إزاء بعضهما البعض، ولذا لا يعد قادراً حقيقا من اتصف بالعجز أمام من هو ضده أو نده، وحيث إن الله تعالى قادر مطلق لا يعجزه شيء بل هو على كل شيء قدير لزم من هذا أن لا ضد ولا ند له.

ـ وقوله عليه السلام:

(لَيسَ عَن الدَّهرِ قِدَمُهُ ولا بِالنّاحِيةِ أمَمُهُ، احتَجبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احتَجَبَ عَنِ الأبصار، وعَمَّنْ في السَّماءِ احتِجابُهُ كَمَنْ في الأرضِ، قُربُهُ كَرامَتُهُ وبُعده إهانَتُهُ، لا تُحلّهُ (في) ولا تُوَقِّتُهُ (إذ) ولا تُؤامِرُهُ (إنْ)، عُلُوُّهُ مِنْ غَيرِ تَوَقُّلٍ، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيرِ تَنَقُّلٍ، يُوجِدُ المفقُودَ ويُفْقِدُ المَوجُودَ، ولا تَجتمِعُ لِغَيرِهِ الصِّفَتانِ في وَقتٍ).

في هذا المقطع الشريف يشير الإمام الحسين عليه السلام إلى مجموعة أبحاث عقائدية نتعرض لها باختصار:

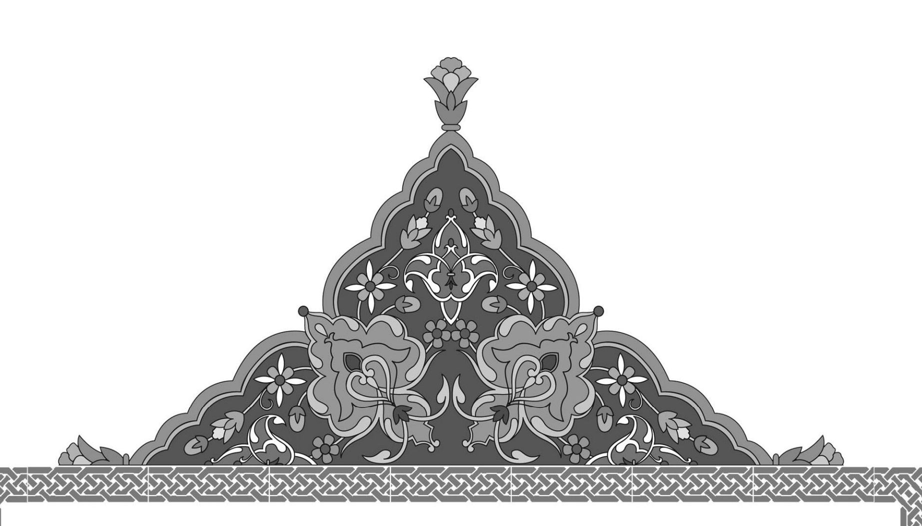
قوله عليه السلام (لَيسَ عَن الدَّهرِ قِدَمُهُ ولا بِالنّاحِيةِ أمَمُهُ).

يشير الإمام عليه السلام إلى صفة من صفات الله تعالى ألا وهي أزليته وقدمه، فلقد أجمع أهل الإيمان والعلم على نزاهة الله تعالى عن الزمان واتسامه فلا يصح

(١) أصول الكافي: ج١، ص٤٩، ح٥.

توصيفه بالماضي أو الحاضر أو المستقبل لأنه هو خالق الزمان بل هو محيط بالزمان، فلذا لا يجوز تفسير قدمه بمعنى وجود في الماضي وإنما يفسر قدمه تعالى بأنه وجود غير مسبوق بعدم لأنه واجب الوجود، وكذلك فهو تعالى منزه عن المكان والجهة لأنه هو خالق المكان والنواحي والجهات بل هو محيط بالمكان وجهاته.

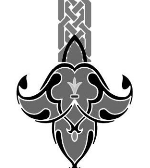
وهكذا، وبناء على ما تقدم يظهر أن الصورة أو المفهوم الذي يحصل في ذهن الإنسان عن الله تعالى ليس إلا وهم مخالف للحقيقة.



الخطبة الثانية

وفيها يوصي بتقوى الله،

وينذر من عقابه





نص الخطبة

«أُوصيكم بتقوى اللهِ، وأُحذِّرُكُمْ أيّامَهُ، وأرفَعُ لكُم أعلامَهُ، فَكأنَّ المَخُوفَ قد أفِدَ بِمَهُولِ وُرودِه، ونكيرِ حُلولِه، وبَشِعِ مَذاقِهِ، فاعتَلَقَ مُهَجَكُم[1]، وحالَ بَيْنَ العَمَلِ وبينَكم، فَبادِروا بِصِحَّةِ الأجسامِ في مُدَّةِ الأعمارِ، كأنَّكُم بِبَغَتاتِ طَوارِقِه[2] فَتَنْقُلُكُم مِنْ ظَهرِ الأرضِ إلى بَطنِها، ومِنْ عُلوِها إلى سُفْلِها، ومِنْ أُنسِها إلى وَحشَتِها، مِنْ رَوحِها وضَوئِها إلى ظُلمَتِها، ومِنْ سَعَتِها إلى ضِيقِها، حيثُ لا يزارُ حَميمٌ ولا يُعادُ سَقيمٌ ولا يُجابُ صَريخٌ، أعانَنَا اللهُ وإيّاكم على أهْوالِ ذلِكَ اليَومِ، ونَجّانا وإيّاكُم مِنْ عِقابِهِ، وأوجَبَ لَنا ولَكُم الجَزيلَ مِنْ ثَوابِهِ.

عبادَ اللهِ فَلَوْ كانَ ذلِكَ قَصْرَ مَرماكُم ومَدى مَظْعَنِكُمْ[3] كانَ حَسْبُ العامِلِ شُغلاً يَستَفرِغُ عَلَيهِ أحزانَهُ، ويَذهَلُهُ عَن دُنياهُ، ويُكثِرُ نَصَبَهُ لِطَلَبِ الخَلاصِ مِنه، فكيفَ وَهُوَ بَعدَ ذلِكَ مُرتَهِنٌ بِاكتِسابِه، مُستَوقِفٌ على حِسابِه، لا وَزيرَ لَهُ يَمْنَعُه ولا ظَهيرَ عَنهُ يَدفَعُهُ، ويَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ نَفساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبلُ أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيراً قُلِ انتَظِروا إنّا مُنْتَظِرُونَ.

---

(١) أفِدَ: دنا وقرب. والمهول: المخيف. بشع: صار طعمه كريها. واعتلقه وبه: أحبه حبا شديدا. والمهج: جمع مهجة: دم القلب والمراد نفس القلب.

(٢) البغتات: جمع بغتة أي فجأة.

(٣) الجزيل: الكثير العظيم من كل شيء. والقصر: الغاية. والمرمى: ما ترمى إليه السهام. والمدى: المسافة والغاية. والمظعن: المسير.

أُوصيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ قَد ضَمِنَ لِمَنِ اتَّقاهُ أنْ يُحَوِّلَهُ عَمّا يَكرَهُ إلى ما يُحِبُّ وَيرزُقَهُ مِنْ حَيثُ لا يَحتَسِبُ، فَإيّاكَ أن تَكُونَ مِمَّن يَخافُ عَلَى العِبادِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيَأمَنُ العُقَوبَةَ مِنْ ذَنبِه، فَإنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لا يُخدَعُ عَن جَنَّتِهِ ولا يُنالُ ما عِنْدَهُ إلاّ بِطاعَتِه إنْ شاءَ اللهُ».

المعنى العام

(أُوصيكم بِتَقوَى اللهِ، وأُحذِّرُكُمْ أيّامَهُ، وأرفَعُ لكُم أعلامَهُ، فَكَأنَّ المَخُوفَ قَد أفِدَ بِمَهُولِ وُرودِه، ونَكيرِ حُلولِه، وبَشِعِ مَذاقِهِ، فَاعتَلَقَ مُهَجَكم، وحالَ بَيْنَ العَمَلِ وبَينَكم).

أطلب منكم الالتزام بالخشية والخوف من الله تعالى، وأخوفكم وأطلب منكم التحرز من أيام الله تعالى التي تحدث عنها في القرآن الكريم (يوم كألف سنة... الخ) (يوم التلاق...) وارفع لكم ما تهتدون به من هدي الله تعالى، فكأن الأمر الذي تخشونه قد دنا وقرب إليكم بفزع ورعب وروده، وصعوبة نزوله، وكريه طعمه، فتعلق بقلوبكم تعلقاً شديدا، وصار مانعا بينكم وبين العمل.

(فَبادِروا بِصِحَّةِ الأجسامِ في مُدَّةِ الأعمارِ، كَأَنَّكُم بِبَغَتاتِ طَوارِقِه فَتَنْقُلُكُم مِنْ ظَهرِ الأرضِ إلى بَطنِها، ومِنْ عُلوِها إلى سُفُلِها، ومِنْ أُنسِها إلى وَحشَتِها، مِنْ رَوحِها وضَوئِها إلى ظُلمَتِها، ومِنْ سَعَتِها إلى ضِيقِها).

أسرعوا وعجلوا إلى اغتنام الصحة قبل السقم في طاعة الله تعالى، وأنتم على وشك أن تفاجئكم الدواهي التي تأتي ليلا فتحولكم من على سطح الأرض إلى جوفها وباطنها، ومن ارتفاعها إلى أدنى نقطة فيها، ومن ما هو لطيف ومسر للنفس إلى ما هو ضد ذلك من النفور والكدورة، ومن الراحة والسعة وطيبة العيش إلى ذهاب نورها

وشدها، ومن رحابتها ويسارها إلى شدها.

(حيثُ لا يزارُ حَميمٌ ولا يُعادُ سَقيمٌ ولا يُجابُ صَرِيخٌ).

يشير الإمام علي عليه السلام إلى أن هذا المكان لا يحصل فيه اللقاء بين الأحبة ولا يفحص المريض ولا يطمئن على صحة ولا يغاث ا لمستغيث.

(أعانَنَا اللهُ وإيّاكم على أهْوالِ ذلِكَ اليومِ، ونَجّانا وإيّاكُم مِنْ عِقابِهِ، وأوجَبَ لَنا وَلَكُم الجَزِيلَ مِنْ ثوابِهِ).

ساعدنا الله تعالى وإياكم على رعب وخوف ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، وخلصنا الله وإياكم من أذاه وآلامه، وجعل لنا ولكم الكثير العظيم من العطاء وحسن الجزاء.

(عبادَ اللهِ فَلَوْ كانَ ذلِكَ قَصْرَ مَرماكُم ومَدى مَظْعَنِكُمْ كانَ حَسْبُ العامِلِ شُغلاً يَستَفرِغُ عَلَيهِ أحزانَهُ، ويَذهَلُهُ عَن دُنياهُ، ويُكثِرُ نَصَبَهُ لِطَلَبِ الخَلاصِ مِنه، فكيفَ وَهُوَ بَعدَ ذلِكَ مُرتَهِنٌ باكتِسابِه، مُستَوقِفٌ على حِسابِه، لا وَزِيرَ لَهُ يَمْنَعُه ولا ظَهِيرَ عَنهُ يَدفَعُهُ، ويَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبلُ أو كَسَبَتْ في إيمانِها خَيراً، قُلِ انتَظِروا إنّا مُنْتَظِرُونَ).

يوجه الإمام عليه السلام نداءه إلى من هو مؤمن عابد لربه فيقول لو كان ذلك الأمر الذي سبق بيانه هو غاية هدفكم ومسافة وغاية مسيركم كان كافيا ليشغل العامل منكم في طاعة الله تعالى وكافيا لصب تمام غمه وهمه عليه، وكافيا ليشغله ويغفله عن زبارج الدنيا وزخارفها، ويكثر تعبه لنيل النجاة من أهوال ذلك اليوم، فكيف لا يذهل ويهتم بذلك اليوم الذي سيكون فيه حيث لا معين فيعينه ولا حامل لثقله أحد، ولا دافع عنه البلاء، وفي هذا اليوم لا يفيد نفس إيمانها وهي لم تكن مؤمنة في الدنيا وغير عاملة في طاعة ربها، فقل ترقبوا ونحن معكم نرقب.

(أُوصيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ قَد ضَمِنَ لِمَنِ اتَّقاهُ أنْ يُحَوِّلَهُ عَمّا يَكرَهُ إلى ما يُحِبُّ وَيرزُقَهُ مِنْ حَيثُ لا يَحتَسِبُ، فَإيّاكَ أن تَكُونَ مِمَّن يَخافُ عَلَى العِبادِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيأمَنُ العُقوبَةَ مِنْ ذَنبِه، فَإنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لا يُخدَعُ عَن جَنَّتِهِ ولا يُنالُ ما عِنْدَهُ إلاّ بِطاعَتِه إنْ شاءَ اللهُ).

تقدم في بداية الخطبة بيان قوله أوصيكم بتقوى الله، ويشير الإمام الحسين بن علي عليهما السلام إلى أن الله تعالى تكفل لكل من يخافه ويخشاه أن ينقله عنما لا يريده وينفر منه إلى ما يرغبه ويحبه ثم يأتي برزقه من غير الأسباب التي سعى فيها ومن حيث لا يحتمل، ثم يرشد الإمام عليه السلام أن تكون من الناس الذين يخشون على مصر غيرهم بسبب ذنوبهم ولا يخافون على مصايرهم وهم في اطمئنان من نزول العقوبة عليهم مع وقوع الذنب منهم، ويقول الإمام عليه السلام إن الله تبارك وتعالى لا تخفى عليه الحيل ولا يستطيع أحد أن يمكر فيظهر مرة ويخفى مرة أخرى لينال جنة الله تعالى فإن ذلك لا ينال إلا بالطاعة الخالصة.

بحث أخلاقي

التقوى ميزان القرب الإلهي

كل ما يخرج من فم العصمة والطهارة لابد أن يكون مهما ومعصوما ولا يخالف العقل أو الشرع، ومما أكد عليه الإمام السبط عليه السلام في خطبته الثانية هو التمسك بهذا الأمر المهم الذي يعد ميزانا لقرب العبد من مولاه وعلامة على أفضليته على غيره ممن لم يتحلى به ألا وهو (التقوى).

التقوى لغة: هو الحذر الخوف والتجنب.

الخشية والخوف وتقوى الله: خشية وامتثال أوامره واجتناب نواهيه[١].

التقوى اصطلاحا: هو الامتثال لأمر الله تعالى والانتهاء عن نهيه خوفا منه وتجنبا لغضبه وعقوبته.

لهذه الصفة دلالات تدل على من يتصف بها، كما أن لها آثاراً عظيمة تنعكس على نفس صاحبها انعكاسا هو بأمس الحاجة إليه في الدنيا والآخرة فلذا نجد أن الإمام الحسين عليه السلام يقتفي أثر العِدل الأكبر (القرآن الكريم) في الحرص على الوصية بهذه الصفة المهمة، ولكي نقف على ما جاء في الكتاب الكريم ونطلع على لطف المولى جل وعلا بعباده لابد لنا من التأمل في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[٢].

وما كان هذا الأمر الإلهي بالتقوى إلا لكي ينتفع العبد بآثارها ويكسب السند المنيع والملجأ الحصين وينال البركات في الدنيا والرضا والشكر الإلهي في الآخرة.

فإن التقوى هي خير الوصايا وأفضل العواقب كما ورد ذلك على لسان إمام المتقين عليه السلام بقوله:

«أُوصِيكُم عِبادَ اللهِ بتَقوَى اللهِ؛ فإنّها خَيرُ ما تَواصَى العِبادُ بِه، وخَيرُ عَواقِبِ الأُمورِ عِنْدَ اللهِ»[٣].

---

(١) المعجم الوسيط: ص١٠٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣١.

(٣) ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٠، ح٢٢٣٤٦.

ولأهمية الوصية بالتقوى حرص أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته الكرام عليهم السلام على افتتاح خطبهم وكتبهم ورسائلهم بالوصية بالتقوى وهذا ما تؤكده النصوص الآتية:

١ـ قال عليه السلام:

«أُوصِيكُم عِبادَ اللهِ بتَقوَى اللهِ الّذي ضَرَبَ الأمثالَ، ووَقَّتَ لَكُمُ الآجالَ»[1].

٢ـ قال عليه السلام:

«أُوصِيكَ بتَقوَى اللهِ ـ أي بُنَيَّ ـ ولُزومِ أمرِهِ، وعِمارَةِ قَلبِكَ بِذِكرِهِ»[2].

٣ـ قال عليه السلام:

«أُوصِيكم عِبادَ اللهِ بتَقوَى اللهِ الّذي ألبَسَكُمْ الرِّياشَ، وأسبَغَ علَيكُمُ المَعَاشَ»[3].

٤ـ عنه عليه السلام:

«أُوصِيكم عِبادَ اللهِ بتَقوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُم أهلَ النِّفَاقِ»[4].

٥ـ عنه عليه السلام:

«أُوصِيكُم عِبادَ اللهِ بتَقوَى اللهِ، وأُحَذِّرُكُم الدُّنيا»[5].

وهناك المزيد من هذه الوصايا تركناها للاختصار.

---

(١) ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٠، ح٢٢٣٤٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١١، ح٢٢٣٤٩.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١١، ح٢٢٣٥٠.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٤. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١١، ح٢٢٣٥١.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١١، ح٢٢٣٥٣.

آثار التقوى في الدنيا

نذكر هذه الآثار وفق هذا التبويب لتسهيل حفظها من قبل القارئ، فلذا تجنبنا شرحها ولكي لا ندخل في الإسهاب والإطالة وإلا فإن لكل أثر من آثارها شرحاً طويلاً يحتاج إلى صفحات كثيرة.

١ـ إنها تورث البركة كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

٢ـ إنها تورث الفلاح كما في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

٣ـ إنها تشبه بأخلاق الأنبياء كما ورد في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«علَيكَ بالتُّقى؛ فإنَّه خُلقُ الأنبياءِ»[3].

٤ـ إنها تورث خير الدنيا والآخرة كما ورد في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن رُزِقَ تُقىً فَقَد رُزِقَ خَيرَ الدُّنيا والآخِرَةِ»[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٥.

(٣) غرر الحكم: ٦٠٨٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٨، ح٢٢٣٣١.

(٤) كنز العمّال: ٥٦٤١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٨، ح٢٢٣٣٢.

٥ـ إنها سبب في دفع الهلاك وحفظ ما يزرع العبد من زرع معنوي أو مادي، كما ورد في قوله عليه السلام:

«لا يَهلِكُ علَى التَّقوى سِنخُ أصلٍ، ولا يَظمَأُ علَيها زَرعُ قَومٍ»(١).

٦ـ إنها سبب في نجاة الهاربين من الظلم، وسبب في نيل المطالب، وسبب في النصر على الأعداء الظالمين كما أنها حرز وعز لمن يتحلى بها وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«إنّ التَّقوى أفضَلُ كَنزٍ، وأحرَزُ حِرزٍ، وأعَزُّ عِزٍّ، فيهِ نَجاةُ كُلِّ هارِبٍ، ودَركُ كُلِّ طالِبٍ، وظَفَرُ كُلِّ غالِبٍ»(٢).

٧ـ إنها سلامة من الخسارة والتلف وهذا ما أشار إليه الإمام أبو جعفر عليه السلام لسعد الخير:

«أُوصِيكَ بِتَوَى اللهِ؛ فإنّ فيها السَّلامَةَ مِن التَّلَفِ والغَنيمَةَ في المُنقَلَبِ»(٣).

٨ـ إنها حرز وصيانة من إغواء الفجار وقوة لحفظ النفس أمام إغراء الشهوات واللذات، وحرز من الضلال ولذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ مَن فَارقَ التَّقوى أُغرِيَ باللَّذّاتِ والشَّهواتِ، ووَقَعَ في تِيهِ السَّيِّئاتِ، ولَزِمَهُ كَبيرُ التَّبِعاتِ»(٤).

٩ـ إنها تدفع وساوس الشيطان وتفتح البصيرة والبصر كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(٥).

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٩، ح٢٢٣٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٣٧٤، ح٣٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٩، ح٢٢٣٣٨.

(٣) الكافي: ج٨، ص٥٢، ح١٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٩، ح٢٢٣٣٩.

(٤) غرر الحكم: ٣٦٢٥. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٩، ح٢٢٣٤٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

١٠ـ إنها تكسب صاحبها الشرف كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«التَّقوى ظاهِرهُ شَرَفُ الدُّنيا، وباطِنهُ شَرَفُ الآخِرَةِ»(١).

١١ـ إنها توجب الغنى والعز والأنس كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما نَقَلَ اللهُ عَزَّ وجلَّ عَبداً مِن ذُلِّ المَعاصي إلى عِزِّ التَّقوى إلاّ أغناهُ مِن غَيرِ مالٍ، وأعَزهُ مِن غَيرِ عَشيرَةٍ، وآنَسَهُ مِن غَيرِ بَشَرٍ»(٢).

١٢ـ إنها شفاء لأمراض القلوب والأجساد معاً، ونور للعقول، وطهارة للنفوس، وهذا ما أرشد إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ تَقوَى اللهِ دَواءُ داءِ قُلوبِكُم، وبَصَرُ عَمى أفئدتِكُم، وشِفاءُ مَرَضِ أجسادِكُم، وصَلاحُ فَسادِ صُدورِكُم، وطَهورُ دَنَسِ أنفُسِكُم، وجَلاءُ عَشا أبصارِكُم، وأمنُ فَزَعِ جَأشِكُم، وضِياءُ سَوادِ ظُلمَتِكُم»(٣).

١٣ـ هي خلاص من المآزق والشدائد، وهي سبب في تحصيل الأرزاق من حيث لا نحتسب كما في قوله تعالى:

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾(٤).

١٤ـ هي نجاة من الفتن وخلاص من الحيرة كما ورد عن إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«اعلَموا أنّهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مِن الفِتَنِ، ونُوراً مِن الظُّلَمِ»(٥).

---

(١) غرر الحكم: ١٩٩٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٨، ح٢٢٤٠٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٨٢، ح١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٨، ح٢٢٤٠٩.

(٣) غرر الحكم: ٥١٥٤. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٩، ح٢٢٤١١.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٣، ح٢٢٤٣٦.

١٥ـ هي سبب في كشف الهموم كما ورد عن إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«مَنِ اتَقى اللهَ سبحانَهُ جَعَلَ لَهُ مَن كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ومِن كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجاً»[١].

آثار التقوى في الآخرة

لاشك في أن للتقوى آثاراً عظيمة لا يستغني عنها عباد الله تعالى بشيء سواها ومن هذه الآثار:

١ـ إنها توجب شكر المولى عز وجل لعبده في آخرته كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢].

٢ـ إنها توجب رحمة المولى عز وجل بعبده كما في قوله تعالى:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٣].

٣ـ إنها توجب الفوز في الآخرة، كما قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«التَّقوى غايَةٌ لا يَهلِكُ مَنِ اتَّبَعَها، ولا يَندَمُ مَن عَمِلَ بِها؛ لأنّ بالتَّقوى فازَ الفائزونَ، وبالمَعصِيَةِ خَسِرَ الخاسِرونَ»[٤].

٤ـ إنها توجب تقربك من الله تعالى وتحتفظ من العذاب، حيث قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

---

(١) غرر الحكم: ٨٨٤٧. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٢، ح٢٢٤٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٣.

(٤) كنز العمال: ٤٤٢١٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٠٩، ح٢٢٣٤٠.

«التَّقوى آكَدُ سَبَبٍ بَينَكَ وبينَ اللهِ إن أخَذتَ بِه، وجُنَّةٌ مِن عَذابٍ ألِيمٍ»[1].

٥ـ إنها سبب في قبول الأعمال كما في قوله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

٦ـ إنها تسدد العبد في دنياه فيكون من الفائزين في أخراه، وهي كنز مذخور ليوم الفقر والفاقة، يوم القيامة كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنَّ تَقوَى اللهِ مِفتاحُ سَدادٍ، وذَخيرَةُ مَعادٍ»[3].

٧ـ إنها توجب التنعم في الجنان والأنهار بل هي سبب في قرب العبد من ربه كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[4].

التقوى ضرورة لابد منها

إذا لم يتلبس الإنسان بالتقوى صار إنساناً ميتاً بحسب الباطن والمعنى، وإذا سلب الإنسان وصف الحياة خرج عن عنوان الإنسانية، فيصبح مخلوقاً مسخاً ينافس الوحوش والأنعام في صفاتها، فيغدو لا يهمه إلا ما يهم البهائم من طعام وشراب وتناسل بل قد يصل إلى أسوأ من ذلك فتتحول وداعته وألفته إلى غلظة ووحشية يفوق بها وحشية الوحوش الأخرى.

أمّا عدم إمكان وصف فاقد التقوى بالحي لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) غرر الحكم: ٢٠٧٩. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٩، ح٢٢٤١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨١٥، ح٢٢٣٨٦.

(٤) سورة القمر، الآيتان: ٥٤ و٥٥.

«لا حياة إلا بالدين، ولا موت إلا بجود اليقين»[١].

وأمّا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيصرح بأن بعض الناس تراهم إحياء بحسب الظاهر والمادة إلا أنهم أموات كما في قوله عليه السلام:

«ليس من مات واستراح بميت، إنما الميت ميت الأحياء»[٢].

وهناك من اتصف بصفة الكذب التي تجانب التقوى فصار ميتا بنظر الإمام علي عليه السلام وهذا ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الكذاب والميت سواء، فإن فضيلة الحي على الميت الثقة به، فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته»[٣].

أمّا كون الإنسان الذي سلب الحياة بسبب تركه للتقوى ليس بإنسان بل هو حيوان في باطنه لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتجه ولا باب العمى فيصد عنه وذلك ميت الأحياء»[٤].

وأمّا انقلابه إلى بهيمة همها علفها وشرابها وتناسلها بل تحوله إلى وحش كاسر يفوق الوحوش البرية يرشد إليه قوله تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٥].

---

(١) ميزان الحكمة: ج١١، ص٩٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٧٥، ح١٣.

(٣) شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني: ج١، ص١٨٤.

(٤) ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠٨٢، ح٢٨٦٧

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

ولكي لا يصل الإنسان العاقل إلى هذه المرتبة الخسيسة ولكي يعيش حياة حقيقية ويبقى محافظاً على خلقته وصفته الإنسانية لابد له من التلبس بالتقوى التي هي الإيمان القلبي والعمل الصالح الذي هو روح الدين الحنيف.

وبعد التأمل في آثار التقوى دنيويا وأخرويا أصبحت التقوى ضرورة لا غنى عنها بل هي الحياة والسعادة والنجاة والشفاء والفلاح والحصانة والحرز والغنى والعز والشرف والأنس، وأخرويا هي الشكر والرحمة والقرب الإلهي وهي الفوز والكنز المذخور ليوم القيامة.

رفع التوهم

عندما يعمل العبد عملاً صحيحا من حيث المقدمات والأجزاء والشروط الفقهية يقع في توهم أن هذا العمل سيقربه من الله تعالى ويغفل عن الشرط الذي يجعل العمل مقبولاً ومقربا من الله تعالى، ولذا نجد أن القرآن الكريم يبين بوضوح هذه الصورة في قوله تعالى:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فالله تعالى لا يقبل العمل إلا من المتقي الذي لا يهمه تمام العمل وصحته فحسب بل الذي يهمه قبول العمل ولذا أكد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا المعنى في وصيته لأبي ذر:

«يا أبا ذرٍّ كُن لِلعَمَلِ بالتَّقوى أشَدَّ اهتِماماً مِنكَ بالعَمَلِ»[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) كنز العمال: ٨٥٠١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٠، ح٢٢٤١٨.

وصرح أمير المؤمنين عليه السلام أن صفتي التقى والإخلاص سر قبول الأعمال بقوله:

«صِفَتانِ لا يَقبَلُ اللهُ سبحانهُ الأعمالَ إلاّ بِهِما: التُّقى والإخلاصُ»[١].

وهناك دور آخر للتقوى ألا وهو حفظ العمل الصالح من النقصان أو الزوال وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«جِدُّو واجتَهِدوا، وإن لَم تَعمَلوا فلا تَعصُوا؛ فإنَّ مَن يَبني ولا يَهدِمُ يَرتَفِعُ بِناؤهُ وإن كانَ يَسيراً، وإنَّ مَن يَبني وَيَهدِمُ يوُشِكُ أن لا يَرتَفِعَ بِناؤهُ»[٢].

بل ينظر للعمل القليل المقبول بأنه عمل كثير يرفع بناء العامل كما تقدم في الحديث، ويؤكد ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«لا يَقِلُّ عَمَلٌ مَع تَقوى، وكَيفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ؟!»[٣].

وبمعرفة هذه النكتة العلمية يرتفع التوهم الذي يحصل لكثير من المؤمنين لاسيما من يهمه قبول العمل ومن لا يعرف ذلك أو لا يهتم بقبول العمل فلا فائدة من عمله الصحيح وهذا ما رد به السيد الخوئي قدس سره الشريف على أحد السائلين عن الحج وقبوله

مسألة: منزلة المتقين وصفاتهم

إن للمتقين منزلة عظيمة ورتبة عالية عند الله سبحانه وتعالى وكما أن لهم منزلة ورتبة شريفة عند أهل الدنيا، وبمجرد الوقوف على الآيات الكريمة التي وردت لبيان منزلتهم ومقامهم يغنينا عن الشرح والإطالة وهي كما يلي:

---

(١) غرر الحكم: ٥٨٨٧. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢١، ح٢٢٤٢٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٨٦، ح٨. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢١، ح٢٢٤٢٤.

(٣) الكافي: ج٢، ص٧٥، ح٥. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٠، ح٢٢٤٢١.

١ـ المتقي ولي لله تعالى كما في قوله:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[2].

٢ـ الله تعالى ناصرهم وسندهم كما في قوله تعالى:

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3].

٣ـ المتقون محبوبون لله تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4].

٤ـ حسن العاقبة للمتقين كما في قوله تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[6].

٥ـ بأنهم سكان الجنة كما في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الدخان، الآية: ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

(٥) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٦) سورة ص، الآية: ٤٩.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[١].

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾[٣].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾[٤].

٦ـ إنهم في مقام أمين كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[٥].

٧ـ هم أهل الهدى كما في قوله تعالى:

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٦].

٨ـ هم أهل القرآن كما في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٧].

٩ـ هم الوارثون كما في قوله تعالى:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٨].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٩٠.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٥.

(٤) سورة الطور، الآية: ١٧.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٥١.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٥٧.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

١٠ـ هم وفد الرحمن كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾(١).

١١ـ هم أهل الصدق كما في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(٢).

ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام وصف رائع للمتقين وبيان يأخذ شغاف القلوب وتوقظ به العقول وتقر به الأعين وتسر به النفوس:

١ـ إن المتقين عباد ملكوا شهواتهم ولم يرزحوا تحت عبوديتها وعاشوا أحراراً فصارت لهم السيادة عليها وبذلوا أنفسهم وآثروا غيرهم عليها فجادوا ومن جاد ساد فلذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«المُتَّقونَ سادَةٌ، والفُقَهاءُ قادَةٌ، والجُلوسُ إلَيهِم عِبادَةٌ»(٣).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«المُتَّقونَ سادَةٌ، العُلَماءُ والفُقَهاءُ قادَةٌ، أُخِذَ عَلَيهِم أداءُ مَواثِيقِ العِلمِ والجُلوسُ إلَيهِم بَرَكةٌ، والنَّظَرُ إلَيهِم نُورٌ»(٤).

٢ـ من أخلاق المتقين قناعتهم بما رزقهم الله تعالى فاستشعروا الغنى واتصفوا به، وتجنبوا أن يعيشوا حياة الباذخين بإسراف وترف فوق حد الضرورة، وعشرتهم مليئة بالفوائد والبركة والطهارة وهذا ما يؤكده الإمام الباقر عليه السلام:

(١) سورة مريم، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٣.

(٣) أمالي الطوسي: ص٢٢٥، ح٣٩٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٣، ح٢٢٤٣٧.

(٤) كنز العمال: ٥٦٥٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣٢، ح٢٢٤٣٨.

«أنّ أهلَ التَّقوى هُمُ الأغنِياءُ، أغناهُمُ القَليلُ مِن الدُّنيا، فَمَؤونَتُهُم يَسيرَةٌ، إن نَسِيتَ الخَيرَ ذَكَّروكَ، وإن عَمِلت بهِ أعانُوكَ، أخَّرُوا شَهَواتِهِم ولَذّاتِهِم خَلفَهُم، وقَدَّمُوا طاعَةَ رَبِّهِم أمامَهُم، ونَظَروا إلى سَبيلِ الخَيرِ وإلى وَلايَةِ أحِبّاءِ اللهِ فأحِبُّوهُم، وتَولَّوهُم واتَّبَعُوهُم»[(١)].

٣ـ ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يصفهم بصفات يحبها أهل الأرض وأهل السماء ويطمئن إليهم كل من يعاشرهم لصدقهم وأمانتهم ووفائهم ولذا جاء عنه عليه السلام:

«كانَ أميرُ المؤمنينَ عليه السلام يقولُ: إنّ لأهلِ التَّقوى عَلاماتٍ يُعرَفونَ بِها: صِدقُ الحَديثِ، وأداءُ الأمانَةِ، والوَفاءُ بالعَهدِ... وقِلَّةُ المُواتاةِ لِلنِّساءِ، وبَذلُ المَعرُوفِ، وحُسنُ الخُلقِ، وسَعَةُ الحِلمِ، واتِّباعُ العِلمِ فيما يُقَرِّبُ إلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(٢)].

٤ـ لا تفارق التقوى الإخلاص فإذا اتصف أحد بها لابد من الاتصاف به، كما لا يعيش المتقي حياة الآملين بآمال الدنيا وأمنياتها فيؤخذ بطوى الأمل ويغفل عن الأجل، ومن صفاته النباهة والفطنة فلا تفوته فرصة خير إلا واغتنمها شعوراً منه بقرب الأجل فلذا ذكر الإمام الباقر عليه السلام ذلك بقوله:

«لِلمُتَّقي ثَلاث عَلاماتٍ: إخلاصُ العَمَلِ، وقِصَرُ الأمَلِ، واغتِنامُ المَهَلِ»[(٣)].

٥ ـ وما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام من صفاتهم في خطبته التي ألقاها تلبية لرغبة أحد أصحابه الذي ألح عليه فيها وهي المشهورة باسم هذا الرجل وهو (همام) فيها الكثير من صفاتهم الرائعة ولذا نذكر بعض المقتطفات تجنباً للإطالة:

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٦٦، ح٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٥، ح٢٢٤٤٢.

(٢) الخصال: ص٤٨٣، ح٥٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٥، ح٢٢٤٤٤.

(٣) غرر الحكم: ٧٣٧٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٥، ح٢٢٤٤٥.

«فالمُتَّقونَ فيها هُم أهلُ الفَضائلِ: مَنطِقُهُمُ الصَّوابُ، ومَلبَسُهُمُ الاقتِصادُ، ومَشيُهُمُ التَّواضُعُ، غَضُّوا أبصارَهُم عَمّا حَرَّمَ علَيهِم، ووَقَفوا أسماعَهُم علَى العِلمِ النّافِعِ لَهُم، نُزِّلَت أنفُسُهُم مِنهُم في البَلاءِ كالّتي نُزِّلَت في الرَّخاءِ، ولَولا الأجَلُ الّذي كَتَبَ اللهُ علَيهِم[١] لَم تَستَقِرَّ أرواحُهُم في أجسادِهِم طَرفَةَ عَينٍ؛ شَوقاً إلَى الثَّوابِ، وخَوفاً مِنَ العِقابِ.

عَظُمَ الخالِقُ في أنفُسِهِم فصَغُرَ ما دُونَهُ في أعيُنِهِم، فهُم والجَنَّةُ كَمَن قَد رَآها فَهُم فِيها مُنَعَّمونَ، وهُم والنّارُ كَمَن قَد رَآها فَهُم فِيها مُعَذَّبونَ، قُلوبُهُم مَحزونَةٌ، وشُرورُهُم مَأمونَةٌ، وأجسادُهُم نَحيفَةٌ، وحاجاتُهُم خَفيفَةٌ، وأنفُسُهُم عَفيفَةٌ، صَبَروا أيّاماً قَصيرَةً أعقَبَتهُم راحَةً طَويلَةً، تِجارَةٌ مَربِحَةٌ يَسَّرَها لَهُم رَبُّهُم، أرادَتهُمُ الدُّنيا فَلَم يُريدوها، وأسَرَتهُم فَفَدَوا أنفُسَهُم مِنها.

فمِن عَلامَةِ أحَدِهِم أنَّكَ تَرى لَهُ قُوَّةً في دِينٍ، وحَزماً في لِينٍ، وإيماناً في يَقينٍ، وحِرصاً في عِلمٍ، وعِلماً في حِلمٍ، وقَصداً في غِنى، وخُشوعاً في عِبادَةٍ، وتَجَمُّلاً في فاقَةٍ، وصَبراً في شِدَّةٍ، وطَلَباً في حَلالٍ، ونَشاطاً في هُدىً، وتَحَرُّجاً عَن طَمَعٍ، يَعمَلُ الأعمالَ الصّالِحَةَ وهُوَ على وَجَلٍ، يُمسي وَهَمُّهُ الشُّكرُ، ويُصبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكرُ، يَبيتُ حَذِراً، ويُصبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لِما حُذِّرَ مِنَ الغَفلَةِ، وفَرِحاً بِما أصابَ مِنَ الفَضلِ والرَّحمَةِ»[٢].

الطرق الموصلة إلى التقوى

هذه الرتبة العالية الشريفة التي يطمع فيها كل العقلاء لن ينالها أحد إلا من خلال التمسك بمنهجية مرسومة من قبل الشارع المقدس ولذا نرى أن نبوّب هذه الطرق لتسهل معرفتها والأخذ بها:

---

(١) ورد في نهج البلاغة: الذي كُتب لهم.

(٢) ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٦ ـ ٤٨٢٧.

١ـ الالتزام بالاستقامة في كل مفردات الحياة قولاً وعملاً والابتعاد عن الأفكار والطرق المنحرفة التي تبتعد بصاحبها عن القرب الإلهي وعن رتبة المتقين وهذا ما نلمسه في قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

٢ـ التمسك بالدين الإسلامي الحنيف والتلبس بواجباته والانتهاء عن نواهيه فلذا ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«التَّقوى ثَمَرَةُ الدِّينِ، وأمارَةُ اليَقينِ»[2].

٣ـ أن يصوم صوماً حقيقيا، ويبتعد عن كل ما يفسد الصوم سواء كان على مستوى الجوارح أو الابتعاد عن المفطرات الفقهية وهذا ما تريده الآية الشريفة كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

٤ـ أن يحتاط العبد من الوقوع في الشبهات فضلاً عن الحرام الصريح والباطل الواضح وهذا ما أرشدنا إليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«إنَّ المُتَّقينَ الّذينَ يَتَّقونَ اللهَ مِن الشّيءِ الّذي لا يُتَّقى مِنهُ خَوفاً مِن الدُّخولِ في الشُّبهَةِ»[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) غرر الحكم: ١٧١٤. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٨، ح٢٢٤٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٤) تنبيه الخواطر: ج٢، ص٦٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٩، ح٢٢٤٤٩.

٥ـ لابد للعبد الذي يطمع أن يكون من المتقين أن يحاسب ويراقب نفسه ويتأكد من حلية ضرورياته، وهو الذي صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيّته لأبي ذر:

«يا أبا ذرٍّ، لا يكونُ الرّجُلُ مِن المُتَّقينَ حتّى يُحاسِبَ نفسَهُ أشَدَّ مِن مُحاسَبَةِ الشَّريكِ لِشَريكِهِ، فيَعلَمَ مِن أينَ مَطعَمُهُ، ومِن أينَ مَشرَبُهُ، ومِن أينَ مَلبَسُهُ؟ أمِن حِلٍّ ذلكَ، أم مِن حَرامٍ؟»[1].

ما يمنع التقوى

كما أن للتقوى وسائلا يصل بها الإنسان إلى رتبة المتقين التي هي رتبة الأنبياء والأولياء والعباد الصالحين كذلك هناك ما يمنع الاتصاف بهذه الصفة وما يحول بين المرء وبين هذه الرتبة ونذكرها على النحو الآتي:

١ـ إذا انغمس الإنسان في زخرف الدنيا وانبهر بزبرجدها يتعلق قلبه بها ويعشقها إلى درجة الوله، فيستولي عليه حب الدنيا فيغلق الباب بوجه التقوى فلا تستطيع الدخول إلى هذا القلب المغرور فضلاً عن الاستقرار فيه، وهذا يتضح من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«حَرامٌ على كُلِّ قَلبٍ مُتَوَلِّهٍ بالدُّنيا أن تَسكُنَهُ التَّقوى»[2].

٢ـ لا ينسجم بل لا يصح أن يكون المتقي طامعاً بما في أيدي الناس من حطام الدنيا وقذارتها، ولا يكون المتقي خاليا من الحياء فلذا قال الإمام العسكري عليه السلام:

«مَن لَم يَتَّقِ وُجوهَ النّاسِ لَم يَتَّقِ اللهَ»[3].

---

(١) كنز العمال: ٨٥٠١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٩، ح٢٢٤٥٠.

(٢) غرر الحكم: ٤٩٠٤. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٩، ح٢٢٤٥٣.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٣٧٧، ح٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٢٩، ح٢٢٤٥٤.

٣ـ إذا أراد العبد أن يتصف بالتقوى وأن يلمس آثارها وفوائدها لابد له من حفظ لسانه عما حرم الله تعالى، ولأهمية هذا الشرط نجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقسم بالله تعالى فيقول:

«واللهِ، ما أرى عَبداً يَتَّقي تَقوىً تَنفَعُهُ حتّى يَخزِنَ لِسانَهُ»[١].

٤ـ هناك إحدى الصفات الذميمة التي لا تليق بالمؤمن، بل قد تبعده عن طاعة الله تعالى حذر منها الإمام المعصوم بقوله:

«ولا يَستَطيعُ أن يَتَّقِيَ اللهَ مَن خاصَمَ»[٢].

أسئلة مهمة

نعلم أن الصفات الحسنة والفضائل الكريمة لها درجات متفاوتة بحسب من يتصف بها، فلذا نجد أن من الناس من له رتبة المتقين إلا أنه لا يمكن أن يكون في رتبة إمام المتقين عليه السلام ولذا نرى من المهم أن نطرح هذه الأسئلة لكي نجيب عليها بأجوبة أهل بيت العصمة عليهم السلام.

السؤال: ما هو معنى قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[٣].

فكيف نتقي الله حق تقاته؟

الجواب: ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ: أن يُطاعَ فلا يُعصى، وأن يُذكَرَ فلا يُنسى»[٤].

---

(١) نهج البلاغة: الخطة ١٧٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣٠، ح٢٢٤٥٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٩٨. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣٠، ح٢٢٤٥٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٤) الدرّ المنثور: ج٢، ص٢٨٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣٠، ح٢٢٤٥٧.

وقد أضاف الإمام الصادق عليه السلام على قول جده صلى الله عليه وآله وسلم (ويُشكر فلا يُكفر).

ولكي نقف على نوع هذه التقوى نعرض هذه الأحاديث الشريفة لتبين لنا كيفيتها وهي كما روى عليه السلام:

«اتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفكُّرَ قَلبَهُ، وأنصَبَ الخَوفُ بَدَنَهُ، وأسهَرَ التَّهَجُّدُ غِرارَ نَومِهِ، وأظمَأَ الرَّجاءُ هَواجِرَ يَومِهِ، وظَلَفَ الزُّهدُ شَهَواتِهِ»[1].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«اتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ تَقِيَّةَ مَن شَغَلَ بِالفِكرِ قَلبَهُ، وأوجَفَ الذِّكرَ بِلسانِهِ، وقَدَّمَ الخَوفَ لأمانِهِ»[2].

السؤال: ما هو تفسير التقوى في نظر أهل البيت عليهم السلام؟

الجواب:

التقوى أن تجتنب الحرام وتعصم نفسك من الوقوع فيه وهذا ظاهر في قولهم عليهم السلام:

«التَّقوى اجتِنابٌ»[3].

«بالتَّقوى قُرِنَتِ العِصمَةُ»[4].

«التَّقوى أن يَتَّقِيَ المَرءُ كُلَّ ما يُؤثِمُهُ»[5].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣١، ح٢٢٤٦٤.

(٢) غرر الحكم: ٦٦٠٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣١، ح٢٢٤٦٧.

(٣) غرر الحكم: ١٨٨. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣١، ح٢٢٤٦٨.

(٤) غرر الحكم: ٤٣١٦. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣١، ح٢٢٤٦٩.

(٥) غرر الحكم: ١٨٧١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٨٣٢، ح٢٢٤٧١.

بحث أخلاقي

النصيحة علامة المحب

إذا أحب الإنسان غيره لابد أن يكون ناصحا معه أو له لكي يؤكد حبه له وإلاّ يلزم من خلاف ذلك عدم صدق المدعى، فلذا خاطب القرآن الكريم الناس بلسان أحد أنبياء الله تعالى بأنه من الناصحين لهم لما جاء لهم من رسالات الله تعالى التي تقودهم إلى كمالهم ومصالحهم وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[2].

ولابد لنا من الوقوف على معنى النصيحة لكي يتسنى لنا معرفة أهميتها فنقول:

النصيحة لغة: هي الخالص من العمل، ناصح مناصحة (نصح نفسه بالتوبة: أخلصها، نصح الشيء نصحاً: خلص.

النصيحة اصطلاحاً: أن تخلص الإرشاد من يستحقه.

ولكي لا يلتبس المعنى على البعض عندما يقرأ (نصح لله، النصيحة لله ولرسوله .... الخ) فنقول:

المراد هنا نصح معه: أي أخلص معه في طاعته وانقياده وامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه.

وأمّا النصيحة للمسلمين هي الإخلاص في الإرشاد أو في التعامل معهم.

فإذا وزنا سلوك الإنسان مع ربه ومع أخيه المؤمن نجد أن هذا الإخلاص في فعله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٨.

وقوله ما هو إلا دلالة على حبه لربه أو لأخيه، فمن كان محباً كان ناصحاً ومن كان ناصحاً كان محباً ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما أخلَصَ المَوَدَّةَ مَن لَمْ يَنصَحْ»[١].

وإذا أراد الإنسان أن ينال محبة الطرف الآخر فما عليه إلا أن يكون ناصحاً له في كل ما تصح فيه النصيحة، وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«النَّصيحَةُ تُثمِرُ الوُدِّ»[٢].

النصيحة لمن؟

بعد أن عرفنا النصيحة وعرفنا دلالاتها على المحبة، بل وتثمر المحبة أيضا، صار لابد من معرفة من له الحق علينا في النصيحة، وهذا ما سنقدمه في العرض الآتي:

١ـ النصيحة لله تعالى:

قلنا إن النصيحة لله تعالى هي الإخلاص له في الطاعة والانقياد، وإتيان ما يحب واجتناب ما يكره، وهذه النصيحة لا تعود على الله تعالى بالنفع والفائدة لغناه عن طاعة من أطاعه، إلا أننا نجد أن الله تعالى يؤكد على هذه النصيحة بل يجعلها من أحب العبادات إليه تعالى كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: أحَبُّ مَا تَعَبَّدَ لي بِهِ عَبدي، النُّصحُ لي»[٣].

وما هذا التأكيد إلا لكي ينتفع العبد الناصح بذلك فإن دل على شيء فإنما يدل على لطف الله تعالى ورحمته بعباده.

---

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ج١٢، ص٤٣٣، ح١٤٥٤٠. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٣، ح٢٠١٣٧. غرر الحكم: ح٩٥٨٠.

(٢) غرر الحكم: ٨٤٤. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٣، ح٢٠١٤٣.

(٣) الترغيب والترهيب: ج٢، ص٥٧٧، ح١٦. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٢، ح٢٠١٣١.

٢ـ النصيحة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

ومعنى النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الالتزام بشريعته بعد الإيمان به والتصديق بما جاء به من عند الله العظيم، والحفاظ على دينه والدفاع عن بيضة هذا الدين، والمودة والمولاة لآله الطاهرين عليهم السلام والسير بهداهم، وهذا ما أشار إليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن يَضْمَنُ لي خَمساً أضمَن لَهُ الجَنَّةَ: النَّصيحَة للهِ عَزَّ وجَلَّ، والنَّصيحَة لرَسولِهِ، والنَّصيحَةُ لِكتابِ اللهِ، والنَّصيحَةُ لدِينِ اللهِ، والنَّصيحَةُ لجَماعَةِ المُسلِمينَ»[1].

٣ـ النصيحة لكتاب الله تعالى:

وهذا يتجسد في تلاوته والالتزام بأحكامه وعدم هجره تلاوة وعملا، والتدبر فيه والتبرك بالنظر إليه، وتطهير الألسن والنفوس بآياته وعبره وحكمه وأمثاله وقصصه.

وهذا أيضا ورد في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«والنَّصيحَةُ لِكتابِ اللهِ، والنَّصيحَةُ لدِينِ اللهِ، والنَّصيحَةُ لجَماعَةِ المُسلِمينَ»[2].

٤ـ النصيحة للإمام بالحق:

التولي للإمام ولأوليائه والتبري من أعدائه، والاقتداء بهديه وسمته، والإقرار بحجته والدفاع عنه والاستشهاد بين يديه إذا استلزم الأمر ذلك هو عين النصيحة له، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن لا يَهتَمَّ بأمرِ المُسلِمينَ فلَيسَ مِنهُم، ومَن لَم يُصبِحْ ويُمسِ ناصِحاً للهِ ولرَسولِهِ ولكِتابِهِ ولإمامِهِ ولعامَّةِ المسلِمينَ فلَيسَ مِنهُم»[3].

---

(١) مشكاة الأنوار: ص٣١٠.

(٢) ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٢، ح٢٠١٣٥.

(٣) الترغيب والترهيب: ج٢، ص٥٧٧، ح١٧. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٢، ح٢٠١٣٢.

٥ـ النصيحة لعامة المسلمين:

مؤازرتهم ومعاونتهم وإرشادهم ومعاشرتهم بالمعروف والاهتمام بأمرهم والدفاع عن مظلومهم هو ما أرشد إليه الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«والنَّصيحَةُ لجَماعَةِ المُسلِمينَ».

فوائد

إذا وجدت في شخص بعض هذه الصفات التي سنذكرها الآن فخذ بنصيحته إذا قدمها إليك وهي:

ألف: إذا أراد أن يحكم بين طرفين لا يحكم إلا بالحق دون أن يتأثر بنسب أو مال أو رابطة معينة كالديانة أو المذهبية أو الوطنية.

باء: إذا كان لغيره عليه حقٌ لا يتوانى في إعطائه من نفسه.

جيم: لا يرضى لنفسه شيئا دون غيره ولا يرضى لغيره إلا ما يرضاه لنفسه.

دال: لا يبغي ولا يظلم ولا يتجاوز حدود الله تعالى.

هذه الصفات ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«أمّا علامَةُ النّاصِحِ فأربَعةٌ: يَقضي بالحَقِّ، ويُعطي الحَقَّ، ويُعطي الحَقَّ مِن نَفسِهِ، ويَرضى للنّاسِ ما يَرضاهُ لنَفسِهِ، ولا يَعتدي على أحَدٍ»[1].

ـ لا تنتظر من البخيل اللئيم والحاسد البغيض نصيحة ولا تعاتبهم على ذلك لعدم فائدة العتاب معهم، فإن هذين الصنفين من الناس لا يحركهما إلا الطمع أو الخوف وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

---

(١) تحف العقول: ص٢٠. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٤، ح٢٠١٥٥.

«لاَ يَنصَحُ اللَّئيمُ أحَداً إلاّ عن رَغبَةٍ أو رَهبَةٍ، فإذا زالَتِ الرَّغبَةُ والرَّهبَةُ عادَ إلى جَوهَرِهِ»[1].

وأشار إلى الصنف الثاني (الحاسد) إمامنا الصادق عليه السلام بقوله:

«النَّصيحَةُ مِن الحاسِدِ مُحالٌ»[2].

ـ قد يتلبس بعض السعادة النمامين والمفرقين بين الناس بلباس الناصحين وهم أكثر الناس غشاً فاحذرهم وهذا هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه وعهده لمالك الأشتر رضي الله عنه فجاء:

«ولا تَعجَلَنَّ إلى تَصديقِ ساعٍ، فإنَّ السّاعيَ غاشٌّ وإن تَشَبَّهَ بالنّاصِحينَ»[3].

ـ لا تنسى نفسك

تقدم الكلام أن النصيحة الحقة التي لا غش فيها ولا تلكأ ولا غاية فاسدة هي ما كانت لله تعالى ولرسوله ولكتابه وللإمام الحق ولعامة المسلمين، ولكي تصدر النصيحة من العبد لما ذكرنا لابد أن يكون صاحب النصيحة ذا نفس مؤمنة مطيعة منقادة لله تعالى ولرسوله وهذا لا يتم إلا من رجل ينصح نفسه قبل غيره كما صرح بذلك أمير المؤمنين بقوله:

«مَن نَصَحَ نَفسَهُ كانَ جَديراً بِنُصحِ غَيرِهِ، مَن غَشَّ نَفسَهُ كانَ أغَشَّ لِغَيرِهِ»[4].

ولكي يتضح هذا الترابط بين النصيحة وبين العبد المطيع لربه نذكر قول الإمام

---

(١) غرر الحكم: ص١٠٩١٠. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٥٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٩٤، ح٩. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٥٧.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٣١. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٦١.

(٤) غرر الحكم: ٩٠٤٣، ٩٠٤٤. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٦٥.

أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ أنصَحَ النّاسِ أنصَحُهُم لِنَفسِهِ، وأطوَعُهُم لِرَبِّهِ»[١].

فمن أراد أن يكون ناصحاً لنفسه لابد أن يكون من المطيعين، فالمطيع هو الناصح الحقيقي والعاصي هو الغاش لنفسه كما ورد في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ أنصَحَ النّاسِ لِنَفسِهِ أطوَعُهُم لِرَبِّهِ، وإنّ أغَشَّهُم لِنفسِهِ أعصاهُم لِرَبِّهِ»[٢].

ومن كان ناصحاً لله تعالى ولرسوله ولنفسه رزقه الله تعالى القناعة والرضا بما ناله من هذه الدنيا الفانية، ورزقه في الآخرة برضوان ينجيه من عذابها ولذا ذكر الإمام الصادق عليه السلام قوله هذا:

«ما ناصَحَ اللهَ عبدٌ مُسلِمٌ في نَفسِهِ، فأعطَى الحَقَّ مِنها وأخَذَ الحَقَّ لَها، إلاّ أُعطِيَ خَصلَتَينِ: رِزقاً مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَقنَعُ بهِ ورِضىً عن اللهِ يُنجيهِ»[٣].

ـ أسئلة مهمة

السؤال: من هو الذي لا ينتفع بالنصيحة؟

الجواب: ذكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أصنافاً من الناس لا تهمهم النصيحة ولا ينتفعوا بها:

ألف: الفاسد الذي يلتذ بفضيحته ولا يهتم بما قيل فيه وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«كيفَ يَنتَفِعُ بالنَّصيحَةِ مَن يَلتَذُّ بالفَضيحَةِ»[٤].

---

(١) غرر الحكم: ٣٥١٥. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٦٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٨٦. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥، ح٢٠١٦٣.

(٣) الخصال: ٤٦ ـ ٤٧. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٥ ـ ٤٣٢٦، ح٢٠١٦٦.

(٤) غرر الحكم: ٧٠٠٨. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٦، ح٢٠١٦٩.

باء: من لا عقد له سواء كان مجنوناً أو أحمقَ أو جاهلاً جهلا مركبا، فلذا قال الإمام السجاد عليه السلام عن الأحمق الذي لا يهتم بالنصيحة:

«إن تكلم فضحه حمقه، وإن سكت قصر به عيه، وإن عمل أفسد، وإن استرعى أضاع، لأعلمه من نفسه يغنيه، ولا علم غيره ينفعه، ولا يطيع ناصحه، ولا يستريح مقارنه، تود أمه أنها ثكلته، وامرأته أنها فقدته، وجاره بعد داره، وجليسه الوحدة من مجالسته، إن كان أصغر من في المجلس أعي من فوقه، وإن كان أكبرهم أفسد من دونه»[1].

وتكلم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يصف الجاهل بالجهل المركب الذي لا يقبل قولاً ولا موعظة ولا نصيحة فقال:

«إن الجاهل من عدّ نفسه بما جهل من معرفة العلم عالماً وبرأيه مكتفيا فما يزال من العلماء مباعداً وعليهم زاريا ولمن خالفه مخطّئاً ولمن لم يعرف من الأمور مضلّلاً وإذا ورد عليه من الأمر ما لا يعرفه أنكره وكذّب به وقال بجهالته: ما أعرف هذا، وما أراه كان، وما أظن أن يكون، وإنى كان، ولا أعرف ذلك لثقته برأيه وقلّة معرفته بجهالته»[2].

السؤال: ممن نأخذ النصيحة؟

الجواب: نصحنا الإمام عليه السلام أن نأخذها مما يلي:

ألف: إن أفضل ناصح وأكمل نصيحة هي نصيحة الله تعالى لعبده فلذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَيُّها النّاسُ، إنَّهُ مَنِ استَنصَحَ اللهَ وُفِّقَ»[3].

(١) الأمالي للشيخ الطوسي: ص٦١٤، ح١٢٦٨/٤.

(٢) الآداب والأخلاق الإسلامي لعبد الله الهاشمي: ص٦٩٥.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٦، ح٢٠١٧٢.

باء: وأن كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو خير ناصح لا يغش ويظل وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«اتّعِظوا بمَواعِظِ اللهِ، واقبَلوا نَصيحَةَ اللهِ... واعلَموا أنّ هذا القرآنَ هُو النّاصِحُ الّذي لا يَغُشُّ... واستَنصِحوه على أنفُسِكُم، واتَّهِموا علَيهِ آراءَكُم، واستَغِشُّوا فيهِ أهواءَكُم»[1].

جيم: هناك من يمنّ علينا بمبادرة منه فيهب لنا نصيحته لنتدبرها بعقولنا ثم نعمل بها بعد التأكد من صوابها وهذا ما أشار إليه مولى المتقين عليه السلام بقوله:

«اِسمَعوا النَّصيحَةَ مِمَّن أهداها إلَيكُم، واعقِلوها على أنفُسِكُم»[2].

ورد أيضا عن أمير المؤمنين عليه السلام أن:

«لا تأخذ النصيحة ممن لا عقل له ولا أصل.... الخ».

السؤال: ما هي آثار قبول النصيحة أو عدم قبولها؟

الجواب: ألف/ إن لقبول النصيحة آثارا جميلة أوردها أمير المؤمنين عليه السلام بالأحاديث الآتية:

١ـ قال الإمام علي عليه السلام:

«مَن نَصَحَكَ فَقَد أنجَدَكَ»[3].

٢ـ وعنه عليه السلام:

«مَن قَبِلَ النَّصيحَةَ أمِنَ مِن الفَضيحَةِ»[4].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٦، ح٢٠١٧١.

(٢) غرر الحكم: ٢٤٩٤. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٧٤.

(٣) غرر الحكم: ٧٧٦٧. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨١.

(٤) غرر الحكم: ٨٣٤٤. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨٢.

٣ـ وعنه عليه السلام:

«مِن أكبَرِ التَّوفيقِ الأخذُ بالنَّصيحَةِ»[١].

٤ـ وعنه عليه السلام:

«مَن أقبَلَ علَى النَّصيحِ أعرَضَ عنِ القَبيحِ، مَنِ استَغَشَّ النَّصيحَ غَشِيَةُ القَبيحُ»[٢].

ـ وقفة وتأمل

لنتأمل في هذه الدرر التي فاض بها علينا سيد الأوصياء عليه السلام فنجده يؤكد على قبول نصيحة الناصح لما فيها من نجاة وخلاص من براثن الشيطان وعثرات النفس، ولما فيها من دفع للفضيحة بين الناس التي ستلحق الضرر الكبير بسمعتنا ومنزلتنا في الدنيا وتحجب عنا رضا ربنا ورضوانه في الآخرة.

باء/ ومن ترك التمسك بالنصيحة ظل وهوى، وأدخل السرور على أعدائه والحزن على أحبائه، فلذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَن خالَفَ النُّصحَ هَلَكَ»[٣].

وعنه عليه السلام:

«مَن عَصى نَصيحَهُ نَصَرَ ضِدَّهُ»[٤].

وعنه عليه السلام:

«مَن أعرَضَ عَن نَصيحَةِ النّاصِحِ أُحرِقَ بِمَكيدَةِ الكاشِحِ»[٥].

---

(١) غرر الحكم: ٩٣٠٥. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨٣.

(٢) غرر الحكم: ٨٦٨٣. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨٥.

(٣) غرر الحكم: ٧٧٤٣. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٧٩.

(٤) غرر الحكم: ٨٣٥٥. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨٠.

(٥) غرر الحكم: ٨٦٩٧. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٣٢٧، ح٢٠١٨٦.

بحث عقائدي

الحياة البرزخية

بعد أن أوصى الإمام الحسين عليه السلام بالتقوى وحذر الناس من أيام الله تعالى نحا بخطبته على بيان نزول ريب المنون ومرارته واستيلائه على مهج القلوب ووقوفه حاجبا بين العمل وبين صاحبه فينقطع العبد عن الدنيا ليبدأ يومه الأول في آخرته فيأخذ بقوانين النشأة الأخرى، وأدلى مراحل هذه النشأة هي الحياة البرزخية.

قبل أن نخوض في تفصيلات هذه الحياة لابد لنا من معرفة البرزخ لغة واصطلاحاً.

البرزخ في اللغة: الحاجز بين شيئين[١].

البرزخ في الاصطلاح: جاء عن الجرجاني[٢]، البرزخ: هو العالم المشهور بين عالم المعاني المجردة والأجسام المادية، وعرفه أهل البيت عليهم السلام بأنه أمر بين أمرين كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

ورد في تفسير نور الثقلين عن علي بن إبراهيم: البَرْزَخُ هُو أمرٌ بَينَ أمرَينِ، وهُو الثَّوابُ والعِقابُ بين الدُّنيا والآخِرَةِ، وهُو قولُ الصّادقِ عليه السلام:

«واللهِ، ما أخافُ علَيكُم إلاّ البَرزَخَ»[٣].

وحدده الإمام الصادق عليه السلام بكلام صريح بقوله:

«والله، أتَخَوَّفُ علَيكُم في البَرزَخ!

قلتُ: وما البَرْزخُ؟ فقالَ:

القَبرُ مُنذُ حينِ مَوتِهِ إلى يومِ القيامةِ».

(١) المعجم الوسيط: ص٤٩.

(٢) التعريفات للجرجاني: ص٣١.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٥٥٣، ح١٢٠. ميزان الحكمة: ج١، ص٣٣٦، ح١٦٨١.

أحوال البرزخ

تقدم الحديث أن البرزخ هو ما سيكون عليه العبد في القبر الذي يضمه منذ موته إلى حين نشوره وقيامته، فإذا نزل العبد في ذلك المكان الموحش المظلم الضيق انقطع عن عالم الدنيا وما فيها من الأحبة والأموال والمناصب والعناوين الوقتية والجاه العريض، فيصرح دون أن يسمعه أحد، وينادي فلا يجيبه مجيب، فتبدأ أحوال القبر من ضمة القبر إذ إن القبر يضم صاحبه إذا كان عاصيا ضمة فتتلاقى أضلاعه كما ورد ذلك في الروايات الشريفة فلقد جاء في كتاب الأمالي للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له: إن سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقام أصحابه معه.

فأمر بغسل سعد وهو قائم على عضادة الباب، فلما أن حنط وكفن وحمل على سريره تبعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا حذاء ولا رداء.

ثم كان يأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحده وسوى اللبن عليه، وجعل يقول: ناولوني حجراً، ناولوني تراباً رطباً يسد به ما بين اللبن.

فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوى قبره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني لأعلم أنه سيبلى ويصل البلى إليه؛ ولكن الله يحب عبداً إذا عمل عملا أحكمه، فلما أن سوى التربة عليه قالت أم سعد: يا سعد هنيئاً لك الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أم سعد! مه، لا تجزمي على ربك، فإن سعداً قد أصابته ضمة.

قال: فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجع الناس؛ فقالوا له: يا رسول الله

لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم إن الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسيت بها.

فقالوا: وكنت تأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة، قال: كانت يدي في يد جبرئيل آخذ حيث يأخذ، قالوا: أمرت بغسله وصليت على جنازته ولحدته في قبره ثم قلت: إن سعداً قد أصابته ضمة! قال: فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم إنه كان في خلقه مع أهله سوء»[1].

فإن هذه الضمة التي تصيب الميت هي تطهير له لكي يخرج إلى القيامة نظيفا من بعض الذنوب كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن علي عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ضغطة القبر للمؤمن كفارة لما كان من تضييع النعم»[2].

ثم يلي ضمة القبر سؤال منكر ونكير فيسألان العبد أسئلة عديدة فيكون بعدها إمّا فائزا أو هو من الخاسرين نتيجة لأجوبته وهذا ما ذكره لنا صاحب الأمالي فقال:

عن موسى بن جعفر، عن أبيه عليهما السلام قال:

«إذا مات المؤمن شيعه سبعون ألف ملك إلى قبره، فإذا أدخل قبره أتاه منكر ونكير فيقعدانه ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، ومحمد نبيي، والإسلام ديني، فيفسحان له في قبره مد بصره، ويأتيانه بالطعام من الجنة، ويدخلان عليه الروح والريحان، وذلك قوله عزّ وجل:

---

(١) تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، السيد عبد الله شبر: ص٨٥ ـ ٨٦.

(٢) تسلية الفؤاد لعبد الله شبر: ص٨٦.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾[(١)].

يعني في قبره.

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[(٢)].

يعني في الآخرة.

ثم قال عليه السلام:

إذا مات الكافر شيعه سبعون ألفاً من الزبانية إلى قبره، وإنه ليناشد حامليه بصوت يسمعه كل شيء إلا الثقلان ويقول: لو أن لي كرة فأكون من المؤمنين، ويقول: ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت، فتجيبه الزبانية: كلا إنها كلمة أنت قائلها، ويناديهم ملك: لو رد لعاد لما نهي عنه، فإذا أدخل قبره وفارقه الناس أتاه منكر ونكير في أهول صورة؛ فيقيمانه ثم يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيتلجلج لسانه ولا يقدر على الجواب، فيضربانه ضربة من عذاب الله يذعر لها كل شيء، ثم يقولان له:

من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا هديت ولا أفلحت، ثم يفتحان له باباً إلى النار وينزلان إليه الحميم من جهنم وذلك قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾[(٣)].

يعني في القبر.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[(٤)].

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٨٨ و٨٩.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الواقعة، الآيتان: ٩٢ و٩٣.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٩٤.

يعني في الآخرة»[١].

هذه الحالة التي يمر فيها الميت هي مرحلة سابقة لمرحلة البرزخ، أي عندما يودّع الإنسان هذه الدنيا وينتقل إلى عالم الآخرة يكون في يومه الآخر من أيام الدنيا والأول من أيام الآخرة فيتجسم له ما كان مهتما به أشد الاهتمام ألا وهو المال والأولاد والعمل فعندها تحصل المحاورة التي تزلزل القلوب وتدمع العيون ويطير لها اللب، وهذا ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في الكافي مسنداً عن سويد بن غفلة قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

«إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة مثل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك.

قال: فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محباً واني كنت عليكم محامياً فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك نواريك فيها.

قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً وإن كنت علي لثقيلا فماذا لي عندك، فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربك.

قال: فإن كان لله ولياً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنة نعيم ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح ارتحل من الدنيا إلى الجنة وانه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله»[٢].

---

(١) أمالي الصدوق: ص١٧٤. تسلية الفؤاد، لعبد الله شبر: ص٨٧ ـ ٨٨.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٣١. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٨٩ ـ ٩٠.

ففي هذه الرواية يكون العمل مجملا لصاحبه.

وهناك ما يدل على تجسم الأعمال تفصيليا، أي أن الصلاة تتجسم بصورة والصوم بصورة أخرى والزكاة بصورة ثالثة وهكذا فلذا ذكر في المحاسن عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال:

«إذا مات العبد المؤمن دخلت معه في قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهاً، وأبهاهن هيئة، وأطيبهن ريحاً وأنظفهن صورة، قال: فتقف صورة عن يمينه وأخرى عن يساره وأخرى بين يديه وأخرى خلفه وأخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهن فوق رأسه، فإن أتي عن يمينه منعته التي عن يمينه، ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست، قال: فتقول أحسنهن صورة: من أنتم جزاكم الله عني خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره، أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا بر من وصلت من إخوانك، ثم يقلن: من أنت، فأنت أحسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيئة؟ فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين»[1].

عندما تقرأ الروايات التي تتحدث عن أحوال البرزخ تقف مذهولا فهناك رواية تشير إلى أن المؤمن مهما بلغ إيمانه ودرجته لابد له من ضمة القبر لمعصية لم يتب منها وهذا ما حصل لسعد بن معاذ كما جاء في الرواية السابقة الذكر ففي هذه الرواية نجد أن سعداً شيعته الملائكة وعلى رأسهم جبرئيل عليه السلام وحمله سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم على عاتقه الشريف وتولى أمر تنزيله في القبر ووضعه في محلودة قبره وسوى عليه التراب بيده الشريفة إلا أنه لم ينجُ من ضمة القبر بسبب غلظة مع أهله.

---

(١) المحاسن: ص٢٨٨. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٩٣.

أسئلة مهمة

السؤال: هل هناك من ينجو من ضغطة القبر؟

الجواب: ورد في الروايات أن الناجين من ضغطة القبر قليلون جداً وهذا ما أكده الإمام الصادق عليه السلام في الكافي عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

أيفلت من ضغطة القبر أحد؟، قال، فقال عليه السلام:

«نعوذ بالله منها، ما أقل من يفلت من ضغطة القبر إن رقية لما قتلها عثمان وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبرها، فرفع رأسه إل السماء فدمعت عيناه وقال للناس:

إني ذكرت هذه وما لقيت فرققت لها واستوهبتها من ضمة القبر قال: فقال اللهم هب لي رقية من ضمة القبر فوهبها الله له»[1].

وهم كالآتي:

ألف: من شفع فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أحد الأئمة عليهم السلام كما في تكملة الرواية السابقة فيقول:

إن رقية لما قتلها عثمان وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبرها، فرفع رأسه إلى السماء فدمعت عيناه وقال للناس:

إني ذكرت هذه وما لقيت فرفقت لها واستوهبتها من ضمة القبر قال: فقال اللهم هب لي رقية من ضمة القبر فوهبها الله له»[2].

باء: من مات في وقت شريف من أيام الأسبوع وهو يوم الجمعة ينجو من هذه

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٦٣. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٩٤.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٦٣. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٩٤ ـ ٩٥.

الضغطة المخيفة كما في الرواية الآتية، في محاسن البرقي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من مات يوم الجمعة كتب الله له براءة من ضغطة القبر»[1].

بل في رواية أخرى هناك توسعة في الوقت مما أشارت إليه الرواية السابقة وهذا ما أشارت إليه الرواية:

«من مات ما بين زوال الشمس يوم الخميس إلى زوال الشمس من يوم الجمعة من المؤمنين أعاذه الله من ضغطة القبر»[2].

وفي رواية ثالثة أن لليلة الجمعة أو يومها دوراً كبيراً في رفع عذاب القبر كله بما فيه ضغطة القبر وهذا ما ذكره الإمام أبو جعفر عليه السلام بقوله:

«بلغني أن النبي قال: من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة دفع عنه عذاب القبر»

جيم: وسنذكر بعض الأعمال التي تساعد على النجاة من ضغطة القبر وهي كما يلي:

(الأول: رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«مَنْ قرأ سورة النساء في كل جمعة أومِنَ مِنْ ضغطة القبر»[3].

الثاني: رُوي:

«مَنْ أدْمَنَ قراءة (حم) الزخرف آمنه الله في قبرهِ منْ هَوامِّ الأرض وضغطة القبر»[4].

الثالث: رُوي:

---

(١) المحاسن: ص٥٨. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٩١ ـ ٩٢.

(٢) أمالي الصدوق: ص١٦٩، تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٨٦.

(٣) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٣١. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٢.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٤١. نقله في البحار: ج٨٧، ص٢، ح٣.

«مَنْ قرأ سورة (ن) والقلم في فريضة أو نافلة... أعاذه الله إذا مات مِنْ ضمة القبر»[١].

الرابع: رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ مات ما بين زوال الشمس من يوم الخميس إلى زوال الشمس من يوم الجمعة أعاذه الله مِنْ ضغطة القبر»[٢].

الخامس: رُوي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ قال:

«عليكم بصلاة الليل، فما من عبد يقوم آخر الليل فيصلي ثمان ركعات، وركعتي الشفع، وركعة الوتر، واستغفر الله في قنوته سبعين مرّةً إلاّ أجير مِنْ عذاب القبر ومِن عذاب النار، ومُدَّ في عمره، ووسع عليه في معيشته»[٣].

السادس: روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن قرأ ألهاكم التكاثر عند النوم وقي مِنْ فتنة القبر»[٤].

السابع: قراءة دعاء:

(أعددتُ لكل هول لا إله إلا الله...).

الثامن: الدفن في النجف الأشرف، فمن خواص هذه التربة الشريفة أنّها تُسقط عذاب القبر وحساب منكر ونكير عَنْ مَنْ يدفن فيها[٥].

التاسع: من الأمور النافعة لرفع عذاب القبر وضع جريدتين رطبتين مع الميت.

---

(١) ثواب الأعمال: ص١٤٧. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٣.

(٢) الأمالي للصدوق: ص٢٣١. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٦، ص٢٢١، ح١٧.

(٣) روضة الواعظين للنيسابوري: ج٢، ص٣٢٠. بحار الأنوار: ج٨٧، ص١٦١.

(٤) ثواب الأعمال للصدوق: ص١٥٣. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٧٦، ص٢٠٠، ح١٤.

(٥) إرشاد القلوب للشيخ الديلمي: ص٤٣٩. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٤.

وروي: أنه يتجافى عنه العذاب ما دامت رطبة.

وروي أيضا:

(مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبر يُعَذَّب صاحبه، فدعا بجريدة فشقها نصفين، فجعل واحدةً عند رأسه، والأخرى عند رجليه، وأنّه قيل له: لم وضعتها؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّه يخفف عنه العذاب ما كانتا خضراوين»[1].

ومن النافع أيضاً صبّ الماء على القبر لما ورد أن العذاب يرفع عن الميت ما دام القبر رطباً[2].

العاشر: في أول يوم من رجب.

(تصلّي عشر ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات... وقاك الله فتنة القبر وعذاب يوم القيامة)[3].

(ويصلي في الليلة الأولى من رجب بعد صلاة المغرب عشرين ركعة بالحمد والتوحيد، فإنّها نافعة في رفع عذاب القبر)[4].

الحادي عشر: أن تصوم أربعة أيّام من شهر رجب[5].

وكذلك صوم اثني عشر يوماً من شعبان[6].

الثاني عشر: ومن الأمور الموجبة للنجاة من عذاب القبر قراءة سورة الملك فوق

---

(١) الفقيه: ج١، ص١٤٤، ح٤٠٢. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٦.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٠٠، ح٦.

(٣) الإقبال لابن طاوس: ص٦٣٧.

(٤) الإقبال لابن طاوس: ص٦٢٩.

(٥) ثواب الأعمال للصدوق: ص٧٩. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٧.

(٦) ثواب الأعمال للصدوق: ص٨٧. الأمالي للصدوق: ص٣٠.

قبر الميت كما روى ذلك القطب الراوندي عن ابن عباس قال:

(إن رجلا ضرب خباءه على قبر ولم يعلم أنّه قبر، فقرأ تبارك الذي بيده الملك، فسمع صائحاً يقول: هي المنجية.

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال:

«هي المنجية من عذاب القبر»[1].

وروى الشيخ الكليني عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«سورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر»[2].

الثالث عشر: في دعوات الراوندي نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«ما من أحد يقول عند قبر ميت إذا دفن ثلاث مرّات: (اللهم إنّي أسألكَ بحق محمدٍ وآل محمدٍ أنْ لا تُعَذِّبَ هذا المَيتَ) إلاّ دفع الله عنه العذاب إلى يوم ينفخ في الصور»[3].

الرابع عشر: روى الشيخ الطوسي في (مصباح المتهجد) عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«مَنْ صَلّى ليلة الجمعة ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت الأرض زلزالها خمس عشرة مرّة آمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة»[4].

الخامس عشر: ومن النافع فعله لرفع عذاب القبر صلاة ثلاثين ركعة في ليلة

---

(١) الدعوات للقطب الراوندي: ص٢٧٩، ح٨١٧.س

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٣٣، ح٢٦. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٨.

(٣) الدعوات للقطب الراوندي: ص٢٧٠، ح٧٧٠. بحار الأنوار: ج٨٢، ص٥٤، ح٤٣.

(٤) مصباح المتهجد: ص٢٢٨.

النصف مِن رجب يقرأ في كل ركعة الحمد مرّة والتوحيد عشر مرّات[١].

وكذلك في الليلة السادسة عشرة[٢] والليلة السابعة عشرة[٣] من رجب.

وكذلك أن يصلي في الليلة الأولى مِنْ شعبان مائة ركعة بالحمد والتوحيد، وبعد أن يفرغ من الصلاة يقرأ التوحيد خمسين مرّة[٤].

وكذلك يصلي في الليلة الرابعة والعشرين من شعبان ركعتين يقرأ في كل ركعة الحمد مرّة، وإذا جاء نصر الله عشر مرات[٥].

وورد ليوم النصف من رجب صلاة خمسين ركعة بالحمد والتوحيد والفلق والناس، فإنّها نافعة لرفع عذاب القبر[٦].

ومثلها صلاة مائة ركعة ليلة عاشوراء[٧])[٨].

السؤال: هل يعذب المصلوب عذاب القبر لاسيما ضغطة القبر؟

الجواب: أجاب على ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

روى علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس قال: سألته عن المصلوب يعذب عذاب القبر؟ قال: فقال:

«نعم إن الله عز وجل يأمر الهواء أن يضغطه»[٩].

---

(١) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٦٥٢.

(٢) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٦٦٤.

(٣) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٦٦٥.

(٤) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٦٨٣.منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٩.

(٥) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٧٢٢.

(٦) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٦٥٨. منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٧٠.

(٧) إقبال الأعمال لابن طاوس: ص٥٥٥ ـ ٥٥٦.

(٨) منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٦٢ ـ ٧٠.

(٩) الكافي للكليني: ج٣، ص٢٤١، برقم ٤٧٢٨ ـ ١٦.

وفي رواية أخرى، سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المصلوب يصيبه عذاب القبر فقال:

«إن رب الأرض هو رب الهواء فيوحي الله عز وجل إلى الهواء فيضغطه ضغطة أشد من ضغطة القبر»[١].

ويستشف من هذه الرواية أن الميت يتعذب بعذاب القبر وإن لم يكن له قبر ترابي بحسب الظاهر، ولا يقتصر العذاب على ضغطة القبر بل يتعداه إلى غيره بدليل أن السائل الذي سأل الإمام عليه السلام عن عذاب القبر مطلقاً فلم ينفِ الإمام عليهم السلام العذاب عن الميت المصلوب وإنما أشار إلى الضغطة من باب ذكر مصداق من مصاديق العذاب، أو لعل الإمام عليه السلام دفع إشكالاً مقدراً في ذهن السائل وهو (كيف يضغط المصلوب ولم يكن له قبر من تراب) فرد عليه بأنه يضغط بالهواء.

السؤال: من هو الذي يتعرض لسؤال منكر ونكير، أجميع الناس يسألون أم هناك فئة دون أخرى؟

الجواب: هناك ثلاثة أصناف من الناس، صنف محض الإيمان محضاً أي كان مؤمناً في أعلى درجات الإيمان وأرقى رتب المؤمنين، وصنف آخر محض الكفر، وصنف ثالث هو الصنف الذي بين هؤلاء وأولئك، وكذلك الحال مع المستضعفين والبلهاء والأطفال وأبناء المسلمين الذين لم يبلغوا سن الرشد.

فلذا لا يُسأل إلا الصنف الأول والثاني فقط ولُغي عن الصنف الثالث وهذا ما أكدته الكثير من الروايات كما في قول الإمام الصادق عليه السلام:

ورد في الكافي عن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

«لا يسأل في القبر إلا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً»[٢].

---

(١) المصدر السابق: برقم ٤٧٢٩ ـ ١٧.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٣٦. تسلية الفؤاد، السيد عبد الله شبر: ص١٠١.

وعن أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

«لا يسأل في القبر إلا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، والآخرون يلهون عنهم»[١].

وعن ابن بكير عن أبي جعفر عليه السلام، وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قالا:

«إنما يسأل في قبره من محض الإيمان محضاً أو الكفر محضاً، وأمّا ما سوى ذلك فيلهى عنهم»[٢].

وعن أبي بكر الحضرمي قال: (قلت لأبي جعفر عليه السلام: من المسؤولون في قبورهم؟ قال:

«من محض الإيمان ومن محض الكفر».

قال: قلت: فبقية هذا الخلق؟ قال:

«يلهى والله عنهم ما يعبأ بهم»)[٣].

وينسجم هذا القول مع قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٤].

السؤال: هل أن أرواح المؤمنين والكفار تزور أهلها بعد الموت؟

الجواب: ورد في الكافي أن المؤمنين والكفار على حد سواء يزورون أهلهم في أوقات معينة وبصورة العصفور أو أقل منه فيرون أهلهم، فأمّا المؤمنون يرجعون في فرح

(١) الكافي: ج٣، ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي: ج٣، ص٢٣٧. تسلية الفؤاد، السيد عبد الله شبر: ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

وسرور لما رأوا من حسن حال دين أهلهم، وأما الكفار فإنهم يرون أهلهم ويرجعون إمّا بحسرة عندما يرون أن أهلهم يعملون بالصالحات وإما في حزن عندما يرونهم بشر وحاجة، ويزور الأموات أهليهم عند زوال الشمس، ولكن المؤمنين يؤذن لهم بالزيارة أكثر من مرة في الأسبوع وعلى قدر فضلهم وهذا ما أشارت إليه الروايات الآتية:

روى ثقة الإسلام في الكافي بإسناده (عن الصادق عليه السلام قال:

«إنّ المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب ويسترعنه ما يكره، وإن الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره ويسترعنه ما يحب.

قال:

ومنهم من يزور كل جمعة، ومنهم من يزور على قدر عمله»[1].

وعن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام قال:

«ما من مؤمن ولا كافر إلا وهو يأتي أهله عند زوال الشمس، فإذا رأى أهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك، وإذا رأى الكافر أهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة»[2].

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: سألته عن الميت يزور أهله؟ فقال:

«نعم.

فقلت: في كم يزور؟ قال:

في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته.

فقلت: في أي صورة يأتيهم، قال:

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٣٠.

(٢) المصدر السابق.

في صورة طائر لطيف يسقط على دارهم ويشرف عليهم فإن رآهم بخير فرح وان رآهم بشر وحاجة وحزن اغتم»[١].

وعن عبد الرحيم القصير قال: قلت له: المؤمن يزور أهله؟ قال:

«نعم، يستأذن ربه فيأذن له فيبعث معه ملكين فيأتيهم في بعض صور الطير يقع في داره ينظر إليهم ويسمع كلامهم»[٢].

عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: يزور المؤمن أهله؟ فقال:

«نعم.

فقلت: في كم؟ قال:

على قدر فضائلهم، منهم من يزور في كل يوم؛ ومنهم من يزور في كل يومين، ومنهم من يزور في كل ثلاثة أيام.

قال: ثم رأيت في مجرى كلامه يقول:

أدناهم منزلة يزور كل جمعة.

قال: قلت في أي ساعة؟ قال:

عند زوال الشمس ومثل ذلك.

قال: قلت في أي صورة؟ قال:

في صورة العصفور وأصغر من ذلك، ويبعث الله عز وجل معه ملكاً فيريه ما يسره ويستر عنه ما يكره، فيرى ما يسره ويرجع إلى قرة عين»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي: ج٣، ص٢٣١. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص١١٤ ـ ١١٥.

تذكير

لا أظن أن القارئ الكريم قد يغفل عن تكليفه بعدما قرأ هذه الروايات إلا أن الذكرى تنفع المؤمنين.

فأقول:

١ـ ليجتهد المؤمن في إدخال السرور على روح أمواته من خلال طاعته لله تعالى وتلبسه بالإيمان والعمل الصالح في آناء الليل وأطراف النهار وليكون سببا في إدخال السرور على المؤمن وينال بذلك ثواب من أدخل السرور على المؤمنين.

٢ـ لا ينسى المؤمن أن يتحف أمواته بشيء من الثواب ليرجع الميت إلى قبره بهديته فرحاً كما ورد في الرواية الشريفة:

جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما تصدرت لميت فيأخذها ملك في طبق من نور ساطع ضوؤها يبلغ سبع سماوات ثم يقوم على شفير الخندق (القبر) فنادي:

السلام عليكم يا أهل القبور، أهلكم أهدوا إليكم بهذه الهدية فيأخذها ويدخل بها في قبره فتوسع عليه مضاجعة»[1].

كما روي بسند صحيح عن الإمام الصادق عليه السلام:

(قال الراوي: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: يصلّى عن الميت؟ فقال:

«نعم حتى أنه ليكون في ضيق فيوسع الله عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له: خفف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك».

قال: فقلت له: فأشركُ بين رجلين في ركعتين؟ قال:

«نعم...».

---

(١) منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٧٣.

ثم قال عليه السلام:

«إن الميت ليفرح بالترحم عليه والإستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدى إليه»[1].

٣ـ لا يتوهم المؤمن بأن الثواب الذي يهديه إلى الميت هو ناشئ عن إطعام الطعام أو الصدقة المادية فقط، وإنما هناك أنواع كثيرة من الثواب تأتي من جراء أعمال سهلة لا مؤنة فيها كإهداء ثواب (الصلوات على محمد وآله) وزيارة الأئمة المعصومين عليهم السلام أو تلاوة القرآن أو الكلمة الطيبة مع الناس بل كل أعمال البر والخير والمعروف يمكن إهداء ثوابها إلى الموتى.

٤ـ ركعتان خفيفتان أحب إلى الميت من البكاء والنوح عليه كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقبر دفن فيه بالأمس إنسان وأهله يبكون فقال:

«ركعتان خفيفتان مما تحتقرون أحب إلى صاحب هذا القبر من دنياكم كلها»[2].

السؤال: ما هي المعاصي التي توجب عذاب القبر؟

الجواب:

ذكرت الروايات مجموعة من المعاصي توجب عذاب القبر للمؤمن، كالنميمة وسوء الخلق مع الأهل وعدم التنزه من البول.... الخ، وهذا ما تدلنا عليه الروايات الآتية:

(١) منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٧٤؛ من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٨٣، وفيه بدل ثم قال: فقال.... .

(٢) تنبيه الخواطر: ج٢، ص٢٢٥.

١ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه»[١].

٢ـ عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«عذاب القبر يكون من النميمة والبول وعزب الرجل عن أهله»[٢].

السؤال: ما هي الأعمال التي تدفع هول منكر ونكير؟

الجواب: جاء في الروايات أن الصورة التي يأتي فيها الملكان لصورة مهولة مرعبة ترتعد منها الفرائص وتخرس الألسن وتشبح العيون خائفة ويطير لها اللب، وهذا ما يصفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«إذا أقبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير يقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله، حتى يبعثه الله من مضجعة ذلك، وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري!

فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيه معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[٣].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٧٥. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص١٠٨.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٧٢، ص٢٦٥، ح١٠.

(٣) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٦، ص٢٧٦. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص١١٠.

«فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجران أشعارهما ويخدان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول:

الله ربي وديني الإسلام، ونبيي محمد (صلى الله عليه وآله)، فيقولان له:

ثبتك الله فيما تحب وترضى، وهو قول الله عز وجل:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾(١).

ثم يفسحان له في قبره مد بصره ثم يفتحان له بابا إلى الجنة، ثم يقولان له: نم قرير العين، نوم الشاب الناعم، فإن الله عز وجل يقول:

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾(٢).

قال : وإن كان لربه عدوا فإنه يأتيه أقبح من خلق الله زيا ورؤيا وأنتنه ريحا فيقول له: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم وإنه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أدخل القبر أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثم يقولان له: من ربك وما دينك؟ ومن نبيك؟،فيقول: لا أدري فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربان يافوخه بمرزبة معهما ضربة ما خلق الله عز وجل من دابة إلا وتذعر لها ما خلا الثقلين ثم يفتحان له بابا إلى النار.

ثم يقولان له: نم بشر حال فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزج حتى أن دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره وإنه ليتمنى قيام الساعة فيما هو فيه من الشر»(٣).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٤.

(٣) الكافي للشيخ الكليني: ج٣، ص٢٣٣، ٤٧٠٨ـ١. تسلية الفؤاد، عبد الله شبر: ص٩٠.

فبعد أن اطلعت على وصف الملكين وهولهما لابد من الاطلاع على الأعمال التي تنجي منهما ومن سؤالهما وهي كما يلي:

١ـ أن يلقن الميت بعد دفنه من قبل أحد أقربائه الشهادتين والعقائد الحقة والولاية لأهل البيت عليهم السلام والاعتراف بإمامتهم والإقرار بالغيب.

٢ـ أداء الصلاة والزكاة والصبر بأنواعه تدافع عن صاحبها أشد الدفاع مع منكر ونكير.

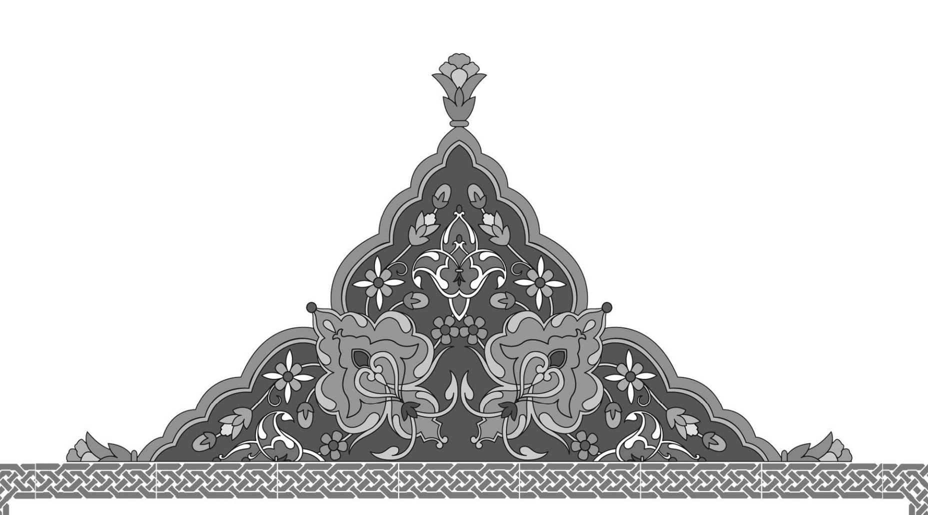
٣ـ صيام شهر شعبان بل من صام تسعة أيام منه عطف عليه منكر ونكير.

٤ـ إحياء ليلة الثلاث والعشرين من شهر رمضان بالعبادة والصلاة مئة ركعة فيها.

٥ـ الدفن في تربة النجف[1].

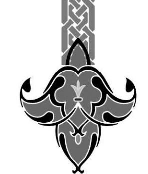
---

(١) منازل الآخرة للشيخ عباس القمي: ص٧٠ ـ ٧٥.



الخطبة الثالثة

في مكارم الأخلاق





نص الخطبة

«يا أيُّهَا النّاسُ، نافِسُوا في الْمَكارِمِ، وَسارِعُوا في المَغانِمِ، وَلا تَحْتَسِبُوا بِمَعْرُوفٍ لَمْ تُعَجِّلوا، وَاكْسِبُوا الْحَمْدَ بِالنُّجْحِ، وَلا تَكْتَسِبُوا بِالْمَطَلِ ذمّاً: فَمَهْما يَكُنْ لأحَدٍ عِنْدَ صَنيعَة[1] لهُ رَأى أنَّهُ لا يَقُومُ بِشُكرِها فَاللهُ لَهُ بِمُكافأتِهِ، فَإنَّهُ أجزَلُ عَطاءً وَأعْظَمُ أجْراً.

وَاعْلَمُوا أنَّ حَوائِجَ النّاسِ إلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ، فَلا تَملّوا النِّعَمَ فَتَحُورَ نِقَماً.

وَاعْلَمُوا أنَّ المَعرُوفَ مُكْسِبٌ حَمْداً، وَمُعقِبٌ أجْراً، فَلَوْ رَأَيْتُمْ الْمَعْرُوفَ رَجُلاً رَأيْتُمُوهُ حَسَناً جَمِيلاً يَسُرُّ النّاظِرينَ، وَلَوْ رَأيْتُمُ اللَّؤمَ رَأيْتُمُوهُ سَمِجاً مُشَوَّهاً تَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وتُغَضُّ دُونَهُ الأبْصارُ.

أيُّها النّاسُ مَنْ جادَ سادَ، وَمَنْ بَخِلَ رُذِلَ، وَإنَّ أجْوَدَ النّاسِ مَنْ أعْطى مَنْ لاَ يَرْجُوهُ، وَإنَّ أعْفَ النّاسِ مَنْ عَفا عَنْ قُدْرَةٍ، وَإنَّ أوْصَلَ النّاسِ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَالأصُولُ عَلى مَغارِسِها بِفُروعِها تَسْمُو، فَمَنْ تَعَجَّلَ لأخيهِ خَيْراً وَجَدَهُ إذا قَدِمَ عَلَيْهِ غَداً، وَمَنْ أرادَ الله تَبارَكَ وَتَعالى

---

(١) المطل: تأجيل موعد الوفاء بحقه مرة بعد أخرى. والصنيعة: كل ما عمل من خير أو إحسان.

بِالصَّنيعَةِ إلى أخيهِ كافَأه بِها في وَقْتِ حاجَتِهِ، وَصَرَفَ عَنْهُ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا ما هُوَ أكْثَرُ مِنْهُ، وَمَنْ نَفَّسَ كُرْبَةَ مُؤْمِنٍ فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرَبَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ أحسَنَ أحْسَنَ اللهُ إلَيْهِ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنينَ».

المعنى العام

(يا أيُّهَا النّاسُ، نافِسُوا في الْمَكارِمِ، وَسارِعُوا في المَغانِمِ، وَلا تَحْتَسِبُوا بِمَعْرُوفٍ لَمْ تُعَجِّلوا، وَاكْسِبُوا الْحَمْدَ بِالنُّجْحِ، وَلا تَكْتَسِبُوا بِالْمَطَلِ ذمّاً: فَمَهْما يَكُنْ لأحَدٍ عِنْدَ صَنيعَةٍ لهُ رَأى أنَّهُ لا يَقُومُ بِشُكْرِها فَاللهُ لَهُ بِمُكافأتِهِ، فَإنَّهُ أجزَلُ عَطاءً وَأعْظَمُ أجْراً.).

أيها الناس تسابقوا وتباروا في فعل الخيرات، وعجلوا في تحصيل الربح والنفع، ولا تكشفوا بمعروف لم تسارعوا في فعله، واطلبوا واربحوا الثناء الجميل بالنجاح والفوز، ولا تطلبوا بتأخير فعل المعروف الملامة والإعاية، وإذا عمل أحد العباد خيرا ومعروفا لأخيه دون أن ينال شكرا منه، فالله تعالى هو ا لذي يجزيه ويشكره، فهو كثير وعظيم النوال والثواب لمن شاء.

(وَاعْلَمُوا أنَّ حَوائِجَ النّاسِ إلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ، فَلا تَمَلّوا النِّعَمَ فَتَحُورَ نِقَماً).

أي عليكم أن تعرفوا وتتيقنوا أن طلبات وضروريات الناس وافتقارهم إليكم من منن الله وفضله عليكم، فلا تسأموا ولا تضجروا هذه النعم فترجع بلاء وعقوبة.

(وَاعْلَمُوا أنَّ المَعرُوفَ مُكْسِبُ حَمْداً، وَمُعقِبُ أجْراً، فَلَوْ رَأيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلاً رَأيْتُمُوهُ حَسَناً جَميلاً يَسُرُّ النّاظِرينَ، وَلَوْ رَأيْتُمُ اللَّوْمَ رَأيْتُمُوهُ سَمِجاً مُشَوَّهاً تَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وتُغَضُّ دُونَهُ الأبْصارُ).

أدركوا وتيقنوا أن العمل الحسن يورث الثناء والشكر، وتارك ثوابا، فلو تمثل عمل الخير بهيئة رجل لكان رجلا ذا هيئة بهية تدخل الفرح على من يراها، ولو شاهدتم الشمة والدناء لشاهدتم رجلا قبيحا غير سوي تعرض عنه القلوب وتتركه، وتكف عنه العيون.

(أيُّها النّاسُ مَنْ جادَ سادَ، وَمَنْ بَخِلَ رُذِلَ، وَإِنَّ أجْوَدَ النّاسِ مَنْ أعْطى مَنْ لاَ يَرْجُوهُ، وَإِنَّ أعْفَ النّاسِ مَنْ عَفا عَنْ قُدْرَةٍ، وَإِنَّ أوْصَلَ النّاسِ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ، وَالأصُولُ عَلى مَغارِسِها بِفُروعِها تَسْمُو، فَمَنْ تَعَجَّلَ لأخيه خَيْراً وَجَدَهُ إذا قَدِمَ عَلَيْهِ غَداً، وَمَنْ أرادَ الله تَبارَكَ وَتَعالى بِالصَّنيعَةِ إلى أخيهِ كافَأه بِها في وَقْتِ حاجَتِهِ، وَصَرَفَ عَنْهُ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا ما هُوَ أكْثَرُ مِنْهُ، وَمَنْ نَفَّسَ كُرْبَةَ مُؤْمِنٍ فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرَبَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ أحسَنَ أحْسَنَ اللهُ إلَيْهِ، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ).

أيها الناس من اختار أو أتى بالحسن من القول والعمل صار من أهل الشرف والمجد، ومن شح وقتر صار رديئا غير فاضل، وإن أكرم الناس وأسخاهم من بذل إلى من لا ينتظر منه جزاءً ولا شكورا، وإن من أكثر الناس مسامحة وصفحا من صفح عن قدرة واستطاعة، وإن من أرحم الناس وأعطفهم من ترحم وتعطف على قاطع الرحم وعاقها وهاجرها، والمنابت حسب الأرض التي غرست فيها فهي ترتفع وتعلو إذا كان المغرس طيبا، فمن بادر لصنع المعروف وأسداه إلى أخيه يجد أن هذا الصنيع محفوظ له عند أخيه، ومن كان صنيعه لوجه الله تعالى سيدخرها له عند حاجته إليها، ويرد عنه من آلام الدنيا وهمومها، ومن لطف أو فرج مشقة أو حزناً أو همّاً عن أخيه المؤمن وسع الله عليه كل شدة في الدنيا والآخرة، ومن فعل معروفا يجزيه الله تعالى والله يحب أهل الإحسان.

بحث أخلاقي

صنع المعروف

لابد للتعايش الإنساني الناجح من طريقة راقية مؤطرة بإرشاد الشريعة وتعاليمها ومزيّنة بجمال العرف وحسنه، ومليئة بأريحية المجتمع وتآلفه، ولا شك في أن الجامع لكل هذه الشروط هو المعروف الذي يمثل الجمال والعدل والإحسان والحق والإيثار، فلذا نجد الآيات الشريفة تؤكد على هذا المعنى الشريف في كل مفردات الحياة، بل الظاهر من النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة أن الحياة معروف والمعروف هو الحياة الحقيقية ـ والتي ـ بخلافها لا يكون الإنسان إنسانا، لا نقصد بالمعروف وهو الإحسان فقط دون المعاني الأخرى التي سبق ذكرها بل هو المعروف الذي جمع كل المعاني العالية، ولكي نطمئن من صحة ما تقدم لابد أن نقف على المعنى اللغوي والاصطلاحي للمعروف.

المعروف في اللغة: هو الخير، الإحسان[١]، المعروف: اسم لكل فعل يعرف حسنه بالعقل أو الشرع: وهو خلاف المنكر، هو الصنيعة التي يسديها المرء إلى غيره[٢].

المعروف في الاصطلاح: هو كل خير وكل فعل حسن عقلا وشرعا.

تناولت الآيات الكريمة هذه الكلمة في مواضع عديدة تشير من خلالها إلى القول الطيب والفعل الحسن كما في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣].

---

(١) المنجد النجدي: ص

(٢) المعجم الوسيط: ص٥٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

وقال تعالى:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٢].

وفي قوله عزّ وجل:

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾[٣].

وقال الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾[٤].

وقال عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦.

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1].

وقال الباري عزّ وجل في سورة الممتحنة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[3].

وحثت الأحاديث الشريفة على فعل المعروف من خلال وصفها له بصفات عديدة، فتارة يصفه الحديث أنه عين السيادة كما في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«المَعروفُ سِيادةٌ»[4].

وأخرى هو الحسب كما في قوله عليه السلام:

«المَعروفُ حَسَبٌ»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٤) غرر الحكم: ص٣٢. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٨، ح١٢٥٩٠.

(٥) غرر الحكم: ص٨٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٨، ح١٢٥٩٢.

وفي ثالثة هو وسيلة لتحصيل المدح والثناء في الدنيا والثواب والجزاء الحسن في الآخرة وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام بقوله:

«اعلَموا أنَّ المَعروفَ مُكسِبٌ حَمداً، ومُعقِبُ أجراً، فلَو رَأيْتُمُ المَعروفَ رَجُلاً لَرَأيتُموهُ حَسَناً جَميلاً يَسُرُّ النّاظِرينَ ويَفوقُ العالَمينَ، ولَو رَأيتُمُ اللُّؤمَ رَأيتُموهُ سَمِجاً قَبيحاً مُشَوَّهاً تَنفِرُ مِنهُ القُلوبُ وتُغَضُّ دُونَهُ الأبصارُ»[1].

بل أن الإمام الصادق عليه السلام لا يرى شيئا أفضل من المعروف إلا الأجر الإلهي بقوله:

«رَأيتُ المَعروفَ كَاسمِهِ، ولَيسَ شَيءٌ أفضَلَ مِنَ المَعروفِ إلاّ ثَوابُهُ وذلكَ يُرادُ مِنهُ»[2].

ولأهمية المعروف للفرد والمجتمع معا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يدعونا إلى صنعه ولو ببذل أقصى الجهود بقوله:

«اصطَنِعوا المَعروفَ بِما قَدَرتُم عَلَى اصطِناعِه»[3].

ويقول الإمام الجواد عليه السلام بأن الذين يصنعون المعروف هم أول من يستفيد من هذا المعروف بقوله:

«أهلُ المَعروفِ إلَى اصطِناعِه أحوَجُ مِن أهلِ الحاجَةِ إلَيهِ؛ لأنَّ لَهُم أجرَهُ وفَخرَهُ، فمَهما اصطَنَعَ الرَّجُلُ مِن مَعروفٍ فإنَّما يَبدأ فيهِ بِنَفسِهِ، فلا يَطلُبَنَّ شُكرَ ما صَنَعَ إلى نَفسِهِ مِن غَيرِهِ»[4].

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣٤٣، ح١٤٢٤٢. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٨، ح١٢٥٩٥.

(٢) الكافي: ج٤، ص٢٦، ح٣. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٩، ح١٢٥٩٦.

(٣) الخصال: ص٦١٧، ح١٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٩، ح١٢٦٠٠.

(٤) كشف الغمّة: ج٣، ص١٣٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٩، ح١٢٦٠٣.

لمن يبذل المعروف؟

بعد أن عرفنا أن المعروف جميل بذاته ينبغي أن نعلم أن بذله أجمل لما فيه من تجلي صور الرحمة والحنو والرأفة والمروءة، فلذا جاءت الروايات الشريفة تحث على بذله إلى البر والفاجر من الناس، بل وصلت بحثها على بذله إلى الحيوانات.

إن فعل المعروف خير، وكل ما هو خير لا يصح البخل به على إنسان دون آخر، فلذا صارت فضيلته فوق كل فضيلة وجزاؤه فوق كل جزاء، وهذا ما أشار إليه مولى الموحدين بقوله عليه السلام:

«ابذُلْ مَعروفَكَ لِلنّاسِ كافَّةً؛ فإنَّ فَضيلَةَ فِعلِ المَعروفِ لا يَعدِلُها عِندَ اللهِ سُبحانَهُ شيءٌ»[1].

ولكي نطلع بدقة على ما حثت عليه الروايات الشريفة نذكرها على النحو الآتي:

١ـ حث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين على فعل المعروف إلى العالمين دون أن يميزوا بين من يستحق ومن لا يستحق بقوله:

«رَاسُ العَقلِ بَعدَ الدِّينِ التَّوَدُّدُ إلَى النّاسِ، واصطِناعُ الخَيرِ إلى كُلِّ بَرٍّ وفاجِرٍ»[2].

وعند تأمل هذا الحديث الشريف نستنتج منه ما يلي:

ألف: إن المعروف لا يقتصر على بذل المال أو ما هو مادي فقط بل يتعداه إلى الخلق الحسن والقول الطيب وهذا ما أشار إليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس».

باء: بما أن الخير فعل حسن لا ضرر فيه يحتاجه كل مخلوق في حياته، صار بذله

---

(١) غرر الحكم: ٢٤٧٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٤٠١، ح٤٤. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦٢٤.

جميلاً إلى الإنسان الصالح والطالح على السواء كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر».

ولكي لا يقع المؤمن في التباس من أمره فيقول كيف أصنع الخير للفاجر وهو فاجر عاصي لله تعالى؟

فأقول: ورد من جهة أخرى، إذا علمت بأن معروفك سيكون عوناً على الإثم ويستعين به الفاجر على معصية الله تعالى لا يصح لك أن تعينه على ذلك لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1].

٢ـ حث أهل بيت العصمة عليهم السلام على بذل المعروف إلى الحيوانات أيضا، مما يدل على سعة رحمة الله تعالى، ورعايته لمخلوقاته فلذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمن يستعمله على الصدقات:

«ثُمَّ احدُرْ[2] إلَينا ما اجتَمَعَ عِندَكَ نُصَيِّرْهُ حَيثُ أمَرَ اللهُ بِهِ فإذا أخَذَها أمينُكَ فأوعِزْ إلَيهِ ألاّ يَحولَ بَيْنَ ناقَةٍ وبَينَ فَصيلِها[3]، ولا يَمْصُرَ[4] لَبَنَها فيَضُرَّ ذلكَ بِوَلَدِها، ولا يجهَدَنَّها رُكوباً، ولْيَعْدِلِ بَينَ صَواحِباتِها في ذلكَ وبَينَها، ولْيُرَفِّهْ عَلَى اللاغِبِ[5]

(١) سورة المائدة الآية: ٢.

(٢) أي سُق إلينا سريعاً.

(٣) فصيل الناقة: ولدها وهو رضيع.

(٤) مَصْر اللبن: حلب ما في الضرع جمعيه.

(٥) أي ليُريح ما ألغِب أي أعياه التعب.

ولْيَستَأْنِ[١] بالنَّقِبِ[٢] والظّالِعِ[٣]، ولْيُورِدْها ما تَمُرُّ بِهِ مِنَ الغُدُرِ[٤]، ولا يَعدِلْ بِها عَن نَبتِ الأرضِ إلى جَوادِّ الطُرُقِ[٥]، ولْيُرَوِّحْها في السّاعاتِ، ولْيُمهِلْها عِندَ النِّطافِ[٦] والأعشابِ، حتّى تَأتيَنا بإذنِ اللهِ بُدَّناً[٧] مُنْقِياتٍ[٨] غَيرَ مُتعَباتٍ ولا مَجْهُودَاتٍ[٩]»[١٠].

إشكال وتوجيه

سبق أن بينا أن الأحاديث الشريفة السابقة تحث المؤمن على فعل المعروف لجميع الناس برهم وفاجرهم، وسواء كان من أهل المعروف أو لم يكن كذلك كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«اصطَنِعِ الخَيرَ إلى مَن هُوَ أهلُهُ، وإلى مَن هُوَ غَيرُ أهلِهِ، فإن لَم تُصِبْ مَن هُوَ أهلُهُ فأنتَ أهلُهُ»[١١].

إلا أننا نجد في مكان آخر أحاديث تحت عنوان ترك بذل المعروف إلى من لا يستحقه وهي كما يلي:

١ـ قال الإمام علي عليه السلام:

---

(١) ليستأنِ: أي يَرفق، من الأناة بمعنى الرِّفق.

(٢) النَّقِب ـ بفتح فكسر ـ ما نَقِبَ خفّه ـ كفَرِح ـ: أي تخرّق.

(٣) ظَلَعَ البعيرُ: غمز في مشيته.

(٤) الغُدُر ـ جمع غدير ـ: ما غادره السيل من المياه.

(٥) أي الطرق التي لا مرعى فيها.

(٦) النِّطاف ـ جمع نُطفة ـ: المياه القليلة، أي يجعل لها مُهلة لتشرب وتأكل.

(٧) البُدَّن ـ بضم الباء وتشديد الدال ـ: السمينة.

(٨) المُنقِيات: اسم فاعل من أنقت الإبل إذا سَمِنَت.

(٩) مجهودات: بلغ منها الجَهد والعناء مبلغاً عظيماً.

(١٠) نهج البلاغة: الكتاب ٢٥. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٣ ـ ٢٥٦٤، ح١٢٦٣٢.

(١١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٣٥، ص٧٦. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦٢٦.

«لا تَصلُحُ الصَّنيعَةُ إلاّ عِندَ ذي حَسَبٍ أو دِينٍ»[(١)].

٢ـ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَيسَ لِواضِعِ المَعروفِ في غَيرِ حَقِّهِ وعِندَ غَيرِ أهلِهِ مِنَ الحَظِّ فيما أتى إلاّ مَحمَدَةُ اللِّئامِ، وثَناءُ الأشرار. ومَقالَةُ الجُهّالِ ما دامَ مَنعِماً عَلَيهِم: ما أجوَدَ يَدَهُ! وهوَ عَن ذاتِ اللهِ بَخيلٌ»[(٢)].

٣ـ وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«أوحَى اللهُ تَعالى إلى موسى عليه السلام: كما تَدينُ تُدانُ، وكما تَعمَلُ كذلك تُجزى، مَن يَصنَعِ المَعروفَ إلَى أمرِئِ السَّوءِ يُجزى شَرّاً»[(٣)].

٤ـ ورد في الأمالي للمفيد عن كَعب الأحبار:

مَن صَنَعَ مَعروفاً إلى أحمَقَ فَهِيَ خَطيئَةٌ تُكتَبُ عَلَيهِ[(٤)].

٥ـ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«ظَلَمَ المَعروفَ مَن وَضَعَهُ في غَيرِ أهلِهِ»[(٥)].

٦ـ عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

«مَن أسدى مَعروفاً إلى غَيرِ أهلِهِ ظَلَمَ مَعروفَهُ»[(٦)].

وبعد تأمل هذين النوعين من الأحاديث الشريفة نلمس تناقضا ظاهراً بينهما،

---

(١) الخصال: ص٦٢٠، ح١٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٩، ص٧٤. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٦، ح١٢٦٤٣.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٤١٢، ح٢٦. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٦، ح١٢٦٤٤.

(٤) أمالي المفيد: ١٣٧، ح٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٦، ح١٢٦٤٥.

(٥) غرر الحكم: ٦٠٦٣. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٦، ح١٢٦٥٠.

(٦) غرر الحكم: ٨٥٤٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٦، ح١٢٦٥١.

ولكي لا يقع القارئ الكريم في التباس بين الحث على بذل المعروف وبين النهي عن ذلك لابد من توجيه الأحاديث التي حثت على ترك بذل المعروف وتبدأ كما يلي:

ألف: لا تنهى الأحاديث عن فعل المعروف إلى غير أهله وإنما ترشد إلى ذلك من باب النهي الإرشادي.

باء: تريد الأحاديث أن تبيّن أن الباذل للمعروف إلى غير أهله لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكورا، ولذا فليكن بذله للمعروف لله تعالى ولجمال وحسن البذل.

جيم: تشير الأحاديث إلى ترك بذل المعروف لمن كان مجربا بنكران الجميل أو من لا يشكر المعروف بدليل القول الذي ورد في الحديث أعلاه وهو:

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَيسَ لِواضِعِ المَعروفِ في غَيرِ حَقِّهِ وعِندَ غَيرِ أهلِهِ مِنَ الحَظِّ فيما أتى إلاّ مَحمَدَةُ اللّئامِ، وثَناءُ الأشرار. ومَقالَةُ الجُهّالِ ما دامَ مَنعِماً عَلَيهِم: ما أجوَدَ يَدَهُ! وهوَ عَن ذاتِ اللهِ بَخيلٌ».

دال: وردت أحاديث تتضمن إرشادات تنهى عن صنف اتصف بالحمق دون غيره من الصفات.

خلاصة القول:

١ـ إن بذل المعروف لأهله أي لمن يفعل المعروف من باب رد الجميل، ولغير أهله الذين يحبون فعل المعروف ولكن لا يستطيعون ذلك.

٢ـ إذا فعلت المعروف لا تنتظر من أحد جزاءً ولا شكورا.

٣ـ إن بعض أنواع المعروف كبذل الحكمة لا تضعها إلا عند أهلها، وأمّا مايصدر منك من خير دون أن يترتب عليه ضرر فابذله لمن شأت.

آثار فعل المعروف

وردت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بكثرة مبينة الآثار الطيبة لفعل المعروف سواء كان ذلك في الحياة الدنيا أو في الآخرة ولكي يتضح الموضوع أكثر نبوّب هذه الآثار كالآتي:

ـ الآثار في الدنيا ـ

١ـ لكي تنال الجاه وتحظى بالتقدم على الغير وتنال الطاعة والاحترام لابد لك من فعل المعروف، وهذا ما أكده الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«المعروف سيادة».

وقول الإمام الصادق عليه السلام:

«عَجِبتُ مِمَّن يَشتَري المَماليكَ بِمالِهِ، كَيفَ لا يَشتَري الأحرارَ بِمَعروفِه فَيملِكَهُم»[1].

٢ـ ضمن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لفاعل المعروف ربحا ونماءً نتيجة بذله للمعروف بقوله عليه السلام:

«إنما المعروف زرع من أنمى الزرع، وكنز من أفضل الكنوز»[2].

٣ـ بذل المعروف يحافظ على النعم ويدفع عنها خطر السلب فيكون مصداقاً للدعاء الشريف: (اللهم أعوذ بك من الذنوب التي تسلب النعم).

وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«المعروف زكاة النعم، وما أديت زكاته فهو مأمون السلب»[3].

---

(١) تحف العقول: ص٢٠٤. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٩، ح١٢٦٠٢.

(٢) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي: ج١٤، ص٤٧٦، ح٣١٤٤(١٥).

(٣) ميزان الحكمة: ج٣، ص١٩٣١.

٤ـ بذل المعروف يؤدي إلى أن ينال فاعله شكراً ومدحاً من أناس لم يصبهم هذا المعروف، ولكن لحبهم وإنصافهم يشكرون الباذل للمعروف، وهذا ما نستشفعه من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فإنه قد يشكرك عليه من يسمع منك فيه»(١).

٥ـ فعل المعروف يرد على صاحبه بكل ما هو جميل فلذا ورد عن الإمام علي عليه السلام:

«مَن عامَلَ النّاسَ بِالجَميلِ كافَؤوهُ بِهِ»(٢).

٦ـ يفضل باذل المعروف بكثرة على غيره ممن لم يفعل المعروف، ويقر له جميع الناس بالأفضلية كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَن كَثُرَ جَميلُهُ أجمَعَ النّاسُ عَلى تَفضيلِهِ»(٣).

٧ـ من أراد أن ينال قاعدة جماهيرية، وتتسع سمعته الحسنة فما عليه إلا أن يكثر من بذل المعروف مع جميع الناس ولا يقتصر فعله على فئة دون أخرى أو شخص دون آخر وهذا لعله المراد من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَن كَثُرَت عَوارِفُهُ كَثُرَت مَعارِفُهُ»(٤).

الآثار في الآخرة

١ ـ إذا بذل المعروف للمؤمن ينقذ باذله من الدخول إلى نار جهنم كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام:

---

(١) ميزان الحكمة: ج٣، ص١٩٣٠.

(٢) غرر الحكم: ٨٧١٦. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦١٩.

(٣) غرر الحكم: ٨٤٠٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦٢٠.

(٤) غرر الحكم: ٨١٦٤. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٢، ح١٢٦٢١.

«إنَّ المُؤمِنَ مِنكُم يَومَ القِيامَةِ لَيُمَرُّ عَلَيهِ بِالرَّجُلِ وقَد اُمِرَ بِهِ إلَى النّارِ، فَيَقولُ لَهُ: يا فُلانُ أغِثْني، فقَد كُنتُ أصنَعُ إلَيكَ المَعروفَ في الدّنيا، فَيَقولُ المُؤمِنُ لِلمَلَكِ: خَلِّ سَبيلَهُ فيَأمُرُ اللهُ المَلَكَ أن أجِزْ قَولَ المُؤمِنِ، فيُخَلّي المَلَكُ سَبيلَهُ»[1].

٢ـ أمرنا الله سبحانه بالاستعداد للموت والتزود بالبضاعة الحسنة للمعاد يوم لا ينفع مال ولا بنون، فلذا لابد من صنع المعروف لخلق الله تعالى لكي نذهب بزاد نافع وهذا ما يشير إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«عَلَيكُم بِصَنائعِ المَعروفِ؛ فإنَّها نِعمَ الزّادِ إلَى المَعادِ»[2].

٣ـ وعد الله تعالى المؤمنين العاملين بالجنة، وخلق الله تعالى لهذه الجنة أبواباً وجعل بعضاً من هذه الأبواب باسم بعض المؤمنين كباب الريان للصائمين وباب المعروف لأهل المعروف كما ورد ذلك في الحديث الشريف عن أبي هاشم: (سَمِعت أبا محمد يقول:

«إنَّ في الجَنَّةِ باباً يُقالُ لَهُ: المَعروفُ، لا يَدخُلُهُ إلاّ أهلُ المَعروفِ.

فحَمِدتُ اللهَ تَعالى في نَفسي وفَرِحتُ مِمّا أتَكَلَّفُهُ مَن حَوائِجِ النّاسِ، فَنَظَرَ إليَّ أبو مُحَمَّدٍ عليه السلام فقالَ:

نَعَم قَد عَمِلت ما أنتَ عَلَيهِ؛ وإنَّ أهلَ المَعروفِ في الدّنيا أهلُ المَعروفِ في الآخِرَةِ، جَعَلَكَ اللهُ مِنهُم يا أبا هاشمٍ ورَحِمَكَ»[3])[4].

٤ـ الباذل للمعروف ولو بقي الماء ورعاية الخلق لاسيما العجماوات (الحيوانات) سيجعله الله تعالى تحت ظله الذي لا يستغني عنه أحد في يوم شديد لا ظل فيه كما ورد

(١) المحاسن: ج١، ص٢٩٤، ح٥٨٩. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٠، ح١٢٦٠٩.

(٢) غرر الحكم: ٦١٦٦. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٠، ح١٢٦١٠.

(٣) المناقب لابن شهر آشوب: ج٤، ص٤٣٢.

(٤) ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦١، ح١٢٦١٧.

في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إنَّ اللهَ تبارَكَ وتَعالى يُحِبُّ إبرادَ الكَبِدِ الحَرّى، ومَن سَقى كَبداً حَرّى مِن بَهيمَةٍ أو غَيرِها أظَلَّهُ اللهُ يَومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ»[١].

٥ـ لا يحتاج أهل المعروف إلى حسناتهم يوم القيامة لاستغنائهم عنها بفضل الله تعالى ومنّه، وسيتبرعون بها إلى من هو بحاجة إليها كما جاء ذلك في حديث الإمام الصادق عليه السلام:

«أهلُ المَعروفِ فِي الدّنيا هُم أهلُ المَعروفِ فِي الآخِرَةِ؛ لأِنَّهُم فِي الآخِرَةِ تَرجَحُ لَهُمُ الحَسَناتُ، فَيَجودونَ بِها عَلى أهلِ المَعاصي»[٢].

فوائد

١ـ لا يمنعك من فعل المعروف وبذله إلى خلق الله تعالى الناكرون والجاحدون فإنك تبذله لله تعالى وهو الذي يشكرك عليه وهذا ما صرح به أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«فَلا يُزَهِّدَنَّكَ فِي المَعروفِ كُفرُ مَن كَفَرَهُ، ولا جُحودُ مَن جَحَدَهُ؛ فإنَّهُ قَد يَشكُرُكَ عَلَيهِ مَن يَسمَعُ مِنكَ فيهِ»[٣].

٢ـ أنت لمعروفك أحوج من أهل الحاجة إليه كما فيه ثواب كبير وذكر دائم وسمعة حسنة.

٣ـ لا تتردد في أن تكون وسيلة لإيصال الخير إلى الآخرين وإن لم تكن أنت باذله، فإن لك كأجر الباذل كما أكد ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

---

(١) الكافي: ج٨، ص٥٨، ح٦. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٣، ح١٢٦٣١.

(٢) أمالي الطوسي: ص٣٠٤، ح٦١٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦١، ح١٢٦١٥.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣٤٠، ح١٤٢٢٩. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٥٩، ح١٢٥٩٧.

«لو جَرَى المَعروفُ عَلى ثَمانينَ كَفّاً لأجِروا كُلُّهُم فيهِ، مِن غَيرِ أن يُنقَصَ صاحِبُهُ مِن أجرِهِ شَيئاً»(١).

٤ـ لا تعطِ الخير ناقصا ولا تفعل المعروف إلاّ بتمامه إذا كنت قادراً على ذلك وهذا ما أشار إليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«استتمام المعروف أفضل من ابتدائه»(٢).

وما أرشدنا إليه وصيه الأول أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«جمال المعروف إتمامه»(٣).

٥ـ إذا وفقت لبذل المعروف عليك الالتزام بخواصه الثلاث التي تجعله معروفا كاملاً نافعاً في الدنيا والآخرة، فلابد حينئذ من استقلاله (تصغيره)، وكتمه وسريته، والإسراع به إلى من هو بحاجة إليه وكن لقول أمامك الصادق عليه السلام مطبقا إذ يقول:

«رأيتُ المَعروفَ لا يَصلُحُ إلاّ بِثَلاثِ خِصالٍ: تَصغيرِهِ، وتَستيرِهِ، وتَعجيلِهِ؛ فإنَّكَ إذا صَغَّرتَهُ عَظَّمتَهُ عِندَ مَن تَصنَعُهُ إلَيهِ، وإذا سَتَرتَهُ تَمَّمتَهُ، وإذا عَجَّلتَهُ هَنَّأتَهُ، وإن كانَ غَيرَ ذلكَ سَخَّفتَهُ ونَكَّدتَهُ»(٤).

٦ ـ أن تأتي متأخراً خيرٌ من أن لا تأتي، وأن تبذل المعروف وإن كان قليلا فهو نافع لاسيما في وقت الحاجة إليه فلذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تُحَقِّرَنَّ شَيئاً مِنَ المَعروفِ، ولَو أن تَلقى أخاكَ ووَجهُكَ مَبسوطٌ إلَيهِ»(٥).

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٨، ح٢. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٥، ح١٢٦٣٨.

(٢) ميزان الحكمة: ج٣، ص١٩٣٦، ح٢٦٧٩.

(٣) ميزان الحكمة: ج٣، ص١٩٣٦، ح٢٦٧٩.

(٤) الكافي: ج٤، ص٣٠، ح١. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٧، ح١٢٦٦٢.

(٥) كنز الفوائد للكراجكي: ج١، ص٢١٢. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٨، ح١٢٦٦٥.

٧ـ إذا أردت أن تعلم أنك مقبولا عند الله تعالى وأن معروفك سيجلب لك الثواب الجزيل، أنظر إلى موضعه فإذا أصاب معروفك مواضعه فهو لا شك من الأعمال المقبولة عند الله تعالى وهذا ما أراد الإمام الصادق عليه السلام قوله:

لما سئل عن علامة قبول العبد عند الله ـ:

«عَلامَةُ قَبولِ العَبدِ عِندَ اللهِ أن يُصيبَ بِمَعروفِهِ مَواضِعَهُ، فإن لَم يَكُن كذلكَ فلَيسَ كذلكَ»[1].

صفات أهل الفضل

ورد في مواقع متعددة من القرآن الكريم ما يشير إلى الأفضلية والتفاضل كما في قوله تعالى:

﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٤١٩، ح٤٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٥٦٨، ح١٢٦٦٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.

وما جاءت الآيات الكريمة إلا لتبين أن هناك رجحات لشخص على آخر هي سر التفاضل بين الأنبياء والمرسلين.

فالفضيلة كما جاء في اللغة هي الدرجة الرفيعة في حسن الخلق[1].

وتفاضل القوم: تنافسوا في الفضل أي فيما هو رفيع وشريف وعالٍ.

حث الأئمة الأطهار عليهم السلام على التحلي بالفضائل لما لها من آثار وفوائد عالية وهذا ما نلمسه في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فخر المرء بفضله لا بأصله»[2].

ولكي نطّلع على صفات أهل الفضل لابد من الوقوف على موجبات الفضيلة التي تعد سلما للرفعة والعلو:

١ـ الإيثار الذي هو تقديم مصلحة الغير على مصلحة النفس يوجب الفضيلة لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«من آثر على نفسه استحق اسم الفضيلة»[3].

٢ـ عدم العجب بالنفس وعدم الترفع على الآخر مما يجعل المرء فاضلا كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«كفى بالمرء فضيلة أن يُنقّص نفسه»[4].

٣ـ الصفح والتسامح والعفو عند القدرة صفات أهل الفضل كما ورد عنه عليه السلام:

«الفضل أنك إذا قدرت عفوت»[5].

---

(١) المعجم الوسيط: ص٦٩٣.

(٢) جامع أحاديث أهل البيت عليهم السلام، الشيخ هادي النجفي: ج٨، ص٤٧٥، ح١٠٤٥٣.

(٣) ميزان الحكمة: ج١، ص١٨، ح٤ منزلة الإيثار.

(٤) ميزان الحكمة: ج٣، ص٢٤٣٣، ح٣٢١٢ ما به فضيلة الإنسان.

(٥) المصدر السابق.

٤ـ الإحسان والابتداء به يقود إلى الفضل كما في قوله عليه السلام:

«الفضل مع الإحسان»[١].

٥ـ الورع والطاعة والانقياد لله تعالى تجسد التقوى في صاحبها فيكسب بذلك أن يكون من أهل الفضل كما في وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين:

«فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد»[٢].

وهناك كثير من الفضائل التي تصبغ صاحبها بالفضيلة كالمروءة وبث المعروف والإحسان وأداء المفروضات والنوافل والابتعاد عن الشبهات وهذا ما أشارت إليه مجموعة من الأحاديث الشريفة تركناها للاختصار، ومن شاء الإطلاع عليها فليطلبها من مظانها[٣].

وما جاء عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يبيّن منزلة أهل الفضل ومقامهم في يوم القيامة كما يبيّن الأعمال التي جعلتهم هكذا كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا جُمِعَ الخلائقُ يومَ القِيامَةِ نادى مُنادٍ: أينَ أهلُ الفَضلِ؟ فَيَقومُ أُناسٌ وهُم يَسيرٌ فَينطَلِقُونَ سِراعاً إلَى الجَنَّةِ، فَتَلَقّاهُم المَلائكةُ فيَقولونَ: إنّا نَراكُم سِراعاً إلَى الجَنَّةِ! فيَقولونَ: نَحنُ أهلُ الفَضلِ، فيقولونَ: ما كانَ فَضلُكُم؟ فيقولونَ: كُنّا إذا ظُلِمنا غَفَرنا، وإذا أُسِيءَ إلَينا عَفَونا، وإذا جُهِلَ علَينا حَلُمنا، فيقالُ لَهُم: ادخُلُوا الجَنَّةَ فَنِعمَ أجرُ العامِلينَ»[٤].

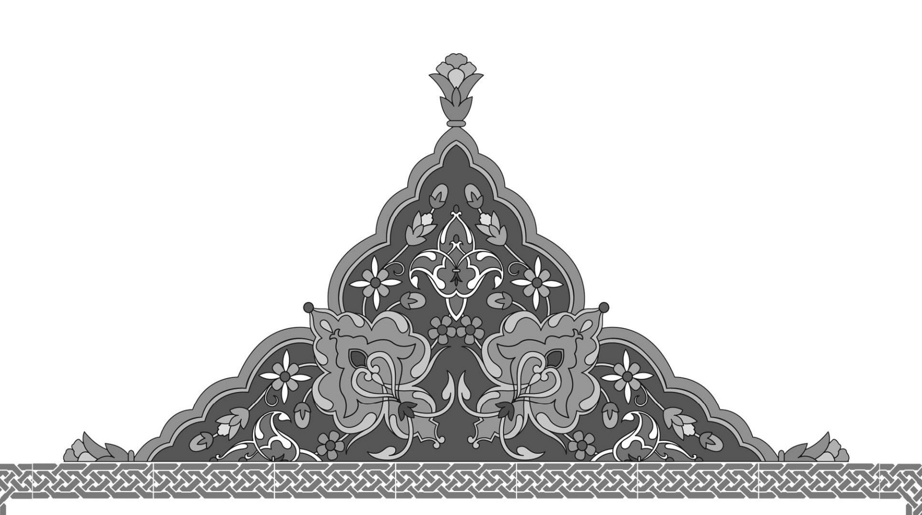
---

(١) المصدر السابق.

(٢) ميزان الحكمة: ج٣، ص٢٤٣٣، ح٣٢١٢ أفضل الفضائل.

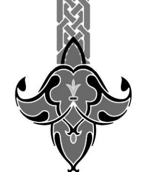
(٣) ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١٨ ـ ٣٢١٩.

(٤) تنبيه الخواطر: ج١، ص١٢٤. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١٩ ـ ٣٢٢٠، ح١٥٩٦٣.



الخطبة الرابعة

في مكارم الأخلاق





نص الخطبة

(إنَّ الحِلْمَ زينةٌ، وَالوَفاءَ مُرُوءَةٌ، والصِّلَةَ نِعْمَةٌ، والاسْتِكْبارَ صَلَفٌ، والْعَجَلَةَ سَفَهٌ، وَالسَفَهَ ضَعْفٌ، وَالغُلُوَّ وَرْطَةٌ، وَمُجالَسَةَ أهْلِ الدَّناءَةِ شَرٌّ، وَمُجالَسَةَ أهلِ الفِسْقِ رِيبَةٌ).

إن الأناة وضبط النفس وكظم الغضب حسن وجمال، والصدق بالوعد والعدد كمال الرجولة، والرحمة والتواصل وعدم الهجران منّة وفضل من الله تعالى، والتعالي والتعاظم وعدم قبول الحق عجب وتكبر، والتسرع خفة وطيش وجهل، وهذه الخفة والطيش هي قلة فطنة وضعف فؤاد، وتجاوز الحد والإفراط أمر يتعسر النجاة منه، والقعود مع الأراذل والاختلاط بهم سوء وفساد ومغالطة، والقعود مع أهل العصيان تهمة وظن وشك.

بحث أخلاقي

مكارم الأخلاق شيمة المؤمنين

منذ أن وطئ الإنسان بقدميه تراب هذه الأرض وطئها وهو مزودٌ بالأخلاق الفاضلة وعارفٌ للأخلاق الفاسدة ومأمورٌ من قبل الله تعالى بالتحلي بكلّ الفضائل لكي يصل إلى غايته التي خلق من أجلها ألا وهي عبادة الله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

فصارت مكارم الأخلاق من لوازم الحياة الصحيحة على الأرض ومن لوازم الأمم التي تنشد الرفعة والطهارة، فأخذت الشرائع السماوية كمال الإنسان غاية لها وبدأ الأنبياء عليهم السلام بالإرشاد والتربية والتزكية لهذه النفوس الجامحة التي تميل بطبعها للراحة الدعة، وتوالت الأنبياء عليهم السلام على قيادة البشرية إلى الكمال حتى وصلت إلى خاتمها وسيد رسلها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي صرح بكلمته الخالدة:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«حُسنُ الخُلقِ مِن أفضَلِ القِسَمِ وأحْسَنِ الشِيَمْ»[٢].

ولكي نقف على معنى الأخلاق وحسنها وما يترتب عليها لابد من الحديث عن العنوانين المختلفة في ذلك.

الخلق وعاء الدين

تقدم بيان علاقة الدين بالأخلاق الفاضلة، وعرفنا حرص الأنبياء عليهم السلام على تزويد أممهم بالمكارم والسمو ولكي يتضح العنوان لابد من معرفة مفهومه في اللغة والاصطلاح:

الخلق في اللغة: حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر أو روية، ومجموعها أخلاق[٣].

الخلق في الاصطلاح: سلوك يسلكه الإنسان في ميدان الفضائل أو الرذائل

---

(١) ميزان الحكمة: ج١، ص٨٠٤، ح١١١١.

(٢) غرر الحكم: ٤٨٤٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٣، ح٥٠٠٠.

(٣) المعجم الوسيط: ص٢٥٢.

ويصبغ صاحبه بالحسن أو القبح.

والسلوك أو الحال الذي يتصف به الإنسان له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هي الاتصاف بصفة على وجه السرعة وفقدانها بذات السرعة وهذا ما يسمى (بالحال) كما في حمرة الخجل أو صفرة الوجل التي تحصل للمرء عند وجود السبب لها وترتفع بارتفاعه.

المرتبة الثانية: هي الاتصاف بصفة ما ببطء وتكرار حتى ترسخ في النفس إلى درجة (الملكة) فتصدر عن صاحبها بسهولة وسرعة دون تأمل أو روية.

المرتبة الثالثة: هي اتصاف الإنسان بصفة وصلت إلى حد (الاتحاد) مع ذاته ولا تزول إلا بزوال الذات.

فالحالة الأولى لا يمكن أن نطلق عليها بأنها خلق لسرعة الاتصاف بها وسرعة زوالها، وأمّا الحالة الثانية والثالثة هي المعنيّة بذلك وهي التي يصدق عليها بأنها (خلق) فالاتصاف بالخلق الفاضل هو الدين أو من الدين وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«جاءَ رجُلٌ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِن بَينِ يَديهِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ما الدِّينُ؟ فقالَ:

حُسنُ الخُلقِ.

ثُمَّ أتاهُ عن يَمينِهِ فقالَ: ما الدِّينُ؟ فقالَ:

حُسنُ الخُلقِ.

ثُمَّ أتاهُ مِن قِبَلِ شِمالِهِ فقالَ: ما الدِّينُ؟ فقالَ:

حُسنُ الخُلقِ.

ثُمَّ أتاهُ مِن وَرائهِ فقالَ: ما الدِّينُ؟ فالْتَفَتَ إلَيهِ وقالَ:

أَمَا تَفْقَهُ؟! الدِّينُ هُوأنْ لا تَغْضَبَ»[١].

فلذا صار الخلق وعاءً ومكانا مناسبا للدين وهذا ما اتصف به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي أفاض الله تعالى عليه نعمة النبوة وحباه بالوحي دون غيره لخلقه الرفيع الذي وصل إلى درجة أن ينال مدح الله تعالى وثناء المولى على العبد بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢].

مكارم الأخلاق في نظر أهل البيت عليهم السلام

مكارم الأخلاق هبة يهديها الله تعالى لخلقه ترتفع بصاحبها إلى الدرجات العليا والمراتب الرفيعة، وهي درع واقية ضد الآثام والدنس فلذا أكثر أهل البيت عليهم السلام من الحث عليها بأنواعه الآتية:

١ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«عَلَيكُم بمَكارِمِ الأخْلاقِ، فإنّ اللهَ عزّ وجلّ بَعثَني بها، وإنّ مِن مَكارِمِ الأخْلاقِ أنْ يَعْفُوَ الرّجُلُ عَمّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطيَ مَن حَرَمَهُ، ويَصِلَ مَن قَطعَهُ، وأنْ يَعودَ مَن لا يَعودُهُ»[٣].

٢ـ وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«جَعلَ اللهُ سُبحانَهُ مَكارِمَ الأخْلاقِ صِلَةً بَينَهُ وبَينَ عِبادِهِ فحَسْبُ أحَدِكُم أنْ يَتَمسّكَ بخُلقٍ مُتّصِلٍ باللهِ»[٤].

---

(١) تنبيه الخواطر: ص٨٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٦، ح٥٠٣٠.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) أمالي الطوسي: ص٤٧٨، ح١٠٤٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨١ ـ ١٠٨٢، ح٥٠٦١.س

(٤) تنبيه الخواطر: ج٢، ص١٢٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٢، ح٥٠٦٣.

٣ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَهَبْ أنّهُ لا ثَوابَ يُرجى ولا عِقابَ يُتّقى، أفَتَزْهَدونَ في مَكارِمِ الأخْلاقِ؟!»[١].

٤ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«ثابِروا على اقْتِناءِ المَكارِمِ»[٢].

وهناك الكثير من الأحاديث التي حثت البشرية على التحلي بهذه المكارم التي لا غنى عنها لعاقل متبصر ولا لأمة تنشد الحياة الحقيقية، ولكي يتضح الأمر ويسعى المرء لنيل هذه المكارم لابد من الاطلاع عليها ومعرفتها، فلقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديثان جمع فيهما أغلب مكارم الأخلاق وهما كما يلي:

١ـ قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ اللهَ تباركَ وتعالى خَصَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بمَكارِمِ الأخْلاقِ، فامْتَحِنوا أنفسَكُم؛ فإن كانتْ فيكُم فاحْمَدوا اللهَ عزّ وجلّ وارغَبوا إلَيهِ في الزّيادَةِ مِنها.

فذكَرَها عَشرَةٌ: اليَقينُ، والقَناعَةُ، والصَّبرُ، والشُّكرُ، والحِلْمُ، وحُسنُ الخُلقِ، والسَّخاءُ، والغَيرَةُ، والشَّجاعَةُ، والمُروءَةُ»[٣].

٢ـ وعنه عليه السلام:

«المَكارِمُ عَشْرٌ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تكونَ فيكَ فَلْتَكُنْ، فإنّها تَكونُ في الرّجُلِ ولا تكونُ في ولدِهِ، وتكونُ في ولدِهِ ولا تكونُ في أبيهِ، وتكونُ في العَبدِ ولا تكونُ في الحُرِّ: صِدْقُ البَأسِ، وصِدْقُ اللّسانِ، وأداءُ الأمانَةِ، وصِلَةُ

---

(١) غرر الحكم: ٦٢٧٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨١، ح٥٠٦٠.

(٢) غرر الحكم: ٤٧١٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٩، ح٥٠٤٦.

(٣) أمالي الصدوق: ص١٨٤، ح٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٠، ح٥٠٥٢.

الرَّحِمِ، وإقْراءُ الضَّيفِ، وإطْعامُ السّائلِ، والمُكافأةُ على الصَنائِعِ، والتَّذَمُّمُ للجارِ، والتَّذَمُمُ للصاحِبِ، ورأسُهُنَّ الحَياءُ»[١].

وعند التأمل في هذين الحديثين نجد الإمام عليه السلام يحث على رفض الشك باطناً وظاهراً، والرضا بما قسم الله تعالى، والتحلي بعدم الجزع ونبذ الجزع ونبذ الشعور بالملل لاسيما في الطاعات، والعرفان بالجميل ومكافأة المنعم، والتحلي بضبط النفس عند الغضب، والعشرة بالمعروف والتلبس بالآداب الجميلة، والكرم والبذل ابتداءً أو عند السؤال، والحرص على الدين والمعرض والمقدسات، ورد العادي والثبات له، والفتوة والشيمة، وقول الحقيقة، والحفاظ على أمانات الناس وإرجاعها، والتواصل مع القربى، وإكرام الضيف وحسن الجوار، والخجل من الله تعالى ومن الناس عند الإقدام على ما يخدش الحياء.

كما أن هناك صفات أخرى عدّها الأئمة عليهم السلام من مكارم الأخلاق كالعفو عن الظالم، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله تعالى كثيرا.

ـ نصائح

١ـ هناك تلازم بين الخلق الحسن والعقل، وبين الخلق السيئ والجهل وهذا ما يحث على طلب الالهي لبناء (كما هو في الأصل)

العقل وكماله لكي يتصف صاحبه بالخلق الحسن فلذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد على ذلك بقوله:

«الخُلقُ المَحمودُ مِن ثِمارِ العقلِ، الخُلقُ المَذمومُ مِن ثِمارِ الجَهلِ»[٢].

٢ـ إذا كانت صورة المؤمن جميلة فليحافظ على جمالها بحسن الخلق، يقولون

---

(١) الخصال: ص٤٣١، ح١١.

(٢) غرر الحكم: ١٢٨٠ ـ١٢٨١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٢، ح٤٩٩٣.

جميلا في الظاهر والباطن كما ورد ذلك في سفينة البحار عن جرير بن عبد الله قال: قالَ لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّكَ امْرُءٌ قَد أحْسَنَ اللهُ خَلْقَكَ فأحْسِنْ خُلقَكَ»[١].

٣ـ إذا ادعى شخص الإيمان فانظر إلى ما يستند عليه هذا الإيمان فإن كان له خلق حسن فنعم السند وإلا فلا، وهذا أشار إليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَمّا خَلقَ اللهُ تعالى الإيمانَ قالَ: اللّهُمَّ قَوِّني، فَقَوّاهُ بحُسنِ الخُلقِ والسَّخاءِ ولَمّا خَلقَ اللهُ الكُفرَ قالَ: أللّهُمَّ قَوِّني، فقَوّاهُ بالبُخلِ وسُوءِ الخُلقِ»[٢].

٤ ـ إذا رغبت في ثواب القائمين والصائمين عليك بالخلق الحسن لتنال درجتهم وهذا ما أشار إليه نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن حَسَّنَ خُلقَهُ بَلّغَهُ اللهُ درَجَةَ الصّائمِ القائمِ»[٣].

٥ـ إذا ضعفت نفسك عن العبادة ولم تتوفر لك مستلزماتها كصحة البدن وعدم الغفلة والنشاط البدني والإقبال القلبي، ليس لك دواء لدائك إلاّ حسن الخلق فلذا اسمع قول سيد المرسلين في ذلك إذ يقول:

«إنّ العَبدَ لَيَبلُغُ بحُسنِ خُلقِهِ عَظيمَ دَرَجاتِ الآخِرَةِ وشَرَفَ المَنازِلِ، وإنَّهُ لَضَعيفُ العِبادَةِ»[٤].

٦ ـ إذا أردت لميزانك أن يكون ثقيلا يوم توضع الموازين عليك بالتحلي بالخلق الحسن، وهذا ما صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«ما مِن شَيءٍ أثقَلُ ما يُوضَعُ في المِيزانِ مِن خُلقٍ حَسنٍ»[٥].

---

(١) سفينة البحار: ج١، ص٤١٠. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٣، ح٤٩٩٨.

(٢) المحجّة البيضاء: ج٥، ص٩٠. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٢، ح٤٩٨٦.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٧١، ح٣٢٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٤، ح٥٠٠٩.

(٤) المحجّة البيضاء: ج٥، ص٩٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٤، ح٥٠١٠.

(٥) ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٤، ح٥٠١٦. بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٨٣، ح١٧.

أسئلة مهمة

السؤال الأول: ما هي الصفات التي اتصف بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكي ينال المدح الإلهي بقوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم)؟.

الجواب: كان خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الانقياد والطاعة والعبودية التامة لربه سبحانه، وهذا ما ذكره الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

«هو الإسلامُ»[2].

وكان خلقه القرآن كما ذكر ذلك الحسن البصري وقبله عائشة.

السؤال الثاني: من هو الذي سيجلس قريبا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة ويكون محبوباً إليه؟

الجواب: هذا ما أجاب عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«إنّ أحَبَكُم إلَيَّ وأقرَبَكُم مِنّي يَومَ القِيامَةِ مَجلِساً أحْسَنُكُم خُلقاً وأشَدُّكُم تَواضُعاً»[3].

السؤال الثالث: ما هو تفسير حسن الخلق؟

الجواب: ١ـ أن تكون متواضعا لطيفا ذا رفق ورحمة، وأن لا تتكلم إلا بما يرضي الله تعالى وليقع كلامك في قلوب مستمعيك، وأن تعلو وجهك طلاقة وسماحة، فإن هذه الصفات هي التي يتجسد فيها حسن الخلق كما أخبر بذلك الإمام الصادق عليه السلام لَمّا سُئِلَ عن حَدّ حُسنِ الخُلقِ قال:

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) معاني الأخبار: ص١٨٨، ح١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٥، ح٥٠١٩.

(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٨٥، ح٢٦.

«تَلينُ جانِبَكَ، وتُطيِّبُ كلامَكَ، وتَلْقى أخاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ»[١].

٢ـ الرضا بعطاء الله تعالى والقناعة به، وعدم الغضب والانفعال عند عدم الحصول على الدنيا، هكذا فسر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حسن الخلق بقوله:

«إنّما تفسيرُ حُسنِ الخُلقِ: ما أصابَ الدُّنيا يَرْضى، وإنْ لَمْ يُصِبْهُ لَمْ يَسْخَطْ»[٢].

٣ـ التنزه عن المعاصي وترك الانغماس فيها، والسعي في طلب الرزق الحلال الطيب، وإكرام الزوجة والأولاد أو من تجب عليك إعالته، هذا مما عدّه أمير المؤمنين من حسن الخلق بقوله:

«حُسنُ الخُلقِ في ثَلاثٍ: اجْتِنابُ المَحارِمِ، وطَلَبُ الحَلالِ، والتَّوَسُّعُ على العِيالِ»[٣].

السؤال الرابع: ما هو المميز بين الفضائل والرذائل؟

الجواب: عدم الإفراط أو التفريط هو الذي يسبغ الأفعال والأقوال بالصيغة الحسنة، وبعكسه يقع القبح وتتشوه الصورة، ولا بأس أن نبين ذلك من خلال المثال:

إذا أردت أن تنفق فإن زاد عن حده فهو إسراف وإن قصر عن حده فهو بخل، وهكذا تجري القاعدة في الأمور الأخرى، وخير ما يؤكد ذلك قول الإمام العسكري عليه السلام إذ يقول:

«إنّ للسَّخاءِ مِقْداراً فإنْ زادَ علَيهِ فهُوَ سَرَفٌ، وللحَزْمِ مِقْداراً فإنْ زادَ عَلَيهِ فهُوَ جُبْنٌ، وللاقْتِصادِ مِقْداراً فإنْ زادَ عليه فهُوَ بُخْلٌ، وللشَّجاعَةِ مِقْداراً فإنْ زادَ علَيهِ فهُوَ تَهوُّرٌ»[٤].

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٥٣، ح١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٦، ح٥٠٢٧.

(٢) كنز العمّال: ٥٢٢٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٦، ح٥٠٢٨.

(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٩٤، ح٦٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٧٦، ح٥٠٢٩.

(٤) بحار الأنوار: ٦٩، ص٤٠٧، ح١١٥.

السؤال الخامس: كيف نحكم على من نعاشر؟

الجواب: ١ــ ينصح أمير المؤمنين عليه السلام من يريد أن يكوّن رأياً عن صاحبه أن ينظر إلى أفعاله وصفاته فإن وجد صفة جيدة فلينظر إلى الصفات الأخرى هل ستكون بجانبها وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«إذا كانَ في رَجُلٍ خَلّةٌ رائقَةٌ فانْتَظِروا أخَواتِها»[١].

٢ـ إذا لمست بخلاً وسوء خلق من صاحبك فاحكم ببعده عن الإيمان، وذلك ما صرح به رسول الإنسانية صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«خَصْلَتانِ لا تجْتَمعانِ في مؤمنٍ: البُخلُ وسُوءُ الخُلقِ»[٢].

ثمرات حسن الخلق

ما حثت الشرائع وما صدع الأنبياء عليهم السلام بحسن الخلق إلا لما فيه من فوائد جمة على مستوى الدنيا والآخرة، ولقد تقدم بيان ثماره في الآخرة في أحاديث متفرقة: كبلوغ صاحب الخلق الحسن درجة الصائمين والقائمين، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجلسا يوم القيامة، وثقل الميزان بالحسنات والثواب الجزيل.

وأمّا ثماره في الدنيا فهي كالآتي:

١ـ ينال صاحبه سعة في رزقه ويكثر أصدقاؤه كما قال ذلك الإمام علي عليه السلام:

«حُسنُ الخُلقِ يَزيدُ في الرِّزقِ، ويُؤْنِسُ الرِّفاقَ»[٣].

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٤٤٥. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٨، ح٥١٢٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٦، ص٣٣٧. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٥، ح٥٠٩٧.

(٣) غرر الحكم: ٤٨٥٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٣، ح٥٠٧٦.

٢ـ قالوا إن دار الظالم خراب، وأقول إن دار سيئ الخلق مثله، ولكن دار من حسن خلقه عامرة بأهلها وبنائها، وعمر سيئ الخلق قصير مبتور، وعمر حسن الخلق طويل في طاعة الله تعالى، ولذا نجد الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«إنَّ البِرَّ وحُسنَ الخُلقِ يَعْمُرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعْمارِ»(١).

٣ـ إذا سر العاقل أن يكون محبوبا ومحترما عند الناس، فما عليه إلا أن يكون ملتزما بحسن الخلق، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«حُسنُ الخُلقِ يُثَبِّتُ المَودَّةَ»(٢).

ـ سوء الخلق في نظر أهل البيت عليهم السلام

تقدم الكلام عن حسن الخلق ومكارمه في نظر أهل البيت عليهم السلام فكان كلاما يسر العقول ويشنف الأسماع ويقوي القلوب ويبعث على التنافس في المكارم، فحسن الخلق طيب يتعطر به المؤمنون، وتاج يتزين به العقلاء، ودرع يتوقى بها مجاهدوا النفوس، ووسيلة يتقرب بها المتقربون، وجلباب يتجلبب به أهل الحياء، ودرجة يرتقي بها أهل العلو والرفعة، وفضل يمنّ به المحسنون، وعدل يحكم به الحاكمون، وبر يبذله أهل المعروف، ورضا تقنع به النفوس، واطمئنان تتحلى به القلوب، وأنس يأنس به الأصحاب.

وأمّا سوء الخلق! مرض يصيب الجاهلين، ونتانة يفر منها أهل الذوق، ودناءة للنفوس، وتسافل في الدرجات، وفساد للعمل الصالح، وقرين مانع للخير، ووحشة للأهل والأحباب، وحاجب عن التوبة، وغم لا ينجلي، وهم لا ينكشف، وعذاب لا يزول إلا بزوال صاحبه، ونكد للعيش، وبعد عن الله تعالى، وجفوة للدين، ومخالفة لسيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، وترك لسيرة المعصومين عليهم السلام وسبيل إلى النار.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٩٥، ح٧٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٣، ح٥٠٧٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٧، ص١٤٨، ح٧١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٤، ح٥٠٨٠.

آثار سوء الخلق

بعد هذا الوصف الذي وصف أهل البيت عليهم السلام فيه سوء الخلق نجد أنفسنا في غنى عن ذكر آثاره ولكن ليطمئن قلب القارئ بذكر بعض أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الذين حذروا من سوء الخلق وبيّنوا سوء عواقبه:

١ـ ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّ العَبدَ لَيَبلُغُ من سُوءِ خُلقِهِ أسْفَلَ دَرَكِ جَهنَّمَ»[١].

٢ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ألا أُخبِرُكُم بأبعَدِكُم مِنّي شَبَهاً؟

قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال:

الفاحِشُ المُتَفَحِّشُ البَذيءُ البَخيلُ المُختالُ الحَقودُ الحَسودُ القاسِي القَلبَ البَعيدُ مِن كُلِّ خَيرٍ يُرجى، غَيرُ المَأمونِ مِن كُلِّ شَرٍّ يُتَّقى»[٢].

٣ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال:

«الخُلقُ السَّيِّئُ يُفسِدُ العَملَ كما يُفسِدُ الخَلُّ العسَلَ»[٣].

٤ـ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَن ساءَ خُلقُهُ أعْوَزَهُ الصَّديقُ والرَّفيقُ»[٤].

وقال عليه السلام:

«مَن ساءَ خُلقُهُ ضاقَ رِزْقُهُ»[٥].

---

(١) المحجّة البيضاء: ج٥، ص٩٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٦، ح٥١٠١.

(٢) الكافي: ج٢، ٢٩١، ح٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٦ ـ ١٠٨٧، ح٥١١٠.

(٣) الكافي: ج٢، ٣٢١، ح١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٤، ح٥٠٨٦.

(٤) غرر الحكم: ٩١٨٧. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٦، ح٥١٠٥.

(٥) غرر الحكم: ٨٠٢٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٦، ح٥١٠٦.

٥ـ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«سُوءُ الخُلقِ شَرُّ قَرينٍ»[١].

وعنه عليه السلام:

«سُوءُ الخُلقِ نَكَدُ العَيْشِ وعذابُ النَّفْسِ»[٢].

وقال عليه السلام أيضا:

«سُوءُ الخُلقِ يُوحِشُ النَّفسَ، ويَرفَعُ الأُنْسَ»[٣].

٦ـ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«مَن ساءَ خُلقُهُ عَذّبَ نَفْسَهُ»[٤].

ـ الحلم

أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى صفة لا غنى عنها في الحياة الدنيا لاسيما عند معاشرة اللؤماء والجاهلين، فهذه الصفة تظهر بتمامها في اسم الحليم الذي هو من أسماء الله تعالى الحسنى، إلا أن تفسير هذه الصفة التي يتصف بها الله تعالى غير تفسيرها عندما يتصف بها العبد، ولكي يتضح الأمر بدرجة أكثر لابد من التعرض لمعرفة مفهوم الحلم لغة واصطلاحا.

الحلم في اللغة: هو ترك العجلة، الصفح والستر، هو الأناة وضبط النفس، حَلُم: تأنى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة[٥].

(١) غرر الحكم: ٥٥٦٧. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٥، ح٥٠٨٩.

(٢) غرر الحكم: ٥٦٣٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٥، ح٥٠٩٠.

(٣) غرر الحكم: ٥٦٤٠. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٥، ح٥٠٩١.

(٤) بحار الأنوار: ٧٨، ص٢٤٦، ح٦٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٠٨٦، ح٥١٠٢.

(٥) المعجم الوسيط: ص١٩٤.

الحلم في الاصطلاح: هو السيطرة على النفس عند هيجان الغضب وضبطها عن الانتقام مع القدرة عليه دون أن يستلزم ذلك الذل والهوان.

وصف أهل البيت عليهم السلام الحلم بأنه من الفضائل التي يتجمل به صاحبه، ويتخذ منه واقياً من الإصابة بالبلايا والعواقب الوخيمة، بل هو من لوازم الإيمان وكمال العقول، وهو علامة الاتزان، وسبب تكوّن العشيرة، ودلالة على عبادة صاحبه، ووسيلة لسيادته على غيره، وطريقة للانتصار على العدو، ورد للسفيه، ومدعاة للسلم.

بحث عقائدي

غضب وحلم الله تعالى

تقدم الكلام عن أن الحلم هو الأناة وضبط النفس والسكن عند الغضب، فلذا ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما يصرح بأن الله سبحانه يتصف بالحلم ويتسمى بالحليم كما في قوله تعالى:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١).

وفي قوله تعالى:

﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٧.

وهناك الكثير من الآيات الأخرى التي تصرح بذلك، كما ورد أيضا في الأحاديث الشريفة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من دعائه في يوم الأحزاب:

«إلهي أنت الحليم الذي لا يجهل»[1].

وورد أيضا عن الإمام الكاظم عليه السلام في صفة الله تعالى قوله:

«الحليم الذي لا يعجل»[2].

ومما لا شك فيه أن الاتصاف بالحلم لا يأتي إلا بعد غضب يعتري الساكن فيهيج بسببه فيبادر إلى رد فعل عنيف أو يحاول ضبط نفسه والسيطرة على سلوكه، فيلزم من ذلك حدوث تغير في حاله، ولكن لا تجري هذه التغيرات في الله سبحانه لاستحالة قيام الحوادث وطرئها على ذاته سبحانه لأنه واجب الوجود، ولكي يتضح الأمر جليا لابد من الوقوف على معنى الغضب الإلهي سوالحلم الإلهي.

قبل الاطلاع على معنى الغضب الإلهي لابد أن نعرف أن الله تعالى يغضب على عباده العصاة كما ورد ذلك في كثير من الآيات الشريفة كما في قوله تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[3].

وفي قوله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[4].

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٩١، ص٢١٢، ح٧.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية، محمد الريشهري: ج٤، ص١٥٢، ح٤٤٤٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٩٣.

وقوله تعالى:

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾[١].

وهناك الكثير من الآيات الأخرى التي تصرح بذلك فراجع.

ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يؤكد ذلك كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله رجل: أُحِبُّ أن أكُونَ آمِناً مِن سَخَطِ اللهِ ـ قال:

«لا تَغضَبْ على أحَدٍ تَأمَنْ غَضَبَ اللهِ وسَخَطَهُ»[٢].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أن الغضب مذكور في التوراة أيضا كما في قوله عليه السلام:

«مَكتوبٌ في التَّوراةِ...: يا موسى، أمسِكْ غَضَبَكَ عَمَّن مَلَّكتُكَ علَيهِ، أكُفَّ عنكَ غَضَبِي»[٣].

وما ذكره السيد المسيح عليه السلام يؤكد أن الأديان السماوية تشير إلى أن الله تعالى يغضب ويحل غضبه على من يستحقه كما في قوله عليه السلام:

(لَمّا سألَهُ الحَوارِيُّونَ: أيُّ الأشياءِ أشَدُّ؟ـ: أشَدُّ الأشياءِ غَضَبُ اللهِ.
قالوا: فيما يُتَّقى غَضَبُ اللهِ؟، قال: بأن لا تَغضَبُوا)[٤].

بعد أن عرفنا بموجب الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن الله تعالى يغضب

---

(١) سورة طه، الآية: ٨١.

(٢) كنز العمّال: ٤٤١٥٤. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٠٩، ح١٥٠٥٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٣٠٣، ح٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٠٨، ح١٥٠٥٠.

(٤) مشكاة الأنوار: ص٢١٩. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٠٨، ح١٥٠٥١.

على من يستحق الغضب وينزل غضبه على ذلك العاصي المستحق لهذا الغضب وعرفنا من خلال الآيات التي تقدم ذكرها في ذكر صفة الحلم بأنه تعالى يتصف بالحلم ويصف نفسه سبحانه بالحليم، فبعد هذا صار من الضروري أن نعرف المعنى الحقيقي لغضب الله تعالى وحلمه على عباده فنقول:

عرف أهل اللغة الغضب بأنه: البغض وحب الانتقام من المبغوض[1].

وجاء في المعجم الوسيط، غضب عليه غضبا: سخط عليه وأراد الانتقام منه، الغضب: استجابة لانفعال تتميز بالميل إلى الاعتداء[2].

الغضب في الاصطلاح: هو هياج يعتري الإنسان يدفعه إلى رد فعل عنيف.

ولو تأملنا ما تقدم من معان للغضب لا نجدها تصلح للإنطباق على الغضب الإلهي لما فيها من فساد عقائدي فلم يبقَ لنا إلا أن نطرق باب أهل بيت العصمة عليهم السلام ليعرفونا المعنى الحقيقي لغضب الله تعالى.

لقد ورد من محاورة بين رجل يدعى (عمرو بن عبيد) والإمام الصادق عليه السلام في ذلك وهي كالآتي:

قال عمرو بن عبيد: أخبرني (جعلت فداك) عن قوله جل ذكره:

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾[3].

ما غضب الله؟

فقال أبو جعفر عليه السلام:

«غضب الله عقابه يا عمرو، ومن ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر».

---

(١) المنجد الأبجدي: ص٧٣٧.

(٢) المعجم الوسيط: ص٦٥٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٨١.

وورد في توحيد الصدوق: (أن أحمد بن الحسن القطان قال: حدثنا الحسن بن علي السكري، قال: حدثنا محمد بن زكريا الجوهري، عن جعفر بن عمارة، عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له: يابن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل هل له رضا وسخط؟ فقال:

«نعم وليس ذلك على ما يوجد في المخلوقين ولكن غضب الله عقابه، ورضاه ثوابه»)[١].

وعند التأمل في هذين الحديثين الشريفين يتضح لنا المعنى الحقيقي لـ(غضب الله تعالى) وليس هو إلا عقابه أو عذابه وليس ثورة وهياجاً وتغييراً لاستحالة ذلك في الذات الإلهية.

وأمّا المعنى الحقيقي لحلم الله تعالى هو الغض عن معاصي العباد، وأنه لا يعجل في مؤاخذتهم، بل يمهل ولا يهمل أي يرجئ العقوبة إلى حين آخر بحكمته، وهذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«أوصى الله عز وجل إلى أخي العزيز.. لا تأمن مكري حتى تدخل جنتي، فاهتز عزيز يبكي، فأوصى الله إليه لا تبك يا عزيز، فإن عصيتني بجهلك غفرت لك بحلمي، لأني كريم لا أعجل بالعقوبة على عبادي وأنا أرحم الراحمين»[٢].

خلاصة الكلام: أن الغضب الإلهي هو العقاب والعذاب وليس هياجا أو فورة دم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأمّا الحلم فهو تأخير العقوبة وإرجاؤها إلى حين وليس سكنا وهدوءاً وضبط نفس لاستحالة اتصافه بذلك لأنه تعالى ليس محلا لطروء الحوادث أو التغير.

---

(١) كتاب التوحيد للصدوق: ص١٧٠.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٢، ص١٥١.

الحلم في نظر أهل البيت عليهم السلام

الحلم هذه الصفة التي لا يستغني عنها العقلاء فسرها أهل البيت عليهم السلام بأنها الربط الشديد لفوهة النفس لكي لا يخرج غضبها والسيطرة والاستيلاء على القلب عندما تعصف به فورة الدم ولذلك قال الإمام الحسن عليه السلام وقد سئل عن الحلم:

«كظم الغيظ وملك النفس»[١].

ويرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الحلم بأنه القدرة على الاحتمال بقوله:

«كمال العلم الحلم، وكمال الحلم كثرة الاحتمال والكظم»[٢].

بل يدعو الإمام إلى أن يترجم الحليم حلمه إلى تجلد وسكوت كما في قوله عليه السلام:

«الحلم كالصبر والصمت»[٣].

ويشير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى زاوية أخرى ليعرف لنا الحلم بالعشرة الهادئة التي يضطر إليها الإنسان عند ابتلائه بلئيم أو أحمق أو سيئ العشرة ولذا نجده يقول صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَيسَ بِحَليمٍ مَن لَم يُعاشِرْ بالمَعروفِ مَن لابُدَّ لَهُ مِن مُعاشَرَتِهِ حَتّى يَجعَلَ اللهُ لَهُ مِن ذلكَ مَخرَجاً»[٤].

ويرى الإمام الباقر عليه السلام أن دفع الشر والضرر من أفراد الحلم الذي يحتاج عند الابتلاء بذلك كما في قوله عليه السلام:

«لَيسَ الحَليمُ الّذي لا يَتّقي أحَداً في مكانِ التَّقوى»[٥].

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص٢٢٥.

(٢) موسوعة العقائد الإسلامية: ج٢، ص٤١٢، ٢٩١٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كنز العمّال: ٥٨١٥. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١٠، ح٤٣٤٨.

(٥) الكافي: ج٨، ص٥٥، ح١٦. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١٠، ح٤٣٥٠.

ـ آثار الحلم

لا شك أن لكل فضيلة يتصف بها الإنسان من ثمرات دنيوية وأخروية جزاءً لما اتصف به ومن تلك الفضائل فضيلة الحلم التي تعود على صاحبها بثمرات لا غنى عنها لمن أراد الرفعة والمودة كما يلي:

١ ـ التحلي بالحلم يوجب السيادة والتقدم على الآخرين كما جاء ذلك على لسان أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«مَنْ حَلُمَ سادَ»[1].

٢ـ ومن ينشد السلامة والابتعاد عن الدخول في الاختلافات التي توقع الضرر فليتصف بالحلم عند تعامله مع الآخرين كما دل على ذلك قول إمام الموحدين عليه السلام:

«السِّلْمُ ثمرة الحلمِ»[2].

٣ـ إذا دخل المرء في أزمة مع غيره إلى درجة العداء وكان راغبا في الانتصار عليه فليتحلى بالحلم لينال مبتغاه كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«مَن حَلُمَ عن عَدُوِّهِ ظَفِرَ بهِ»[3].

٤ـ ومن أراد الأمان والاطمئنان في الآخرة من غضب الله تعالى فليلتزم بالحلم عندما يغضب في الدنيا وهذا ما أكده إمام المتقين عليه السلام بقوله:

«الحِلمُ عِندَ شِدَّةِ الغَضَبِ يُؤمِنُ غَضَبَ الجَبّارِ»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٢٠٨، ح١. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩٠٩، ح٤٣٣٤.

(٢) غرر الحكم: ٩٠١. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩٠٩، ح٤٣٣٥.

(٣) كنز الفوائد: ج١، ص٣١٩. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩٠٩، ح٤٣٣٨.

(٤) غرر الحكم: ١٧٧٦. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١٠، ح٤٣٤٦.

ـ أسئلة مهمة

السؤال: إذا كنت معتادا على الغضب ولم أستطع أن أملك نفسي فما هو العلاج؟

الجواب: ينصح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بتدريب النفس على الحلم حتى يصل صاحبها إلى الاتصاف بالحلم وهذا ما صرح به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«إنْ لَمْ تَكُنْ حَليماً فَتَحَلَّمْ؛ فإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشبَّهَ بقَومٍ إلاّ أوْشَكَ أنْ يكونَ مِنهُم»[1].

السؤال: وصف القرآن الكريم إبراهيم بأنه حليم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[2].

ووصف الله تعالى بأنه حليم أيضا في قوله تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[3].

فكيف يصح تسمية إبراهيم عليه السلام باسم من الأسماء الحسنى المختصة بالله تعالى؟

الجواب: ١ـ إن الله تعالى متصف بالحلم بمعنى تأخير العقوبة دون حدوث انفعال في ذاته المقدسة، بينما يتصف إبراهيم عليه السلام بالحلم بعد حدوث انفعال في ذاته.

٢ـ الله تعالى حليم بالاستقلال دون تعلم أو تربية تلقاهما من أحد، وأمّا إبراهيم عليه السلام فهو حليم بتأديب الله تعالى له.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٧. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩٠٧، ح٤٣١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

السؤال: كيف نميّز بين الحليم والجبان؟

الجواب: إذا اقترن السكون وضبط النفس بالقدرة على الرد والانتقام فصاحبه حليم وإذا فقد القدرة على الرد فهو عجز وجبن وذل.

السؤال: ورد في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[١].

فهل هناك علاقة بين العلم والحلم؟

الجواب: لا نستطيع أن نتصور عالماً لا يتحلى بالفضائل لاسيما بفضيلة الحلم لما لهذه الفضيلة من أهمية في حياة العلماء الذين أخذوا على أنفسهم تعليم الجاهلين والصبر على إرشادهم وتحمل نزفهم وهذا لا يتم إلا بالتحلي بصفة الحلم، وما جاء عن أهل البيت عليهم السلام ما أكد هذا المعنى كقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«والّذي نَفْسي بِيَدِهِ، ما جُمِعَ شَيءٌ إلى شَيءٍ أفضَلَ مِن حِلمٍ إلى عِلمٍ»[٢].

وقول أمير المؤمنين عليه السلام الذي يشير إلى أن العلم لا يعطي فائدة ترجى إلا إذا ازدوج مع الحلم كما في هذا الحديث الشريف:

«لَن يُثْمِرَ العِلمُ حتّى يُقارِنَهُ الحِلمُ»[٣].

وأكد الإمام الباقر عليه السلام أن اللباس الذي يلبسه العلماء هو الحلم فلذلك يقول:

«الحِلمُ لِباسُ العالِمِ، فلا تَعْرَيَنَّ مِنهُ»[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢.

(٢) كنز العمال: ٥٨٢٩. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١١، ح٤٣٦٢.

(٣) غرر الحكم: ص٧٤١١. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١١، ح٤٣٥٨.

(٤) الكافي: ج٨، ص٥٥، ح١٦. ميزان الحكمة: ج٢، ص٩١١، ح٤٣٥٦.

ـ الوفاء

الوفاء فضيلة وعلامة تدل على أن صاحبها من أهل المعروف والرفعة والعلو لما فيها من آثار حميدة في الدنيا والآخرة، والاتصاف بالوفاء يتم عن نفس عزيزة تحترم عهودها وأقوالها وعقودها وشروطها، وهي لباس المؤمنين قبل غيرهم فلذا نجد القرآن الكريم في آيات متعددة أكد على ضرورة الاتصاف بالوفاء بل أمر بذلك كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[2].

ولكي يطّلع القارئ الكريم على مفهوم الوفاء لابد من معرفة معنى الوفاء لغة واصطلاحاً:

الوفاء في اللغة: وفى فلان نذره: آداه، وفى بعهده: عمل به، وفى فلانا حقه: أوفاه إياه[3].

الوفاء في الاصطلاح: هو حفظ العهد وعدم نقضه، والالتزام بالوعد وتحقيقه وامضاء العقود وعدم الرجوع فيها دون مسوّغ.

إذن الوفاء وسيلة لدرء صفة الغدر القبيحة، وعلامة على إيمان المؤمن، وردع

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

(٣) المعجم الوسيط: ص١٠٤٧.

لدفع الازدراء والانتقاص، وجمال يزين الأخوّة، ورفعة بين الناس، وأحد الأسس الدينية، وركن من الأركان الأخلاقية، وعنوان للمودّة، وقرين للصدق.

لقد حثت الشريعة الإسلامية على ضرورة الوفاء بالعهد والعقد والشرط والوعد، وأشارت الأحاديث الشريفة إلى هذه الفضيلة وسموها كما في الأحاديث الآتية:

١ـ قال الإمام علي عليه السلام:

«الكَرَمُ فَضلٌ، الوَفاءُ نُبلٌ»[١].

٢ـ وعنه عليه السلام:

«الوَفاءُ تَوأمُ الصِّدقِ»[٢].

٣ـ وعنه عليه السلام:

«بِحُسنِ الوفاءِ يُعرَفُ الأبرارُ»[٣].

وهناك بعض الأحاديث التي تشير إلى منزلة صاحب هذه الفضيلة كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أقرَبُكُم غَداً مِنّي فِي المَوقِفِ أصدَقُكُم لِلحَديثِ، وأدّاكُم لِلأمانَةِ، وأوفاكُم بالعَهدِ، وأحسَنُكُم خُلقاً، وأقرَبُكُم مِن النّاسِ»[٤].

وحديث آخر يصرح أن الوفاء سببٌ في جعل صاحبه من المصطفين عند الله تعالى وعند الناس كما في قوله أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ أحْسَنَ الوَفَاءَ اسْتَحَقَّ الاصْطِفَاءَ»[٥].

---

(١) غرر الحكم: ١٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٩٦، ح٢٢٢٧٦.

(٢) غرر الحكم: ٢٧١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٩٦، ح٢٢٢٧٤.

(٣) غرر الحكم: ٤٣٣١. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٩٧، ح٢٢٢٨١.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٩٤، ح١٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٩٥ ـ ٤٧٩٦، ح٢٢٢٦٣.

(٥) غرر الحكم: ٨٦٩٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٩٧، ح٢٢٢٨٣.

ـ سؤال مهم

السؤال: إذا لزم من الوفاء تفويت مصلحة ما، فهل يجوز لنا تركه؟

الجواب: لا يجوز ذلك أخلاقيا وفقهيا حسب ما ورد عن العلماء الأعلام.

وقفة

أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى لا يخلف الميعاد كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[2].

وسيفي لمن وعده بالثواب على عمله الصالح وهذا ما وهذا ما صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن وَعَدَهُ اللهُ على عَمَلٍ ثَواباً فهُو مُنجِزُهُ لَهُ، ومَن أوعَدَهُ على عَمَلٍ عِقاباً فهُو فِيهِ بالخِيارِ»[3].

وأكد هذا القول أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«أفِيضُوا في ذِكرِ اللهِ فإنَّهُ أحسَنُ الذِكرِ، وارغَبوا فيما وَعَدَ المُتَّقِينَ فإنّ وَعدَهُ أصدَقُ الوَعدِ»[4].

وما هذا الالتزام بتحقيق الوعد إلا وفاء لما وعدنا به، وفي هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تربية لنا على ضرورة الوفاء بالوعد، إن الوعد دين في ذمة صاحبه،

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩.

(٣) التوحيد: ص٤٠٦، ح٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٤، ح٢١٩٤٩.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١١٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٤، ح٢١٩٥١.

وحق يجب الوفاء به كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«العدة دين ويل لمن وعد ثم أخلف، ويل لمن وعد ثم أخلف ويل لمن وعد ثم أخلف».

وما هذا التشديد على الوفاء بالوعد إلا علامة على سمو ورفعة الأخلاق الإسلامية.

ولكي نرى عظمة الإسلام من خلال هذه الفضيلة لابد أن نطلع على ما قاله أئمة المسلمين عليهم السلام بالحق فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يصور لنا حاله عند إعطائه وعداً لأحد الناس بقوله:

«ما باتَ لِرجُلٍ عِندي مَوعِدٌ قَطُّ فباتَ يَتَمَلْمَلُ على فِراشِهِ لِيَغدوَ بالظَّفَرِ بحاجَتِهِ، أشَدَّ مِن تَمَلمُلي على فِراشي حِرصاً عَلَى الخُروجِ إلَيهِ مِن دَينِ عِدَتِهِ، وخَوفاً مِن عائقٍ يُوجِبُ الخُلفَ؛ فإنّ خُلفَ الوَعدِ لَيسَ مِن أخلاقِ الكِرامِ»[1].

ونردف قول أمير المؤمنين عليه السلام بقول الإمام الصادق عليه السلام الذي ينقل لنا ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جراء التزامه بوعد قطعه لرجل فيقول:

«إنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم واعَدَ رجُلاً إلَى الصَّخرَةِ فقالَ: أنا لكَ ها هُنا حتّى تَأتيَ، قالَ: فاشتَدَّتِ الشَّمسُ علَيهِ.

فقالَ لَهُ أصحابُهُ: يا رسولَ اللهِ، لو أنَّكَ تَحَوَّلتَ إلَى الظِّلِّ! قالَ:

وَعَدتُهُ إلى هاهُنا وإن لَم يَجِئْ كانَ مِنهُ المَحشَرُ»[2].

فيتضح مما تقدم ضرورة الالتزام بالوعد والوفاء به حتى لو لحق بصاحبه الضرر.

---

(١) غرر الحكم: ٩٦٩٢. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٥، ح٢١٩٥٩.

(٢) مكارم الأخلاق: ج١، ص٦٤، ح٦٣. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٦، ح٢١٩٧١.س

ـ نصيحة معصومية

يعلم أهل بيت العصمة عليهم السلام أن بعض الناس قد يخلف الوعد ويترك الوفاء به اضطرارا دون إرادته بسبب عدم قدرته على إنجاز الوعد فلذا أكدوا على ترك الوعد عند العلم بعدم القدرة على الوفاء به كما في الأحاديث الآتية:

قال الإمام علي عليه السلام:

«لا تَعِدَنَّ عِدَةً لا تَثِقُ مِن نَفسِكَ بإنجازِها»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«لا تَعِدَنَّ أخاكَ وَعداً لَيسَ في يَدِكَ وَفاؤُهُ»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال لِرجلٍ قالَ لَهُ: عِدْني ـ:

«كَيفَ أعِدُكَ وأنا لِما لا أرجو أرجى مِنّي لِما أرجو؟!»[3].

الاستكبار

هذه الصفة من الصفات العجيبة إذ إنها رذيلة من جهة وكمال من جهة أخرى، فهي رذيلة بلحاظ العبد وكمال بلحاظ المولى جل وعلا، فالكبر رداء الله تعالى فلا يحق لغيره منزاعته رداءه والتشبه به، بل أن العبد بذاته الفقيرة المحتاجة لا يليق به أن يكون مستكبرا، فإن فعل ذلك فهو ناشئ من جهله وحماقته، وهذا ما فعله إبليس فاستحق على أثره الطرد والتصغير كما في قوله تعالى:

﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[4].

---

(١) غرر الحكم: ١٠٢٩٧. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٧، ح٢١٩٧٣.سس

(٢) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٢٥٠، ح٩٤. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٧، ح٢١٩٧٤.

(٣) كتاب الفقيه: ج٣، ص١٦٥، ح٣٦١٠. ميزان الحكمة: ج١١، ص٤٧٣٧، ح٢١٩٧٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

ولذا لابد من معرفة هذه الصفة الذهبية لغة واصطلاحا:

استكبر في اللغة: امتنع عن قبول الحق معاندة وتكبرا، والكبر: العظمة والتجبر[١].

الاستكبار في الاصطلاح: هو التعالي على الآخرين وإعطاء قدرٍ لنفسه فوق قدر الغير.

فالتكبر خلق إبليس الذي كان سببا في طرده من رحمة الله تعالى، فلا يصح لعاقل أن يتصف بهذه الصفة الذميمة لما لها من عاقبة وخيمة وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«إيّاكَ والكِبَر؛ فإنّهُ أعظَمُ الذُّنوبِ وألأمُ العُيوبِ، وهُوحِليَةُ إبليسَ»[٢].

وهذه الصفة الذميمة لها آثار وخيمة ندرجها كما يلي:

١ـ التكبر يوجب ضياع الأعمال الصالحة كما في قول سيد المتقين عليه السلام:

«فاعتَبِرُوا بما كانَ مِن فِعلِ اللهِ بإبليسَ، إذ أحبَطَ عَمَلَهُ الطَّويلَ وجَهدَهُ الجَهيدَ... عن كِبْرِ ساعَةٍ واحِدَةٍ! فَمن ذا بَعدَ إبليسَ يَسلَمُ علَى اللهِ بمِثلِ مَعصيَتِهِ؟!»[٣].

٢ـ التكبر يوجب نقصان العقل كما في قول الإمام الباقر عليه السلام:

«ما دَخَلَ قَلبَ امرِئٍ شيءٌ مِن الكِبرِ إلاّ نَقَصَ مِن عَقلِهِ مِثلُ ما دَخَلَهُ مِن ذلكَ، قَلَّ ذلك أو كَثُرَ»[٤].

٣ـ عاقبة التكبر ويكتب صاحبه في سجل الطغاة الظلمة كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) لسان العرب: ج٥، ص١٢٦.

(٢) غرر الحكم: ٢٦٥٢. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٠٨، ح١٧٢٠٦.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٠٨، ح١٧٢٠٨.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٨٦، ح١٦٣. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٠٩، ح١٧٢١٤.

«لا يَزالُ الرجُلُ يَتكَبَّرُ ويَذهَبُ بنَفسِهِ حتّى يُكتَبَ في الجَبّارِينَ، فيُصِيبُهُ ما أصابَهُم»[1].

٤ ـ يُبعد صاحبه عن دار النعيم كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا أبا ذَرٍّ، مَن ماتَ وفي قَلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ لم يَجِدْ رائحَةَ الجَنَّةِ إلاّ أن يَتوبَ قبلَ ذلكَ»[2].

ـ فوائد

عند تأمل الأحاديث الشريفة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام تظهر لنا بعض الفوائد العلمية فيما يرتبط بالتكبر وهي كما يلي:

١ ـ إن التكبر صفة قد تصيب حتى الفقير المعدم إذا كان ذا قلب خالٍ من الخير كما صرح بذلك الإمام الصادق عليه السلام:

«الكِبرُ قد يكونُ في شِرارِ الناسِ مِن كُلِّ جِنسٍ.. إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَرَّ في بَعضِ طُرُقِ المَدينَةِ، وسَوداءُ تَلقُطُ السرقِينَ، فقيلَ لها: تَنَحَّي عن طريقِ رَسولِ اللهِ، فقالَت: إنّ الطَّريقَ لَمعرضُ، فَهَمَّ بها بعضُ القَومِ أن يَتَناوَلَها، فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: دَعُوها، فإنّها جَبّارَةٌ»[3].

٢ ـ قد يكون تباعد بعض الناس عمن تباعد عنه تكبرا ولكن هناك من يتباعد عمن هو متباعد عنه احتراما لنفسه ورفعا لها عن الابتذال كما أشار إليه الإمام علي عليه السلام في قوله في صِفةِ المُتَّقينَ ـ:

(١) كنز العمّال: ٧٧٤٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٠٩، ح١٧٢٢١.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٩٠، ح٣. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥١١ ـ ٣٥١٢، ح١٧٢٣٣.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٣، ص٢٠٩، ح٢. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٠٨، ح١٧٢١٣.

«بُعدُهُ عمَّن تَباعَدَ عَنهُ زُهدٌ ونَزاهَةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّن دَنا مِنهُ لِينٌ ورَحمَةٌ، ليسَ تَباعُدُهُ بكِبرٍ وعَظَمةٍ، ولا دُنُوُّهُ بمَكرٍ وخَديعَةٍ»[١].

٣ـ لم يسمح الله تعالى لأحد بالتكبر لأن الكبرياء لباسه وحده الذي لا يليق إلا به سبحانه كما في قول إمام المتقين عليه السلام:

«الحَمدُ للهِ الذي لَبِسَ العِزَّ والكِبرياءَ، واختارَهُما لنَفسِهِ دونَ خَلقِهِ، وجَعَلَهُما حِمًى وحَرَماً على غيرِهِ واصطَفاهُما لِجَلالِهِ»[٢].

٤ ـ إذا كان قلب المرء عارفا بالله تعالى ولكنه محبٌ للجمال فيتظاهر به فليس هذا من التكبر بشيء وهذا ما دل عليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ فقالَ رَجلٌ: إنَّ الرجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوبُهُ حَسَناً ونَعلُهُ حَسَنةً! قالَ: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناسِ»[٣].

٥ـ إن للكبر ظاهراً وباطناً فأمّا الظاهر ما ظهر على الجوارح وأمّا الباطن ما كان في قلبه أنه يرى نفسه فوق الغير.

٦ـ كل متكبر لا يتكبر إلا بسبب شعوره بالنقص كما دل على ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام:

«مَا مِن رَجُلٍ تَكَبَّرَ أو تَجَبَّرَ إلا لِذِلَّةٍ وَجَدَها في نفسِهِ»[٤].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥١٠، ح١٧٢٢٢.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٣، ص١٢٧. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥١٠، ح١٧٢٢٧.

(٣) الترغيب والترهيب: ج٣، ص٥٦٧، ح٣١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥١٢، ح١٧٢٣٤.

(٤) الكافي: ج٢، ص٣١٢، ح١٧. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥١٧، ح١٧٢٦٢.

٧ـ من أراد معالجة هذه الصفة الذميمة فعليه أن ينظر إلى عظمة الله تعالى ويحقر نفسه أمام عظمة ربه بالطاعات والعبادات كما أرشد إلى ذلك الإمام الحسن عليه السلام بقوله:

«لا يَنبغي لِمَن عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أن يَتَعاظَمَ، فإنّ رِفعَةَ الذينَ يَعلَمونَ عَظَمَةَ اللهِ أن يَتَواضَعُوا، و(عِزَّ) الذينَ يَعرِفُونَ ما جَلالُ اللهِ أن يَتَذَلَّلُوا (لَهُ)»[1].

٨ـ ومن معالجة الكبر ممارسة الحاجات باليد دون الاعتماد على خادم أو غلام أو أحد أفراد الأسرة فإن ذلك مما يخرج الكبر من النفس وهذا ما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«مَن حَلَبَ شاتَهُ ورَقَعَ قَميصَهُ وخَصَفَ نَعلَهُ وواكَلَ خادِمَهُ وحَمَلَ مِن سُوقِهِ، فَقَد بَرِئَ مِن الكِبرِ»[2].

٩ـ إذا أردت العلو والرفعة فعليك بالتواضع هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن تَواضَعَ للهِ دَرجَةً يَرفَعْهُ اللهُ دَرَجَةً حتّى يَجعَلَهُ اللهُ في أعلى عِلِّيِّينَ، ومَن تكَبَّرَ علَى اللهِ دَرَجَةً يَضَعْهُ اللهُ دَرجَةً حتّى يَجعَلَهُ في أسفلِ سافِلِينَ»[3].

١٠ـ تذكر أن المتكبر لا يحشر كما يحشر الناس بل سيكون أصغر شيء حتى يسحق بأقدام أهل المحشر كما ورد ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يُحشَرُ الجَبّارُونَ المُتَكَبِّرُونَ يومَ القِيامَةِ في صُوَرِ الذَّرِّ، يَطَؤهُمُ الناسُ لِهَوانِهِم علَى اللهِ تعالى»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٠٤، ح٣.

(٢) كنز العمال: ٧٧٩٤. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٢٠، ح١٧٢٧٧.

(٣) الترغيب والترهيب: ج٣، ص٥٦٠، ح٦. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٢٣، ح١٧٣٠٠.

(٤) المحجّة البيضاء: ج٦، ص٢١٥. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٥٢٣، ح١٧٣٠٢.

ـ السفه

كل جميل في باطنه يرغب أن يكون ذا ظاهر جميل أيضا فيسعى لنيل الفضائل ويجاهد نفسه ليتحلى بها، ومن هذه الفضائل التي يتمنى المرء التحلي بها الوقار والاتزان والتعقل وهذه الفضائل لا تجتمع مع السفه في حال من الأحوال لاسيما إذا عرفنا أن السفه كما ورد في كتب اللغة:

الخفة والطيش والجهل وعدم الحلم ورداءة الخلق[1].

وأمّا ما اصطلح عليه فالسفه: هو سلوك بعيد عن العقل والعلم والاحترام يسقط صاحبه من أعين الناس، فلذلك صار سببا في نفرة الأصدقاء والأحبة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إيّاكَ والسَّفَهَ، فإنّهُ يُوحِشُ الرِّفاقَ»[2].

بل قد يكون مدعاة لشتم صاحبه وإلحاق الضرر به كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«السَّفَهُ مِفتاحُ السِّبابِ»[3].

وفي قول آخر:

«السَّفَهُ يَجلِبُ الشرَّ»[4].

بل للسفه آثار وخيمة تدعو العاقل للهروب من هذه الصفة القبيحة.

---

(١) المعجم الوسيط: ص٣٤٣. المنجد الأبجدي: ص٥٥٢.
(٢) غرر الحكم: ٢٦٥٥. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٤، ح٨٦٤٢.
(٣) غرر الحكم: ٣١٣. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٤، ح٨٦٤٣.
(٤) غرر الحكم: ٨٣٤. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٤، ح٨٦٤٤.

أسئلة مهمة

السؤال: ما هو معنى السفه في نظر أهل البيت عليهم السلام؟.

الجواب: وصف أهل البيت عليهم السلام بعض الناس الذين يسلكون سلوكا مشينا من خلال معاشرة الوضيع والدوني، أو من يرتكب جريمة شرب المسكر كما في قول الإمامين الحسن والباقر عليهما السلام إذ يقول الإمام الحسن عليه السلام، لما سئل عن السفه:

«اتِّبَاعُ الدُّنَاةِ ومُصاحَبَةُ الغُواةِ»(١).

وقال الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾(٢).

«كُلُّ مَن يَشرَبُ المُسكِرَ فَهُوَ سَفِيهٌ»(٣).

السؤال: ما هي علامة السفيه؟.

الجواب: للسفيه علامات يعرف من خلالها وهي كما يلي:

١ـ يتجاوز على من هو أقل رتبة أو مقاما، وينقاد ويطيع لمن هو أعلى منه رتبة ومقاما كما في قول الإمام الصادق عليه السلام:

«إنَّ السَّفَهَ خُلُقٌ لَئيمٌ يَستَطِيلُ على مَن (هو) دُونَهُ، ويَخْضَعُ لِمَن (هو) فَوقَهُ»(٤).

٢ـ السفيه من يبذر الأموال ويجهل التصرف بها كما دل على ذلك قول الإمام أبي عبد الله عليه السلام عندما سأله سنان: وما السَّفيهُ؟

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٠٤، ح٢. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٥، ح٨٦٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥.

(٣) تفسير العيّاشي: ج١، ص٢٢٠، ح٢٢. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٥، ح٨٦٥٤.

(٤) الكافي: ج٢، ص٣٢٢، ح١. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٥، ح٨٦٥٥.

فقال عليه السلام:

«الذي يَشتَرِي الدِّرهَمَ بِأضعافِهِ»[١].

السؤال: كيف نتعامل مع السفيه؟.

الجواب: هناك مجموعة إرشادات وآداب للتعامل مع السفيه صدرت عن أهل البيت عليهم السلام وهي كالآتي:

١ـ قابل السفيه بسعة الصدر وعدم الوقوع في الغضب كما قال الإمام علي عليه السلام:

«مَن غاظَكَ بِقُبحِ السَّفَهِ عَلَيْكَ، فَغِظهُ بِحُسنِ الحِلمِ عَنهُ»[٢].

٢ـ ترك الرد على مخاطبة السفيه وترك العتب معه لما فيه من ضرر كبير، وهذا ما أشار إليه الإمام علي عليه السلام:

«مَن عَذَلَ سَفيهاً فقد عَرَّضَ للسَّبِّ نَفسَهُ»[٣].

بحث عقائدي

ـ الغلو

الغلو انحراف عقائدي وزلل أخلاقي يذهب بصاحبه إلى حيث الابتعاد عن الإنصاف ومجانبة الحقيقة، بل يسلك بقلب من ابتلى به في طريق الدنس والقذارة ويسير بعقل المتوهم في طريق الاعوجاج والتعثر، فلذا نجد القرآن الكريم حذر أهل الكتاب من هذا البلاء الفاقر للعقل والدين بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا

(١) تهذيب الأحكام: ج٩، ص١٨٢، ح٧٣١. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٥، ح٨٦٥٦.

(٢) غرر الحكم: ٨٦٢٠. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٥، ح٨٦٥٨.

(٣) غرر الحكم: ٩١٧١. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٧٥٦، ح٨٦٦٠.

ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[١].

أي لا تضعوا عيسى بن مريم فوق ما وضعه ربه ولا تصفوه بغير ما وصفه فإن فعلكم هذا خلاف الدين الذي أراده الله تعالى لكم، فجعلكم المسيح عليه السلام إلها يعبد مع الله تعالى هو عين الزيغ لاسيما وأنتم تعلمون أن المسيح عليه السلام بشر محتاج يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فكيف يرتقي إلى الغنى المطلق وهذا المعنى أكده القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٢].

الإمام الحسين عليه السلام يحذر من الغلو

وصف الإمام الحسين عليه السلام الغلو بأنه مشكلة عويصة لا حل لها إلا بالتخلص من أسبابه فلذا نجده عليه السلام يقول:

«والغلوّ ورطة».

ولكي يتضح لنا معنى قول الإمام عليه السلام لابد من معرفة مفهوم الغلو لغة واصطلاحا:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٧٩ و٨٠.

الغلو لغة: الزيادة والارتفاع ومجاوزة الحد، وغلو المرء في الدين تشدد وجاوز الحد وأفرط(١).

الغلو اصطلاحا: تجاوز الحد الذي بينته الشريعة وفرضه العقل في العقائد والتكاليف الدينية.

فالغلو يجعل العقيدة فاسدة ويخيب أمل صاحبه إذ يتوهم أنه ينال القرب الإلهي من خلال اعتقاده بهذه الطريقة، ولأن الاعتقاد أو التخلق بصفة ما لابد أن يكون بعيدا عن الإفراط والتفريط جاءت الأحاديث الشريفة تترى لتبيّن انحراف المرء الذي يغالي في عقيدته أو في أخلاقه كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«رَجُلانِ لا تَنالُهُما شَفاعَتي: صاحِبُ سُلطانٍ عَسوفٌ غَشومٌ، وغالٍ في الدِّينِ مارِقٌ»(٢).

ثم ركزت الأحاديث التي صدرت عن النبي وأهل بيته الكرام صلوات الله عليهم على الغلو كونه خروجاً عن الجادة المستقيمة والرأي الصائب، بل هو ابتعاد عن الإسلام كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«صِنْفَانِ مِن أمَّتِي لاَ نَصِيبَ لَهُمَا في الإسْلامِ: الغُلاةُ وَالقَدَرِيَّةُ»(٣).

ـ الشيعة براء من الغلو

اتهم الكثيرون الشيعة بأنهم يغالون في عقيدتهم بإمامة أهل البيت عليهم السلام وبدأوا بإطلاق الأحكام الجائرة عليهم فتارة يصفونهم بالكفر وأخرى باليهود وثالثة بالشرك كما جاء ذلك في بعض كتب القوم كقول:

---

(١) المعجم الوسيط: ص٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٦٩، ح١٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٢، ح١٥٢٥٠.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٧٠، ح١٤. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٢، ح١٥٢٥١.

الدكتور الشعيبي (وأول هذه الفكرة ــ فكرة الغلو ــ نادى بها أصحاب حجر بن عدي الذين قتلوا صبرا بسبب تكفيرهم للخليفة عثمان، وامتناعهم عن البراءة من الإمام علي عليه السلام. ويقول صاحب الملل (والغلاة من الشيعة مذهبهم الحلول)[١].

إلا أن الشيعة براء من ذلك، بل أنهم ملتزمون بأوامر أهل البيت عليهم السلام التي تنهى عن الغلو وتصف المغالين بالكفر كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام:

«الغلاة كفار والمفوضة مشركون...»[٢].

ـ سؤال مهم

السؤال: هناك روايات في كتب معينة تصوّر أمير المؤمنين عليه السلام بأنه يمارس دور الإله سبحانه كالتصوير في الأرحام أو توزيع الأرزاق أو غير ذلك مما هو معروف بالصفات الأفعالية، فما هو قولكم؟

الجواب: رد أهل البيت عليهم السلام على من يقول مثل ذلك القول بالأحاديث الآتية:

١ــ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«يَهلِكُ فِيَّ رَجُلانِ: مُحِبٌّ مُفرِطٌ يُقَرِّظُني بما ليسَ لي، ومُبغِضٌ يَحمِلُهُ شَنَآني على أن يَبهَتَني»[٣].

٢ــ عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«مَن تَجاوَزَ بأميرِ المؤمنينَ عليه السلام العُبوديَّةَ فهُو مِنَ المَغضوبِ علَيهِم ومِنَ الضالِّينَ»[٤].

(١) الملل والنحل، الشهرستاني: ج١، ص١٠٨.

(٢) عيون أخبار الرضا للصدوق: ج١، ص٢١٩، ح٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٨٥، ح٣٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٣، ح١٥٢٥٦.

(٤) بحار الأنوار: ج٢٥، ح٢٧٤، ح٢٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٤، ح١٥٢٦٥.

٣ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله أبو بصير، قال: عن أبي بصير قال: قلتُ لأبي عبدِ اللهِ علَيهِ الصَّلاةُ والسلامُ: إنّهم يقولونَ! قال عليه السلام:

«وما يَقولونَ؟».

قلتُ: يقولونَ: يَعلَمُ قَطْرَ المَطَرِ، وعَدَدَ النُّجومِ ووَرَقَ الشَّجَرِ، ووَزنَ ما في البَحرِ، وعَددَ التُّرابِ، فَرَفَعَ يَدَهُ إلَى السَّماءِ وقالَ عليه السلام:

«سبحانَ اللهِ سبحانَ اللهِ، لا واللهِ ما يَعلمُ هذا إلاّ اللهُ»[1].

إلا أننا نرى أن فضل أهل البيت عليهم السلام لا يدانيه فضل بعد جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فلذلك قالوا بعض الأحاديث التي تخرج الإنسان عن حد الإفراط والتفريط كقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إيّاكُم والغُلُوَّ فينا، قُولُوا إنّا عَبيدٌ مَربُوبُونَ، وقُولوا في فَضلِنا ما شِئتُم»[2].

وقوله عليه السلام:

«لا تَتَجاوَزوا بنا العُبودِيَّةَ ثُمّ قُولوا ما شِئتُم ولَن تَبلُغُوا، وإيّاكُم والغُلُوَّ كَغُلُوِّ النَّصارى؛ فإنّي بَريءٌ مِنَ الغالِينَ»[3].

وقول الإمام المهدي عليه السلام لمحمّد بن هلالٍ الكرخي:

«يا محمّدُ بنَ عليٍّ، تعالَى اللهُ عَزَّ وجلَّ عمّا يَصِفُونَ، سبحانَهُ وبِحَمدِهِ، ليسَ نَحنُ شُرَكاءَهُ في عِلمِهِ، ولا في قُدرَتِهِ»[4].

هذا الحديث الشريف يؤكد عدم جواز القول بألوهية أهل البيت عليهم السلام أو أداء أفعال الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٩٤، ٥٢. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٥، ح١٥٢٧١.

(٢) الخصال: ص٦١٤، ح١٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٥، ح١٥٢٦٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٧٤، ح٢٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٥، ح١٥٢٦٨.

(٤) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٦٦، ح٩. ميزان الحكمة: ج٧، ص٣٠٤٥، ح١٥٢٧٣.

بحث أخلاقي

الفِسق

ورد ذكر هذه الدنية في الكتاب الكريم بأنها ارتكاب المنكر وفعل المحرمات وتجاوز الحدود وترك حكم الحق سبحانه وظلم العباد وإفساد البلاد وإنكار الكتب السماوية وعدم الإيمان بالأنبياء والرسل، ولكي نقف على بعض الآيات الكريمة التي ذكر فيها الفسق وصفا لعمل الحرام وذم الفاسقين لانحرافهم عن الشريعة الحقة فلابد أن نبوّب هذه الآية الكريمة كالآتي:

١ـ ذكر الفسق وصفا لفعل الحرام كما في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

٢ـ ذكر الفسق وصفا لآكلي اللحم غير المذكى كما في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

٣ـ ذكر الفسق وصفا للقذارات والنجاسات التي يجب التنزه عنها كما في قوله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

٤ـ ذكر الفسق وصفا للذين لم يؤمنوا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[2].

٥ـ ذكر الفسق وصفا للذين لم يحكموا بالشريعة الإسلامية كما في قوله تعالى:

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[3].

٦ـ ذكر الفسق وصفا للمنافقين في قوله تعالى:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[4].

وقال الله عزّ وجل:

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[5].

٧ـ ذكر الفسق وصفا للذين لم يؤمنوا بالله ورسوله في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1].

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي يضيق بذكرها المقام تركناها للاختصار.

ـ الفسق والفاسق في نظر أهل البيت عليهم السلام

الحديث عن الفسق والفاسقين في القرآن الكريم كثير بعدد الفاسقين في الأرض إلا أننا نريد أن نطلع على حديث العدل الثاني للقرآن ألا وهم أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فلقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام بيانٌ لمفهوم الفسق وتوضيحٌ لصفة الفاسق كما في قوله عليه السلام:

«ومَعنَى الفِسقِ: فَكُلُّ مَعصيَةٍ مِنَ المَعاصِي الكِبارِ فَعَلَها فاعِلٌ، أو دَخَلَ فيها داخِلٌ بِجِهَةِ اللذَّةِ والشَّهوَةِ والشَّوقِ الغالِبِ، فهُو فِسقٌ وفاعِلُهُ فاسِقٌ خارِجٌ مِن الإيمانِ بجِهَةِ الفِسقِ، فإن دامَ في ذلكَ حتّى يَدخُلَ في حَدِّ التَّهاوُنِ والاستِخفافِ، فقد وَجَبَ أن يكونَ بِتَهاوُنِهِ واستِخفافِهِ كافِراً»[2].

وورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قول يدل على الفاسق ويشير إليه، فهو الإنسان الذي يلهو بما حرم الله تعالى والذي يتعاطى الكلام المحرم كالغناء أوالخوض في الباطل، والذي يتجاوز حدود الله تعالى ويعتدي على عباده ظلما وطغيانا، والذي يكيل التهم الباطلة لغيره كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أمّا علامَةُ الفاسِقِ فأربَعةٌ: اللهوُ واللغوُ والعُدوانُ والبُهتانُ»[3].

وحذر أمير المؤمنين عليه السلام من الانقياد والامتثال لأوامر المتكبرين وإن كانوا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٧٨، ح٣١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١٠، ح١٥٩١٣.

(٣) تحف العقول: ص٢٢. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١١، ح١٥٩١٤.

من سادة وقادة القوم لما في ذلك من أثر سيئ كما في قوله عليه السلام:

«ألا فالحَذَرَ الحَذَرَ مِن طاعَةِ ساداتِكُم وكُبَرائكُمُ الذينَ تَكَبَّروا عَن حَسَبِهِم، وتَرَفَّعُوا فَوقَ نَسَبِهِم... فإنَّهُم قَواعِدُ أساسِ العَصبيَّةِ، ودَعائمُ أركانِ الفِتنَةِ... وهُم أساسُ الفُسُوقِ، وأحلاسُ العُقوقِ»[1].

ووصف الإمام علي عليه السلام الفاسق بأنه يفعل الحرام برغبة ومحبة دون نفور وتردد بل يبقى ملازما للحرام حتى يصيبه الوهن وتعطله الشيخوخة كما قال عليه السلام:

«آثَرُوا عاجِلاً وأخَّروا آجِلاً، وتَرَكُوا صافِياً وشَرِبُوا آجِناً، كَأنِّي أنظُرُ إلى فاسِقِهِم وقد صَحِبَ المُنكَرَ فَألِفَهُ، وبَسِئَ بِهِ ووافَقَهُ، حتّى شابَت علَيهِ مَفارِقُهُ، وصُبِغَت بِهِ خلائقُهُ»[2].

ـ آثار الفسق

عند تأمل الآيات الكريمة في القرآن الكريم نقف على العواقب السيئة للفسق، وهي كما يلي:

١ـ الفسق يوجب هلاك الأمم وعذاب الدنيا قبل الآخرة كما في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[3].

٢ـ الفسق يوجب الدخول في جهنم كما في قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[4].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١١، ح١٥٩١٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٤٤. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٢١١، ح١٥٩١٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

٣ـ الفسق يوجب العذاب الشديد الذي يجعل الطغاة والجبابرة أذلاء كما في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[1].

٤ـ الفسق يوجب سقوط العذاب من السماء على الفاسقين كما في قوله تعالى:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[2].

٥ـ الفسق يوجب عدم الثقة بصاحبه كما في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[3].

٦ـ الفسق يوجب الضلال وعدم الهداية والإيمان كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١].

٧ـ الفسق يوجب عدم قبول الأعمال كما في قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[٢].

٨ـ الفسق يوجب عدم رضى الله تعالى عن الفاسقين:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٣].

٩ـ يكون الفاسق بمنزلة فرعون وقومه كما في قوله تعالى:

﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[٤].

١٠ـ الفسق يوجب الخزي يوم القيامة كما في قوله تعالى:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٥].

١١ـ الفسق يوجب زيغ القلوب وانحرافها عن الحق كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.

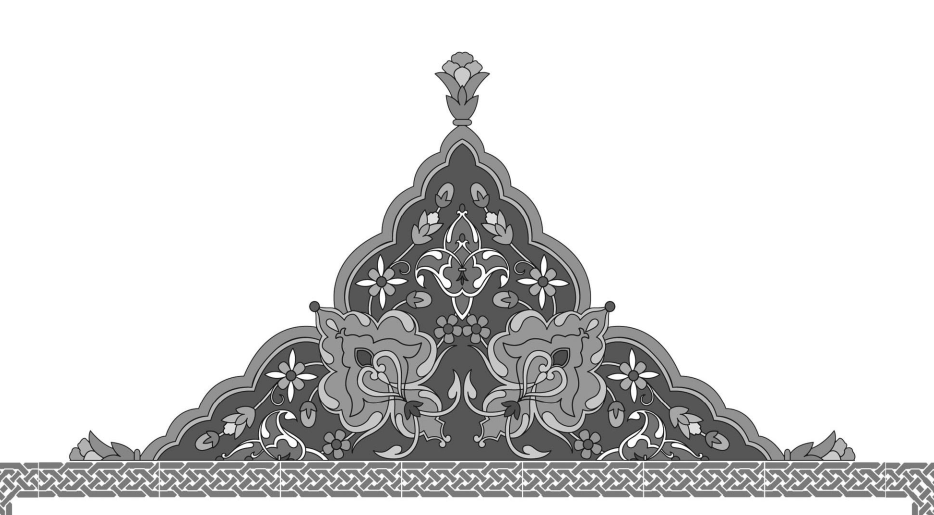
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٣٢.

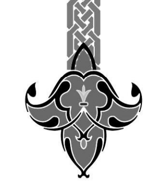
(٥) سورة الحشر، الآية: ٥.

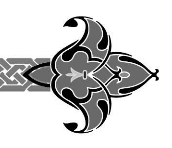
(٦) سورة الصف، الآية: ٥.



الخطبة الخامسة

وفيها يذمّ الدّنيا ويحذّر منها





خطبها غداة اليوم الذي استشهد فيه، حمدَ الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال:

نص الخطبة

(يا عِبَادَ اللهِ، اتّقُوا اللهَ، وكُونُوا مِن الدُّنْيا عَلى حَذَرٍ، فإنَّ الدُّنْيا لو بقِيَتْ عَلى أحَدٍ أو بَقي عليها أحَدٌ لَكانَتِ الأنْبياءُ أحَقَّ بالبَقاءِ، وَأوْلَى بالرِّضاء، وَأرْضى بالقَضاءِ، غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الدُّنيا للفَناءِ، فَجَديدُها بالٍ، وَنَعِيمُها مُضْمَحِلٌّ، وَسُرُورُها مُكْفَهِرٌّ، والمَنْزِلُ تَلْعَةٌ، والدَّارُ قُلْعَة، فَتَزَوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُون).

المعنى العام

يا أيها الخاضعون والمنقادون والمملوكون لله تعالى، اخشوا الله تعالى، كونوا من الدنيا متيقظين ومحترزين، إن الدنيا لو دامت وثبتت لأحد أو دام وثبت عليها أحد لكانت مجموعة الأنبياء أحق من غيرهم بالدوام والخلود، وأجدر بالقبول والاختيار، وأشد قبولا بالحكم، إلا أن الله تعالى صنع الدنيا وأبدعها للانتهاء والإبادة، فالحديث أو الطري من الدنيا يصبح قديما وعتيقا ويعفى عليه الزمن، وطبب عيشها ورفاهيتها قليل متلاشٍ، وفرصها منقبض كالح لا يرى فيه أثر بشر ومكان النزول عميق مخيف والدار دار ارتحال وعدم استقرار، اتخذوا زاداً لمعادكم وأن أفضل الزاد هي خشية الله تعالى وطاعته، وبهذا الزاد تصلون إلى الفوز والنجاح.

بحث أخلاقي

ذم الدنيا

عندما نتأمل الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نشعر بأن لسانها لسان ذم واستصغار، ونلمس في كثرتها شدة التحذير من الاغترار بها والانتماء في شهواتها والافتتان بزبرجدها، فهذه الدنيا لا تساوي عند الله تعالى جزءاً من مخلوق ضعيف كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لو أنّ الدنيا كانَت تَعدِلُ عند اللهِ عَزَّوجلَّ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى الكافِرَ والفاجرَ مِنها شَربَةً مِن ماءٍ»[1].

فلذا يتوجب على العقلاء أن يحتقروا هذه الدنيا الدنية التي صارت ميدانا لمعصية المولى المنعم جل ذكره والتي قطع في حبها رأس نبي الله يحيى بن زكريا عليه السلام ورأس سيد شباب أهل الجنة عليه السلام فداروا به في البلدان، ولهذه الدنيا المذمومة مجموعة خصائص تميزها عن الدنيا المباحة التي لا ينالها لسان الذم والتحذير وهي كما يلي:

١ـ إذا كانت توجب الاغترار.

٢ـ إذا كانت توجب الخسران.

٣ـ إذا كانت توجب الخروج عن سلوك العقلاء.

٤ـ إذا كانت توجب عدم الصفاء والاستقرار.

٥ـ إذا كانت توجب الشر والباطل.

٦ـ إذا كانت توجب الذل والهوان.

---

(١) أمالي الطوسي: ص٥٣١، ح١١٦٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٤، ح٥٩٥٤.

وهناك الكثير من الخصائص أو الآثار السلبية التي تمتاز بها الدنيا المذمومة فلذا جاءت الأحاديث الشريفة تترى لتبين سوء عاقبة من يتعلق بزخارفها وزبرجدها كما ورد عن أهل بيت العصمة عليهم السلام:

ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«حُبُّ الدُّنيا أصلُ كل مَعصِيَة وَأوّلُ كُل ذَنب»[1].

ـ وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إنّ الدُّنيا لَمُفسِدَة الدّين ومُسلّبَةُ اليَقين، وانّها لَرأسُ الفِتَن وأصلُ المِحَن»[2].

ـ وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من بغض الدنيا، فإن لذلك لشعبا كثيرة، وللمعاصي شعب، فأول ما عُصي الله به الكبر معصية إبليس حين:

﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3].

ثم الحرص وهي معصية آدم وحوا عليهما السلام حين قال الله عزّ وجل لهما:

﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة، وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه.

ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب

---

(١) تنبيه الخواطر: ج٢، ص١٢٢. ميزان الحكمة: ج٢، ص٨٩٦، برقم ١٢٢١، حب الدنيا رأس كل خطيئة.

(٢) غرر الحكم: ٤٨٧٠. ميزان الحكمة: ج٢، ص٨٩٦، برقم ١٢٢١، حب الدنيا رأس كل خطيئة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

النساء، وحب الدنيا، وحب الرياسة، وحب الراحة، وحب الكلام، وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن في حب الدنيا فقالت الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا دنياءان دنيا بلاغ ودنيا ملعونة»[١].

ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن أول ما عُصي الله به ست: حب الدنيا، وحب الرياسة، وحب الطعام، وحب النساء، وحب النوم، وحب الراحة»[٢].

أسئلة مهمة

السؤال: هل أن بغض الدنيا يعني عدم جواز التمتع بلذائذها؟

الجواب: كلا: إن بغض الدنيا يختص بالدنيا التي تكون سببا للوقوع في الحرام، وكذلك يعني بغضا للذاها التي حرمها الله تعالى وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة التالية:

قال الله تبارك وتعالى:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[٣].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٧، ص١٩، ح٩.

(٢) المحاسن للبرقي: ج١، ص٢٩٥، ح٤٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

وقال عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

وقال تبارك وتعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

وهناك الكثير من الآيات التي يستشعر منها ذم الدنيا.

السؤال: متى يجوز حب الدنيا؟

الجواب: عندما تكون وسيلة للقرب الإلهي، وتكون ميداناً للعمل الصالح، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة والروايات الآتية:

قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

٢ ـ وردت أحاديث شريفة تؤكد أن الدنيا مزرعة الآخرة كما في قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«الدنيا مَزرَعةُ الآخِرَةِ»[2].

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«بالدنيا تُحرَزُ الآخِرَةُ»[3].

إن الدنيا المبغوضة هي التي تمنع الإنسان عن بلوغ درجة الكمال وذلك من خلال حبها والتعلق بها إلى درجة نسيان الآخرة، وهذا ما ورد في الأحاديث الشريفة الآتية:

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّهُ ما سَكَنَ حبُّ الدنيا قلبَ عبدٍ إلاّ الْتاطَ فيها بثلاث: شُغلٍ لا ينفَدُ عَناؤهُ، وفَقرٍ لا يُدرِكُ غِناهُ، وأمَلٍ لا يُنالُ مُنتَهاهُ»[4].

ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَن تَعَلَّقَ قلبُهُ بالدنيا تَعَلَّقَ قلبُهُ بثلاثِ خصالٍ: هَمٍّ لا يفنى، وأمَلٍ لا يُدرَكُ، ورجاءٍ لا يُنالُ»[5].

ـ وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٩٧ و٩٨ و٩٩.

(٢) عوالي اللآلي: ج١، ص٢٦٧، ح٦٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٣، ح٥٧٤٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٣، ح٥٧٤٦.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٧، ص١٨٨، ح٣٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٣، ح٥٨٣٣.

(٥) الكافي: ج٢، ص٣٢٠، ح١٧. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٣، ح٥٨٣١.

«مَن كانت الدنيا هِمَّتَهُ اشتَدَّتْ حَسرَتُهُ عِند فِراقِها»[١].

ـ التمتع بلذائذ الدنيا ليس حراما إذا كان مما يصلح شأن العبد بل لا يعد حبا للدنيا بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَيْسَ مِن حُبِّ الدنيا طَلَبُ ما يُصْلِحُكَ»[٢].

ويظهر من الروايات الشريفة أن هناك شروطا تجعل التمتع بلذائذ الدنيا مقبولاً عند أهل البيت علهيم السلام بدليل قول الإمام الكاظم عليه السلام:

«اجعَلوا لأنفُسِكُم حظّاً مِن الدنيا بإعطائها ماتَشتَهي مِن الحلالِ وما لا يَثلِمُ المُروّةَ وما لا سَرَفَ فيهِ، واستَعِينوا بذلكَ على أمورِ الدِّينِ، فإنّهُ رُوِيَ: ليسَ مِنّا مَن تَرَكَ دُنياهُ لِدينِه، أو تَرَكَ دِينَهُ لِدُنياهُ»[٣].

١ـ أن لا تتجاوز الضرورة والحاجة، بدليل قول الإمام الكاظم عليه السلام:

«ليسَ مِنّا مَن تَرَكَ دُنياهُ لِدينِه، أو تَرَكَ دِينَهُ لِدُنياهُ».

٢ـ أن لا تسبب ضررا لصاحبها أو لغيره، بدليل وصية لقمان الحكيم لابنه:

(يا بُنَيَّ، لا تَدخُلْ في الدنيا دُخولاً يَضُرُّ بآخِرَتِكَ، ولا تَترُكْها تَرْكاً تكونُ كَلاًّ عَلَى النَاسِ)[٤].

السؤال: لماذا أكد أهل بيت العصمة عليهم السلام على ضرورة ترك ما تجاوز الحاجة من الدنيا؟

الجواب: لا يشك عاقل أن لنفسه عليه حقا ينبغي أن يعطيها إياه، فإذا أعطى

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٨١، ح٣٤. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٣، ح٥٨٣٥.

(٢) كنز العمال: ٥٤٣٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٢، ح٥٨٢٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٣٢١، ح١٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٣١، ح٦٠٠٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٣، ص١٢٤، ح١١٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٣١، ح٦٠٠٤.

نفسه حقها سلم من الدخول في عنوان الظالمين بل دخل في ربقة المنصفين ونجا من مكائد الشيطان، ولكي يتضح الأمر حليا نقف على أحاديث أهل البيت عليهم السلام ليعرفونا أسباب تأكيدهم على ذلك:

١ـ يؤكد أمير المؤمنين عليه السلام على أن ما زاد عن الحاجة في هذه الدنيا ليس من نصيب صاحبه كما في قوله عليه السلام لرجلٍ شكا إليه الحاجةَ:

«اِعلَم أنّ كلَّ شيءٍ تُصيبُهُ مِن الدنيا فوقَ قُوتِكَ فإنّما أنتَ فيهِ خازنٌ لِغَيرِكَ»[١].

٢ـ إن الاهتمام بتحصيل ما هو فائض عن الحاجة يؤدي إلى خسران العمر ودنو الأجل كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«هَؤلاءِ أنبياءُ اللهِ وأصفياؤُهُ تَنَزَّهوا عنِ الدنيا... ثُمّ اقتَصَّ الصالحونَ آثارَهُم... وأنزَلُوا الدنيا مِن أنفسِهِم كالمِيتَةِ التي لا يَحِلُّ لأحَدٍ أن يَشبَعَ منها إلاّ في حالِ الضرورةِ إلَيها، وأكَلُوا مِنها بقَدرِ ما أبقَى لَهُم النَّفسَ وأمسَكَ الرُّوحَ، وجَعَلُوها بمنزلةِ الجِيفةِ التي اشتَدَّ نَتنُها، فَكُلُّ مَن مَرَّ بِها أمسَكَ على فِيهِ، فَهُم يَتَبَلَّغُونَ بأدنَى البلاغ...»[٢].

٣ـ الاكتفاء بالضرورة مما ينجي من شدة العذاب كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«فِرُّوا مِن فُضولِ الدنيا كما تَفِرُّونَ مِن الحرامِ، وهَوِّنوا على أنفسِكُم الدنيا كما تُهَوِّنُونَ الجيفةَ، وتُوبُوا إلى اللهِ مِن فُضولِ الدنيا وسيّئاتِ أعمالِكُم، تَنجُوا مِن شِدَّةِ العذابِ»[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٣، ص٩٠، ح٦١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٥، ح٥٧٦٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٣، ص١١٠، ح١٠٩، ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٦، ح٥٧٦٩.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٥٤، ح١٣٤٩٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٧، ح٥٧٧٥.

السؤال: ما هو المراد من الزهد في الدنيا؟

الجواب: قبل الخوض في جواب هذا السؤال الذي يصلح أن يكون كتابا خاصا بالزهد، لابد أن أوضح أمراً في غاية الأهمية فأقول:

لا شك أننا نحب درجة الزاهدين ونتمنى منزلتهم في الآخرة، وقد يبادر بعضنا للإتصاف بالزهد ولكن دون جدوى، لأن مجرد حب درجة الزاهدين وتمنيها لا يفي بالغرض بل لابد من مجاهدة النفس وتخليصها من علائق الدنيا وحبائلها قولا وفعلا، وأود أن أضيف أيضا أن التكلم عن الزهد والزاهدين دون التلبس به عمليا أمر مخجل جدا إلا إذا قصدنا تحصيل الثواب من تذكير المؤمنين به وحثهم عليه من باب حب لغيرك ما تحب لنفسك.

بعد هذه المقدمة البسيطة والصادقة والصريحة نعطف البحث إلى معنى الزهد في نظر أهل بيت العصمة والطهارة عليه السلام فأقول:

١ـ الزهد هو الثقة بالله تعالى والرغبة في عطاياه كما ورد ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الزَّهادَةُ في الدُّنيا لَيسَت بِتَحريمِ الحَلالِ ولا إضاعَةِ المالِ، ولكنَّ الزَّهادَةَ في الدنيا أن لا تكونَ بما في يَدَيكَ أوثَقَ مِنكَ بما في يَدِ اللهِ، وأن تكونَ في ثَوابِ المُصيبَةِ إذا أنتَ أصِبتَ بها أرغَب مِنكَ فيها لو أنَّها أُبقِيَتْ لَكَ»[1].

٢ـ الزهد هو أن لا نتعامل مع مفردات الحياة الدنيا كما يتعامل معها أهل الدنيا فلا تفرح إلى درجة البطر بما نناله منها ولا نحزن إلى درجة الجزع لما فقدناه منها وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«الزُّهدُ كُلُّهُ في كَلِمَتَينِ مِنَ القُرآنِ، قالَ اللهُ تعالى:

---

(١) كنز العمال: ٦٠٥٩. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٥٦٧، ح٧٧٠٣.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(١).

فَمَن لمْ يَأْسَ عَلَى الماضِي ولمْ يَفرَحْ بالآتي فهُو الزاهِدُ»(٢).

٣ـ الزهد هو أن نعيش ذكر الموت دائما، ولا نغرق في الأماني والطموحات التي تنسينا زيارة ملك الموت المفاجئة لنا، وأن نؤدي حقوق الله تعالى من خلال الابتعاد عن المعاصي وأداء الواجبات أما خوفا أو طمعا أو شكراً وهذا ما صرح به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«الزُّهدُ في الدنيا قَصرُ الأمَلِ، وشُكرُ كُلِّ نِعمَةٍ، والوَرَعُ عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ»(٣).

٤ ـ الزهد هو التنزه عن حب الظهور والمدح، وعدم الانشغال عن الكمال وتزكية النفس من أوساخ الدنيا وهجر كل ما هو لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وترفع عن الشهوات المحرمة وهذا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الزُّهدُ مِفتاحُ بابِ الآخِرَةِ، والبَراءَةِ مِنَ النّارِ، وهُو تَركُكَ كُلَّ شيءٍ يَشغَلُكَ عنِ اللهِ، مِن غَيرِ تَأسُّفٍ على فَوتِها، ولا إعجابٍ في تَركِها، ولا انتِظارِ فَرَجٍ مِنها، ولا طَلَبِ مَحمَدَةٍ علَيها، ولا عِوَضٍ مِنها، بل تَرى فَوتَها راحَةً وكَونَها آفَةً، وتكونُ أبداً هارِباً مِنَ الآفَةِ، مُعتَصِماً بِالرّاحَةِ»(٤).

السؤال: ما هو مراد القرآن الكريم (اعلموا إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم)؟

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٧٠، ح٢٧. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٥٦٦، ح٧٦٩٥.

(٣) تحف العقول: ص٥٨. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٥٦٧، ح٧٧٠٠.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣١٥، ح٢٠.

الجواب: لا نريد أن نفسر هذه الآية الكريمة ولكن لنا أن نقول ما يلي:

إن الله تعالى حكيم خلق الخلق لغرض وهدف سام كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

فيعلم من هذه الآية الكريمة سر وجود الإنسان على هذه الأرض، إذ وجد الإنسان لكي يصل إلى كماله وقربه الإلهي وهذا لا يتم إلا من خلال ما شرعه الله تعالى من شرائع،، ونهجه من مناهج، وسنه من سنن، فالالتزام بهذا كله يؤدي إلى الغاية السامية ويحقق الغرض الحكيم، فإذا اتضح هذا يتضح أن الابتعاد عن الشرائع والسنن والاشتغال بغيرها هو عين اللهو واللعب لخلوه من الغرض والنفع الحقيقي فيكون مثل المنشغل بأمور الدنيا كمثل الطفل الذي يلعب مع أقرانه لمجرد التسلية واللعب ثم يرجع بعدها إلى بيته يبحث عمّا ينفعه من طعام وشراب ومأوى، فإذن يمكن أن نُسمي الأفعال الخالية من الأغراض السامية والأهداف النبيلة لعبا، ونطلق على كل ما يشغلنا عما خلقنا لأجله بأنه لهو، ونعدّ ما نتظاهر به من صلاح وحب للخير دون أن يكون له وجود في باطننا زينة، ويلزم من تباهينا في الأحساب والأنساب والثروة والمناصب دون التقوى تفاخر لا قيمة له عند الله تعالى.

فلذا ينبغي للعقلاء أن يجعلوا لأفعالهم أغراضا نبيلة ترضي الله تعالى وتقربهم إليه لكي لا ينطبق عليهم عنوان اللاعبين، وأن ينتبهوا إلى ذكر الله تعالى فلا يشغلهم تجارة ولا بيع ولا أولاد عن ذلك فيخرجوا عن مصداق أهل اللهو، وأن يطابق ظاهرهم باطنهم في الصلاح فتكون زينتهم أخروية وليست زينة دنيوية، وأن يبتعدوا عن التعالي بالقشور كالأحساب والشهرة والمال والمناصب ويتحلوا بالتقوى فينالوا الكرامة الإلهية.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

السؤال: كيف نفسر عبادة الناس للدنيا وما هي صفات عبيد الدنيا؟

الجواب: الإنسان مفطور على الإسلام والتسليم والانقياد لله تعالى، فإذا صان فطرته وحفظها من الانحراف دامت سلامتها وظل عبداً صالحا، وإذا تغيرت هذه الفطرة بالأفكار السقيمة وعصفت بها وساوس الشيطان وغلبة الهوى صار صاحبها عبداً للدنيا دون الله تعالى ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«مَن أحَبَّ الدِّينارَ والدِّرهَمَ فهو عَبدُ الدُّنيا»[١].

وورد عنه أيضا قوله عليه السلام:

«قد خَرقَتِ الشَّهَواتُ عقلَهُ، وأماتَتِ الدنيا قَلبَهُ، ووَلِهَتْ عليها نَفسُهُ فهو عَبدٌ لها ولِمَنْ في يَدَيهِ شيءٌ مِنها، حيثُما زالَتْ زالَ إلَيها، وحيثُما أقبَلَتْ أقبَلَ عَلَيها»[٢].

وأمّا صفات عبيد الدنيا فقد جاء في حديث المعراج بيان ذلك:

(أهلُ الدنيا مَن كَثُرَ أكلُهُ وضِحكُهُ ونَومُهُ وغَضَبُهُ، قليلُ الرِّضا، لا يَعتَذِرُ إلى مَن أساءَ إلَيهِ، ولا يَقبَلُ مَعذِرَةَ مَن اعتَذَرَ إلَيهِ، كَسلانُ عِندَ الطاعَةِ، شُجاعٌ عِندَ المَعصِيَةِ، أمَلُهُ بعيدٌ، وأجلُهُ قريبٌ، لا يُحاسِبُ نفسَهُ، قليلُ المَنفَعَةِ، كثيرُ الكلامِ، قليلُ الخَوفِ، كثيرُ الفَرَحِ عِندَ الطَّعامِ.

وإنَّ أهلَ الدنيا لا يَشكُرُونَ عِندَ الرَّخاءِ، ولا يَصبِرُونَ عِندَ البلاءِ، كثيرُ الناسِ عِندَهُم قليلٌ، يَحمَدُونَ أنفسَهُم بما لا يَفعَلونَ، ويَدَّعونَ بما لَيس لَهُم، ويَتَكَلَّمونَ بما يَتَمَنَّونَ، ويَذكُرونَ مَساوِيَ الناسِ ويُخفُونَ حَسَناتِهِم.

قالَ: يا ربِّ هَل يكونُ سِوَى هذا العَيبِ في أهلِ الدنيا؟ قالَ: يا أحمدُ، إنَّ عَيبَ أهلِ الدنيا كثيرٌ فيهِمُ الجَهلُ والحُمقُ، لا يَتواضَعونَ لِمَن يَتَعَلَّمونَ مِنهُ، وهُم عِندَ

(١) الخصال: ص١١٣، ح٩١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٠، ح٥٩٢٦.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٠، ح٥٩٢٩.

أنفُسِهِم عُقَلاءُ وعِندَ العارِفينَ حُمَقاءُ)[1].

السؤال: ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2].

كيف صارت كذلك؟

الجواب: ذكر العلماء عدة أوجه لتفسير هذا الحديث الشريف وهي كما يلي:

عن المحدث الحر العاملي (عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وهذا الحديث مستفيض من طرق العامة والخاصة، والإشكال فيه: أن كثيراً من المؤمنين حالهم في الدنيا في نهاية الاستقامة والسعة؛ وكثيرتً من الكفار حالهم في الدنيا في نهاية الضيق والعسر؛ ويمكن دفع هذا الإشكال بوجوه.

الأول: إن المؤمن وإن كان حاله في الدنيا في سعة ويسر إلا أنه بالنسبة إلى حاله في الآخرة ومحله فيها سجن في الدنيا والكافر بعكس ذلك، وهذا الجواب مروي عن أبي محمد الحسن عليه السلام حين اعترض عليه اليهودي فأجابه بهذا الجواب.

الثاني: أن يكون محمولا على الأغلبية بالنسبة إلى جميع المؤمنين وجميع الكفار والبناء على الغالب جائز في سائر المقامات.

الثالث: إن المؤمن في الدنيا لما كان لم يزل في ملاحظة الطاعات والاتيان بالواجبات والمستحبات في جميع الأوقات وفي اجتناب المحرمات والمكروهات ولم يزل يتأمل في العواقب، ويتذكر النار والحساب والعقاب، فهو من حيث ملاحظة هذه الأمور وعدم مفارقته لها في سجن.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٢٣، ح٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٠ ـ ١٢٢١، ح٥٩٣٠.

(٢) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي: ج١، ص٤٧.

والكافر لما كان دائماً في الانهماك في المعاصي واللذات ولا يخطر بباله جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب فالدنيا جنّة له.

الرابع: أن يكون المراد الدنيا سجن للمؤمن الكامل في الإيمان وجنة للكافر الكامل في الكفر، كما روي أن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأوصياء ثم الأمثل فالأمثل.

الخامس: أن يكون خبراً بمعنى الأمر أي ينبغي للمؤمن أن يجعل الدنيا على نفسه بمنزلة السجن كما أن المحبوس في السجن لا يريد تناول ما زاد على أقل الكفاية كسد الرمق وفكره مصروف إلى أسباب الخروج، وهذا المعنى في بقية الحديث لا يخلو عن بُعد، ويمكن أن يوجه بأنه بالنسبة إلى الكافر على وجه التهديد والوعيد كقوله تعالى:

﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[1].

أو المعنى: يحق للكافر أن يتخذ الدنيا جنة له فإنه ليس له في الآخرة نصيب إلا العذاب والعقاب.

السادس: أن يكون المعنى أن المؤمن يعدّ الدنيا على نفسه سجنا فلا يرغب إليها ولا يميل إلى لذاتها ويخشى من غوائلها وإن كان متنعما فيها ظاهراً والكافر بعكس ذلك)[2].

ويمكن لنا أن نضيف وجها آخر بلحاظ الزمان إذ إن السجن يتصف بفترة زمنية معينة ثم تنتهي فيتحرر صاحبه من قيوده فكذلك الدنيا لابد لها من نهاية فيتحرر صاحبها مِن وطأة شهواتها ولذائذها الفانية فيذهب إلى دار لا لغو فيها ولا تأثيم، وإن كان كافرا فلا يغتر بجنته فهو خارج منها إلى الآخرة حيث العذاب والألم الشديد.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) مصابيح الأنوار، السيد عبد الله شبر: ج٢، ص٢٣ ـ ٢٤.

ـ نصيحة معصومية

وردت الكثير من الأحاديث الشريفة التي تبيّن أن الدنيا ملعونة وذو عاقبة وخيمة إذا اتخذها الإنسان هماً دون الآخرة وهي كما يلي:

١ـ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«مَن أصبَحَ والدنيا أكبَرُ همِّه فَلَيسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ وألزَمَ قلبَهُ أربَعَ خِصالٍ: هَمّاً لا يَنقَطِعُ عَنهُ أبداً، وشُغلاً لا يَنفرِجُ مِنهُ أبداً، وفَقراً لا يَبلُغُ غِناهُ أبداً، وأملاً لا يبلُغُ مُنتَهاهُ أبداً».[1]

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«مَن أصبَحَ وأمسى والدنيا أكبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ تعالى الفَقرَ بينَ عَينَيهِ وشتّتَ أمرَهُ ولم يَنَلْ مِن الدنيا إلاّ ما قَسَمَ اللهُ له، ومَن أصبَحَ وأمسى والآخرةُ أكبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ تعالى الغِنى في قلبِهِ وجَمَعَ لَهُ أمرَهُ»[2].

٢ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الدنيا ملعونةٌ وملعونٌ ما فيها، إلاّ ما ابتُغِيَ به وَجه اللهِ عَزَّ وجلّ»[3].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«ألا إنَّ الدنيا دارٌ لا يُسلَمُ منها إلاّ فيها (بالزُّهدِ)، ولا يُنْجى بشيءٍ كانَ لها، ابتُلِيَ الناسُ بِها فِتنةً فما أخَذُوهُ منها لها أُخرِجوا مِنه وحوسِبوا علَيهِ، وما أخَذُوهُ مِنها لِغَيرِها قَدِموا علَيهِ وأقاموا فيهِ»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام ـ في زيارة الحسين عليه السلام عند الوَداع ـ قال:

---

(١) تنبيه الخواطر: ج١، ص١٣٠. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٢، ح٥٩٤٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٣١٩، ح١٥. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٢، ح٥٩٣٩.

(٣) كنز العمال: ٦٠٨٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٤، ح٥٧٥٥.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٦٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٤، ٥٧٥٨.

«ولا تَشغَلْني عن ذِكرِكَ بِإكثارٍ عَلَيَّ مِن الدنيا تُلهيني عجائبُ بَهجَتِها وتَفْتِنّي زهراتُ زينتِها، ولا بِإقلالٍ يُضِرُّ بعَمَلِي كَدُّهُ ويَملأُ صَدري هَمُّهُ، أعطِني مِن ذلكَ غِنىً عن أشرارِ خلقِكَ، وبَلاغاً أنالُ بهِ رِضاكَ»[١].

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«فَارفِضِ الدنيا، فإنّ حُبَّ الدنيا يُعمِي ويُصِمُّ ويُبكِمُ ويُذِلُّ الرِّقابَ»[٢].

وعنه عليه السلام قال:

«حُبُّ الدنيا يُفسِدُ العقلَ، ويُصِمُّ[٣] القلبَ عن سَماعِ الحكمةِ، ويوجِبُ أليمَ العِقابِ»[٤].

٣ـ حبها يورث البعد عن الله تعالى ويحرم القلب اللذات المعنوية كما جاء في حديث المعراج:

(قال الله تبارك وتعالى: يا أحمدُ، لو صَلّى العبدُ صلاةَ أهلِ السماءِ والأرضِ، ويصومُ صيامَ أهلِ السماءِ والأرضِ، ويَطوِي عنِ الطَّعامِ مِثلَ الملائكةِ، ولَبِسَ لباسَ العابِدينَ، ثُمَّ أرى في قلبِهِ مِن حُبِّ الدنيا ذَرَّةً، أو سُمْعَتِها، أو رئاسَتِها، أو صِيتِها، أو زِينَتِها، لا يُجاوِرُني في دَارِي، ولأَنزِعَنَّ مِن قلبِهِ مَحَبَّتي (ولأُظلِمَنَّ قلبَهُ حتّى يَنسانِي، ولا أُذِقْهُ حَلاوَةَ مَحَبَّتي))[٥].

٤ـ يحذر أهل البيت عليهم السلام العقلاء من الاغترار بالدنيا لما في ذلك من آثار وعواقب وخيمة كما في قوله عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار: ج١٠١، ص٢٨١، ح١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٤، ح٥٧٥٩.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٣٦، ح٢٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٢، ح٥٨٢٦.

(٣) في المصدر (ويُهِمُّ) والصحيح ما أثبتناه كما في طبعة النجف وبيروت.

(٤) غرر الحكم: ٤٨٧٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٢، ح٥٨٢٧.

(٥) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣٦، ح١٣٤٤٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٤، ح٥٨٤٥.

«أُحَذِّرُكُمُ الدنيا، فإنّها دارُ شُخُوصٍ، ومَحَلَّةُ تَنغِيصٍ، ساكِنُها ظاعِنٌ، وقاطِنُها بائنٌ»(١).

وعنه عليه السلام قال:

«احذَرُوا الدنيا فإنَّ في حلالِها حِساب(اً)، وفي حَرامِها عقاب(اً)، وأوّلُها عَناءٌ، وآخِرُها فَناءٌ»(٢).

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أيضا:

«احذَروا الدنيا الحَذَرَ كُلَّهُ، وضَعُوا عَنكُم ثِقْلَ هُمُومِها لِما تَيَقَّنتُم لِوَشْكِ زَوالِها، وكونوا أسَرَّ ما تَكونونَ فيها، أحذَرَ ما تَكونُونَ لَها»(٣).

وهناك الكثير من الأحاديث في هذا الباب فراجع.

٥ـ للجهل آثار وخيمة تفسد الدنيا وتوجب عذاب الآخرة ومن هذه الآثار الاغترار بالدنيا كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«الرُّكونُ إلى الدنيا مَع ما يُعايَنُ مِن سُوءِ تَقَلُّبِها جَهلٌ»(٤).

٦ـ يبرئ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا من مسؤولية الاغترار بها ويلقي اللوم على المغرور فيها بقوله:

«حَقّاً أقولُ: ما الدنيا غَرَّتكَ، ولكن بِها اغتَرَرتَ، ولقَد كاشَفَتكَ العِظاتِ وآذَنَتكَ عَلى سَواءٍ ولَهِيَ بما تَعِدُكَ مِن نُزولِ البلاءِ بِجِسمِكَ والنَّقضِ (النَقص) في قُوَّتِكَ أصدَقُ وأوفَى مِن أن تَكْذِبَكَ أو تَغُرَّكَ»(٥).

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٦. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٠، ح٥٨٦٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٢٣، ح٨٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٠، ح٥٨٦٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٣، ص١٠٩، ح١٠٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٠، ح٥٨٧٢.
(٤) غرر الحكم: ٢٠٣٧. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٤، ح٥٨٩٥.
(٥) نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٥، ح٥٩٠٢.

٧ـ يرشد الإمام علي عليه السلام أهل النظر الثاقب والنباهة والكياسة إلى ضرورة التحلي بصفات الزاهدين عندما ينظرون إلى الدنيا فيقول:

«أُوصيكُم بالرَّفضِ لهذهِ الدنيا التارِكَةِ لَكُم، وإن لَم تُحِبُّوا تَرْكَها... فلا تَنافَسُوا في عِزِّ الدنيا وفَخرِها، ولا تَعجَبُوا بزينَتِها ونعيمِها، ولا تَجزَعوا مِن ضَرَّائها وبُؤسِها، فإنّ عِزَّها وفَخرَها إلى انقِطاعٍ، وإنّ زينَتَها ونعيمَها إلى زوالٍ، وضَرّاءَها وبُؤسَها إلى نَفادٍ (نفاذٍ)»[1].

٨ـ حقّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا فينبغي الاقتداء به في رؤيته الحكيمة لندة القذارة لاسيما بعد الاطلاع على قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا بنَ جُندَبٍ، إن أحبَبتَ أن تُجاوِرَ الجليلَ في دارِهِ وتَسكُنَ الفِردَوسَ في جِوارِهِ فلتَهُنْ عَلَيكَ الدنيا»[2].

٩ـ نهى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن تعظيم الآخرين لما لديهم من مال أو جاه أو منصب طمعا فيما لا يهم بل لابد أن يكون التوقير والتعظيم للتقوى والأخوة في الله تعالى فلذا ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن عَظَّمَ صاحِبَ دنيا وأحَبَّهُ لِطَمَعِ دُنياهُ سَخِطَ اللهُ عليهِ»[3].

١٠ـ أكد أهل البيت عليهم السلام على الصبر عندما يصاب المرء بما يلاقيه من ألم الدنيا فإنه قد خور له في الآخرة وهذا ما يدل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول:

«مَرارَةُ الدنيا حَلاوَةُ الآخِرَةِ»[4].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٧، ح٥٩١٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٢٨٢، ح١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٥، ح٥٩٦٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٦، ص٣٦٠، ح٣٠. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٦، ح٥٩٦٥.

(٤) غرر الحكم: ٩٧٩٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٧، ح٥٩٨٣.

صور حوارية ومواعظ

خلق الله تعالى الخلق وهو غني عن طاعتهم ومنيع عن ضرر معصيتهم لما يتصف به من صفات الألوهية إلا أنه سبحانه لم يدع خلقه هملاً دون إرشاد وشريعة ومنهاج بل سن لهم السنن ونهج لهم المناهج ليصلوا إلى كمالهم، ومما أرشد إليه مدبر الأمور وخالق الخلق سبحانه أن نزهد في هذه الدنيا الدنية ونرفض زخرفها ونبتعد عن زبرجها وهذا ما التزم به سادة الخلق وقادة العباد محمد وآله الأطهار صلوات الله عليهم وسلم تسليما كثيرا الصورة الأولى فعندما نتأمل هذه الصورة الرائعة التي نقلها عمر بن الخطاب بقوله:

(استَأذَنتُ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَدَخَلتُ عَليهِ في مَشرَبَةِ أُمِّ إبراهيمَ، وإنّهُ لَمُضطَجِعٌ على خَصْفَةٍ وإنّ بَعضَهُ على التُّرابِ وتَحتَ رأسِهِ وِسادَةٌ مَحشُوَّةٌ لِيفاً، فسَلَّمتُ علَيهِ ثُمَّ جَلَستُ فقُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنتَ نبيُّ اللهِ وصَفوتُهُ وخِيَرَتُهُ من خَلقِهِ، وكِسرى وقيصرُ على سُرُرِ الذَّهبِ وفُرُشِ الدِّيباجِ والحريرِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم:

«أولئكَ قومٌ عُجِّلَت طَيِّباتُهُم وهِي وَشيكَةُ الانقِطاعِ، وإنّما أُخِّرَت لنا طَيِّباتُنا»)[1].

نجد عبرا ومواعظ تسر القلوب وتقر بها الأعين وهي كالآتي:

١ـ إن اضطجاع النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم (على خصفة) أي فراش من سعف النخيل دون أن يكون عليها شيء يحمي جسده الشريف من غلظتها دليل على تجسد التواضع في هذا الوجود المقدس، وبرهان على افتخار الزهد إذ صار لباسا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ـ وقول عمر (وإن بعضه على التراب...) يشير إلى علاقة المقدسين بأصلهم إذ

(١) مجمع البيان: ج٩، ص١٣٣. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٨، ح٥٩٩٠.

يرون أن أجسادهم من التراب وعلى التراب وإلى التراب رغم أن أرواحهم في عليين، فلا يرون ترفعا عن التراب ولا يشعرون بالتقذر منه كما يفعل المتكبرون الجهلة ذلك.

٣ـ وقوله (وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا) ألا يدل ذلك على عدم استخدام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لولايته التكوينية في مثل هذه الأمور التافهة؟ وإلا لو شاء لتصرف بهذه الوسادة وجعلها من حرير وديباج دون تعب أو نصب إلا أنه آثر أن يعيش وفق الأسباب والمسببات، ولعله أراد أن يعطي رسالة لعمر أو لغيره بأن الدنيا لا تستحق أن تكون هما نعيشه كل يوم، ولا تستحق أن يعصى الله تعالى لأجلها.

٤ـ وردّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على عمر بقوله (أولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع، وإنما أخرت لنا طيباتنا) فيه الكثير من الحكم والمواعظ:

منها: أن من أخذ نصيبه في الدنيا ليس له نصيب في الآخرة.

منها: أن العباد الصالحين لا يتأملوا من الدنيا راحة وسعادة لخلاهم معها ولأنهم لم يتخذوها أماً لهم كما أنها لم تعتبرهم أولادا لها.

منها: أن الدنيا بما فيها من اللذائذ والحلاوة لابد أن تنتهي في يوم ما فيلاقي أولادها ما ينغصم ويذيقهم المرارة بدل الحلاوة التي يتلذذون بها.

منها: أن الطيبات الفانية ليست لذيذة وإنما اللذة في الطيبات الباقية.

الصورة الثانية

فاطمة الزهراء عليها السلام وما أدراك ما فاطمة هي بضعة النبي المصطفى وروحه التي بين جنبيه وهي لحمه ودمه وجزء لا يتجزأ منه فلذا نجدها لا تختلف عن أبيها بصفة من صفاته، فلقد جاء عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أنه قال:

(رَأى النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فاطمةَ عليها الصلاة والسلام وعلَيها كِساءٌ مِن أجلّةِ الإبلِ وهي تَطحَنُ بِيدَيها وتُرضِعُ ولدَها، فَدَمَعَتْ عَينا رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ:

«يا بِنتاهُ، تَعجَّلي مَرارَةَ الدنيا بحَلاوَةِ الآخرةِ».

فقالت:

«يا رسولَ اللهِ، الحَمدُ للهِ على نَعمائِه والشكرُ للهِ على آلائهِ».

فأنزَلَ اللهُ:

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[1])[2].

أرجو إعادة القراءة لهذه الرواية وأرجو أن تتصورها في خيالك لتدمع عيناك كما دمعت عين الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وبعد تأمل هذه الصورة تخرج بالمواعظ التالية:

منها: فاطمة سيدة نساء العالمين تلبس كساءً من أحلّة الإبل لتعطي رسالة لكل النساء الواعيات أن لا يلهثن وراء الأزياء والموديلات، وأن لا يكلفن أزواجهن فوق طاقتهم لكي يلبسن ما غلا ثمنه، فالبساطة في العيش لا تعد نقصا كما لا يحق لأحد أن يسخر من صاحبه لاسيما في مجتمع النساء.

منها: أن هذه السيدة الكبرى والصديقة الطاهرة هي بنت سيد الكائنات وزوجة سيد الأوصياء وأم سيدي شباب أهل الجنة ومع ذلك تطحن بيديها لأسرتها وتعين بعلها على شظف العيش، وتقول لنا لابد من التكافل بين الرجل والمرأة لتسير الحياة الزوجية بهدوء وطمأنينة وسعادة، وتقول للنساء لا تبحثن عن الشأنية مع أزواجكن

(١) سورة الضحى، الآية: ٥.

(٢) نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٤، ح١٠، أنظر أيضا: ص٥٩٥، ح١١. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٢٨، ح٥٩٩١.

طالما رضيتن بهم أزواجا، فأنا بنت سيد الكائنات وخاتم الأنبياء والرسل ولا أستنكف من العمل في بيتي وخدمة أسرتي.

منها: عند رضاعتها ولدها ترشدنا إلى ضرورة رضاعة الأم لولدها لما في ذلك من فائدة صحية لهذا الوليد إذ إن حليب الأم يغذي الولد ماديا ومعنويا، وتبيّن بأن هذه الرضاعة لهذا الطفل الصغير عمل صالح تنال الأم به ثواب الله عز وجل.

منها: قول رسول الله لابنته (يابنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة) لا يختلف عما بينه في الصورة الأولى من أن الدنيا فانية ومرارتها منتهية والآخرة باقية وحلاوتها ولذتها دائمة.

منها: وقولها عليها السلام (يا رسول الله الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه....) دليل على الرضا التام بعطاء الله تعالى، وتصريح بأن هذه البساطة من العيش هي نعمة إلهية تحتاج إلى شكر المنعم عليها، كما أنها أكدت على عدم جواز التبرم من هذه الحياة البسيطة.

الصورة الثالثة

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (عندما سأله يزيد بن سلام: لما سُمّيَت الدنيا دُنيا؟ قال:

«لأنّ الدنيا دَنِيَّةٌ خُلِقَت مِن دُونِ الآخِرةِ، ولو خُلِقَت مع الآخِرَةِ لمَ يَفنَ أهلُها كما لا يَفنى أهلُ الآخرةِ».

قال: فأخبِرني لِمَ سُمّيَتِ الآخرةُ آخرة؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لأنّها متأخِّرةٌ تَجِيءُ من بعدِ الدنيا، لا توصَفُ سِنينُها، ولا تُحصى أيّامُها، ولا يموتُ سُكّانُها»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٣٥٦، ح٢. ميزان الحكمة: ج٣، ص١١٩٢، ح٥٧٤٠.

هذه الصورة تبين مرتبة الدنيا وكونها فانية بحلوها أو بمرها فإذا كانت حلوة بحسب الظاهر فلا تبطر فيها فتكون سببا لدخولك النار، وإن كانت مرة فاغتنم مرارتها لتكون سببا في دخولك الجنة.

الصورة الرابعة

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام (عندما رأى جابر بن عبد الله، وقد تنفّسَ الصُعَداء فقال:

«يا جابرُ، عَلامَ تَنفُّسُكَ؟ أعَلَى الدنيا؟!».

فقال جابرُ: نعم، فقالَ له الإمام عليه السلام:

«يا جابرُ، مَلاذُّ الدنيا سَبعةٌ: المأكولُ، والمَشروبُ، والمَلبوسُ، والمَنكوحُ والمَركوبُ، والمَشمومُ، والمَسمُوعُ.

فَألَذُّ المَأكولاتِ العَسَلُ وهو بَصقٌ من ذُبابةٍ، وأحْلَى المَشروباتِ الماءُ وكَفَى بإباحَتِهِ وسِباحَتِهِ عَلَى وَجهِ الأرضِ، وأعلَى المَلبوساتِ الدِّيباجُ وهُوَ مِن لُعابُ دُودَةٍ، وأعلَى المَنكوحاتِ النِّساءُ وهو مَبالٌ في مَبالٍ ومِثالٌ لِمثالٍ، وإنَّما يُرادُ أحسَنُ ما في المرأةِ لأقبَحَ ما فيها، وأعلَى المَركوباتِ الخَيلُ وهُو قواتِلُ، وأجَلُّ المَشموماتِ المِسْكُ وهو دَمٌ مِن سُرَّةِ دابّةٍ، وأجَلُّ المَسموعاتِ الغِناءُ والتَّرنُّمُ وهو إثمٌ، فما هذِهِ صِفَتهُ لَم يَتَنفَّس علَيهِ عاقِلٌ».

قال جابر بن عبد الله: فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبي)[١].

أراد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يوصل لنا رسالة واضحة عن أصل لذائذ هذه الدنيا التي يتنافس بل يتقاتل عليها أهلها، فأكد أن هذه اللذائذ التي تروها جميلة فهي كخضراء الدمن في منبت السوء فلا يغتر أحد بها ولا يتهافت عاقل على نيلها.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١١، ح٦٩. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢٠٩، ح٥٨٦٣.

الصورة الخامسة

عن سُوَيد بن غفلة قال: (دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بعدَما بُويِعَ بالخلافةِ وهو جالسٌ على حَصيرٍ صغيرٍ ولَيس في البيتِ غَيرُهُ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، بيدِكَ بيتُ المالِ ولَستُ أرى في بيتِكَ شيئاً ممّا يَحتاجُ إلَيهِ البيتُ؟! فقالَ عليه السلام:

«يا بنَ غَفلةَ، إنّ اللَّبيبَ لا يَتَأَثَّثُ في دارِ النُّقلَةِ، ولَنا دارُ أمْنٍ قد نَقَلْنا إليها خيرَ مَتاعِنا، وإنّا عن قليلٍ إلَيها صائرونَ»)[1].

يا لها من صورة مليئة بالعبر والمواعظ، فإذا تأملها العاقل لابد أن يرى ما يلي:

١ـ إن المنصب هو خدمة للناس وليس وسيلة للثراء والرفاه والاستحواذ.

٢ـ الإمام عليه السلام لم يضع في البيت ما هو ضروري فضلا عن الكماليات.

٣ـ يتعامل الإمام عليه السلام مع الدنيا تحت عنوان (نجا المخفون) فلم يثقل نفسه بحطام الدنيا ولم يملأ بيته من زبرجدها.

٤ـ يشير بقوله (وإنا عن قليل إليها صائرون) إلى فناء الدنيا وقلة مدتها.

بحث عقائدي

الرضا بقضاء الله تعالى

من نعم الله تعالى أن منحنا عقلا نزن به الأشياء ونميّز به بين الحق والباطل ونستدل من خلاله على الخير فنفعله وعلى الشر فتجتنبه، وبهذه النعمة الإلهية التي لا تضاهيها نعمة إلا الإيمان نعرف أن الله تعالى هو خالقنا ومدبر أمرنا ورحيم بنا أرحم من أمهاتنا بل أرحم من أنفسنا بأنفسنا، وهو الحكيم الذي لا خطأ ولا خلل في فعله، وهو العادل الذي لا يجورد في قضائه، المعصوم الذي لا يخطأ في تقديره، والعالم المحيط

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٢١، ح٣٨. ميزان الحكمة: ج٣، ص١٢١٩، ح٥٩٢٤.س

بكل شيء فلا يفوته شيء، يعلم بما ينفعنا وما يضرنا وما يصلحنا وما يفسدنا، والقادر المطلق الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، فإذا عرفنا ذلك وأيقنت به أنفسنا وأقرت به عقولنا لابد لنا من التسليم والانقياد له والتوكل عليه في جميع ما يهمنا والرضا والقبول بكل ما يقضي ويقدر، إذ إن عدم الرضا بقضائه وقدره يدل على جهلنا وعدم معرفتنا به ونقصان توحيدنا.

أسئلة مهمة

السؤال: ما هو الرضا الذي ينبغي أن نعيشه في حياتنا؟

الجواب: الرضا: هو القبول بل التسليم والانقياد وعدم الاعتراض على ما يقضي سبحانه ويقدر.

السؤال: ما هي فوائد وثمرات الرضا؟

الجواب: للرضا مجموعة من الآثار والفوائد والثمرات وهي كما يلي:

١ـ يوجب القرب الإلهي كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا أحَبَّ اللهُ عَبداً ابتَلاهُ، فإن صَبَرَ اجتَباهُ، وإن رَضِيَ اصطَفاهُ»[١].

٢ـ يوجب الأجر العظيم في يوم لا ينفع فيه مال لا بنون وهذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«أَعْطُوا اللهَ الرِّضا مِن قُلوبِكُم تَظفَرُوا بثَوابِ اللهِ تعالى يومَ فَقرِكُم والإفلاسِ»[٢].

٣ـ يوجب القناعة والشعور بالكفاية كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) بحار الأنوار: ج٨٢، ص١٤٢، ح٢٦. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٦، ح٧٣٠٦.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٤١٢، ح٢٣٣١. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٦ ـ ١٤٧٧، ٧٣٠٧.

«مَن رَضِيَ مِن الدنيا بما يَكفِيهِ كانَ أيسَرُ ما فيها يَكفِيهِ»[١].

٤ـ يوجب استجابة الدعاء وتحقيق ما نتمنى كما ورد ذلك عن الإمام الحسن عليه السلام:

«أنا الضّامِنُ لِمَن لا يَهجِسُ في قَلبِهِ إلاّ الرِّضا أن يَدعُوَ اللهَ فَيُستَجابَ لَهُ»[٢].

٥ـ يوجب الشعور بالغنى والتنزه عما في أيدي الناس كما قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ارْضَ بِما قَسَمَ اللهُ لكَ تَكُنْ غَنِيّاً »[٣].

٦ـ يوجب الشعور بالاطمئنان والراحة كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام:

«الرَّوحُ والرّاحَةُ في الرِّضا واليَقينِ، والهَمُّ والحُزْنُ في الشَّكِّ والسَّخَطِ»[٤].

٧ـ يمنع وقوع الحزن ويرفعه عن صاحبه كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«مَن رَضِيَ برِزقِ اللهِ، لَم يَحزَن على ما فاتَهُ»[٥].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«الرِّضا يَنفِي الحُزْنَ»[٦].

السؤال: ما هي الآثار السلبية والنتائج الوخيمة لعدم الرضا؟

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص١٦٩، ح٦. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٧، ح٧٣١١.

(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٥٩، ح٧٥. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٧، ح٧٣٠٨.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٣٦٨، ح٤. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٧، ح٧٣١٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٥٩، ح٧٥. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٧، ح٧٣١٦.

(٥) نهج البلاغة: الحكمة ٣٤٩. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٨، ح٧٣١٩.

(٦) غرر الحكم: ٤١٠. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٨، ح٧٣٢٠.

الجواب:

١ـ من لم يرض بما أعطاه الله تعالى وقع في فخ الشك ونسب الظلم إلى الله تعالى كما أكد ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«مَن لم يَرضَ بما قَسَمَ اللهُ عَزَّ وجلَّ، اتّهَمَ اللهَ تعالى في قَضائهِ»[1].

٢ـ يؤدي عدم الرضا إلى صيرورة الأعمال هباء منثورا كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله:

«مَن رَضِيَ القَضاءَ أتى علَيهِ القَضاءُ وهُو مَأجُورٌ ومَن سَخِطَ القَضاءَ أتى علَيهِ القَضاءُ وأحبَطَ اللهُ أجرَهُ»[2].

السؤال: هل أن الرضا يعني ترك السعي في الأسباب؟

الجواب: لا يقول بذلك أحد بل أن القول على خلاف ذلك، إذ يحثنا الشرع على السعي والسبب في الأسباب كما في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3].

وقوله عزّ وجل:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[4].

وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام صريح في التسبب كما في قوله عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٢٠٢، ح٣٣. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٨، ح٧٣٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٣٩، ح٢٦. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٨، ح٧٣٢٥.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٤.

«أَبى اللهُ أن يُجرِيَ الأشياءَ إلاّ بِأسبابٍ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَيءٍ سَبَباً وجَعَلَ لِكُلِّ سَبَبٍ شَرْحاً، وجَعَلَ لِكُلِّ شَرْحٍ عِلْماً، وجَعَلَ لِكُلِّ عِلمٍ باباً ناطِقاً، عَرَفَهُ مَن عَرَفَهُ، وجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ، ذاكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ونَحنُ»[1].

فإذا عرفنا هذا يتبين لنا أن الرضا هو التسليم والقبول بكل ما يصيبنا بعد أن نؤدي تكليفنا الشرعي ألا وهو السعي في الأسباب الشرعية المقبولة عند الله تعالى دون أسباب الشيطان، ولا شك في الفرق بين سبل وأسباب الله تعالى وبين سبل وأسباب غيره المعوّجة المفضية إلى عاقبة سيئة.

السؤال: كيف نميّز بين سبل الله تعالى وأسبابه وبين سبل وأسباب غيره؟

الجواب: هذا أمر بديهي لا لبس فيه، فكل ما هو موافق للشرع فهو سبب وسبيل إلهي وكل ما هو مخالف للشرع فهو غير ذلك.

السؤال: كيف نميّز أن المكروه الذي أصابنا من الله تعالى أو من غيره؟

الجواب: في مقام الجواب عن هذا السؤال لابد من الوقوف على ما يأتي:

١ـ إذا أصابنا مكروه دون أن نتسبب به، كوقوع زلزال أو غيره من الكوارث فهو من الله تعالى ولا يريد به إلا نفعنا فلذا لا يحمد على مكروه سواه.

٢ـ إذا أصابنا مكروه بسبب جئناه، فهو منّا والله تعالى بريء منه كما في كثير من الأسباب التي تؤدي إلى عواقب وخيمة فلذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«سَبَبُ فَسَادِ اليَقِينِ الطَّمَعُ»[2].

وقال عليه السلام:

---

(١) الكافي: ج١، ص١٨٣، ٧. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٢، ح٨١٦٦.

(٢) غرر الحكم: ٥٥١٣. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٢، ح٨١٧٢.

«سَبَبُ فَسَادِ العَقْلِ الهَوى»[١].

وعنه عليه السلام:

«سَبَبُ الفِتَنِ الحِقْدُ»[٢].

وقال عليه السلام:

«سَبَبُ الشَّحْنَاءِ كَثْرَةُ المِرَاءِ»[٣].

وعنه عليه السلام أيضا:

«سَبَبُ الفَقْرِ الإِسْرَافُ»[٤].

وقال عليه السلام:

«سَبَبُ الفِرْقَةِ الإِخْتِلافُ»[٥].

وقال عليه السلام أيضا:

«سَبَبُ الفُجُورِ الخَلْوَةُ»[٦].

وعنه عليه السلام:

«سَبَبُ زَوَالِ النِّعَمِ الكُفْرَانُ»[٧].

وقال عليه السلام:

«سَبَبُ الهَلاكِ الشِّرْكُ»[٨].

---

(١) غرر الحكم: ٥٥١٥. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٧٤.

(٢) غرر الحكم: ٥٥٢٢. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٨١.

(٣) غرر الحكم: ٥٥٢٤. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٨٣.

(٤) غرر الحكم: ٥٥٢٩. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٨٨.

(٥) غرر الحكم: ٥٥٣٠. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٨٩.

(٦) غرر الحكم: ٥٥٣٢. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٩٢.

(٧) غرر الحكم: ٥٥١٧. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٧٦.

(٨) غرر الحكم: ٥٥٤١. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٦٥٣، ح٨١٩٨.

ـ نصيحة يجب أن تسمعها

إذا ادعى أحد أنه عبد لله تعالى يجب أن يصدق المدعي بـالتلبس بثـوب العبوديـة وألا يلزم من دعواه الكذب والنفاق، وليعلم العبد أن المولى لا يريد له إلا الخير ولا راد لما يريد، وعليه أن يعرف أن السبل غير سبيل الله تعالى تؤدي إلى الفشل والتبع وعـدم الاطمئنان بل قد تؤدي إلى ذل في الدنيا، وحبط الأعمال وحرمان الثواب ووقوع الخزي والعذاب في الآخرة، وهـذا مـا يمكـن استنباطه مـن حـديث الإمـام أمـير المـؤمنين عليـه السلام إذ يقول:

«أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود تُرِيدُ وأُرِيدُ، ولا يكونُ إلاّ مَا أُرِيدُ، فإن أسلَمتَ بِما أريد أعطَيْتُكَ ما تُرِيد، وإن لَم تُسلِمْ لِما أرِيدُ أتعَبتُكَ فيما تُرِيدُ، ثُمَّ لا يكونُ إلاّ ما أُرِيدُ»[١].

ـ التزود بالأعمال الصالحة

قرن الإيمان بالله تعالى وبأنبيائه ورسله وملائكته واليـوم الآخـر بالعمـل الـصالح ولولا هذا العمل الصالح لما صح أن يقال للإيمان إيمان لأن الإيمان هو العمـل قبـل كـل شيء وهذا ما أكدته المحاورة بين الإمام الـصادق عليـه الـسلام والـزبيري إذ سـأله (عـن أفـضَل الأعمـال عنـد الله: مـا لا يقبـل الله شـيئا إلا بـه، قلـت: ومـا هـو؟ قـال عليـه السلام:

«الإيمانُ بِاللهِ الّذي لا إلهَ إلاّ هُوَ، أعلَى الأعمالِ دَرَجَةً وأشرَفُها مَنزِلَةً وأسناها حَظّاً».

قال، قلت: ألا تُخبرُني عن الإيمان، أقولٌ هوَ وعملٌ، أم قولٌ بـلا عمـل؟ فقـال عليه السلام:

---

(١) التوحيد للصدوق: ص٣٣٧. ميزان الحكمة: ج٤، ص١٤٧٨، ح٧٣٢٧.

«الإيمانُ عَمَلٌ كُلُّهُ، والقَولُ بَعضُ ذلِكَ العَمَلِ»(١).

فمن هذا اتضح أن الإيمان والعمل متحدان لا ينفك أحدهما عن الآخر وإلا لفسدا وفقدا عنوانهما الحقيقي، وعند إحصاء وتأمل الآيات الكريمة التي ورد فيها الإيمان مقروناً بالعمل الصالح يظهر لنا مدى أهمية العمل الصالح ونتيقن أن الإيمان لا فائدة فيه بل لا يتقوم إلا بالعمل الصالح، فلذا جاءت موعظة الإمام الحسين عليه السلام في خطبة:

«فتزودوا فإن خير الزاد التقوى».

وتتالت الأحاديث الشريفة التي تؤكد على أهمية القول الصالح وعلى دوره في حياة الإنسان وآخرته، إذ إن الإيمان والعمل الصالح بمثابة الجناحين اللذين يعرج بهما المؤمن إلى لقاء الله تعالى.

ـ العمل مفتاح السعادة

كلنا ينشد السعادة ويعمل لنيلها، وكلنا يتمنى الحياة الطيبة الخالية من الهم والغم والحزن، إلا أن ذلك لا ينال إلا بالعمل الصالح المقرون بالإيمان التام المبني على العلم والمعرفة، فمن رام الدرجات الرفيعة وحلم بالسعادة الدنيوية فليؤمن ويعمل صالحا، ومن رغب بما عند الله تعالى من الرضا والرضوان والفوز بالجنان فليؤمن ويعمل صالحا، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٣، ح١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٦، ح١٤٣٢٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٧.

وصرحت به الآية الأخرى في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾(١).

ولكي يتضح لنا كيف يكون العمل الصالح مفتاحا للسعادة لابد من الوقوف على آثاره الدنيوية والأخروية.

آثار وثمرات العمل الصالح في الدنيا

١ـ العمل الصالح يوجب الرفعة والدرجة الراقية التي تجعل صاحبها سيداً في الدنيا والآخرة، كما أكد ذلك أمير المؤمنين بقوله:

«الشَّرَفُ عِندَ اللهِ سُبحانَهُ بِحُسنِ الأعمالِ، لا بِحُسنِ الأقوالِ»(٢).

٢ـ يصل بك العمل الصالح إلى هدفك السامي كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«العِلْمُ يُرْشِدُكَ، وَالعَمَلُ يَبْلُغُ بِكَ الغايَةَ»(٣).

٣ـ يوجب مدح الناس وثناءهم كما صرح بذلك سيد المتقين وأمير المؤمنين بقوله:

«إنَّما يُسْتَدَلُّ عَلَى الصّالِحينَ بِما يُجْرِي اللهُ لَهُم عَلى ألسُنِ عِبادِهِ، فَلْيَكُنْ أحَبَّ الذَّخائِرَ إلَيكَ ذَخيرَةُ العَمَلِ الصّالِحِ»(٤).

٤ـ للعمل الصالح أثر صالح على عامله وعلى ذريته، وحفظ له ولمن حوله من الناس كما بيّن ذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٥.

(٢) غرر الحكم: ١٩٢٤. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٦، ح١٤٢٦٠.

(٣) غرر الحكم: ٢٠٦٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٦، ح١٤٢٦١.

(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٧، ح١٤٢٧٧.

«إِنَّ اللهَ لَيُصْلِحُ بِصَلاحِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ وُلْدَهُ، وَوُلْدَ وُلْدِهِ، وَيَحْفَظُهُ فِي دُوَيْرَتِهِ، ودُوَيْراتٍ حَوْلَهُ، فَلا يَزالونَ فِي حِفْظِ اللهِ لِكَرامَتِهِ عَلَى اللهِ، ثُمَّ ذَكَرَ الغُلامَيْنِ، فَقالَ:

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[(١)].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ شَكَرَ صَلاحَ أَبَوَيْهِما لَهُما؟!»[(٢)].

٥ـ العمل الصالح يوجب القوة في البدن والنفس كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَنْ يَعْمَلْ يَزْدَدْ قُوَّةً، مَنْ يُقَصِّرْ فِي العَمَلِ يَزْدَدْ فَتْرَةً»[(٣)].

٦ ـ العمل الصالح يؤدي أن يصلح الله دين العبد كما في قول الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ عَمِلَ لِدينِهِ كَفاهُ الله أَمْرَ دُنْياهُ»[(٤)].

ـ آثار العمل الصالح في الآخرة

١ـ به ينال ما عند الله تعالى من الأجر كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«بِالْعَمَلِ يَحْصُلُ الثَّوابُ لاَ بِالْكَسَلِ»[(٥)].

٢ـ من خلال العمل الصالح نشعر بقيمة العلم ونلمس فائدته وهذا ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٢) تفسير العيّاشي: ج٢، ص٣٣٧، ح٦٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣٣، ح١٤٣٧٠.

(٣) غرر الحكم: ٧٩٩٠ ـ ٧٩٩١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٧١٦، ح١٤٢٥٩.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٤٢٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣٤، ح١٤٣٨٠.

(٥) غرر الحكم: ٤٢٩٥. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٦، ح١٤٢٦٢.

«بِحُسْنِ الْعَمَلِ تُجْنى ثَمَرَةُ الْعِلْمِ لاَ بِحُسْنِ الْقَوْلِ»[(١)].

٣ـ يرفد صاحبه بالنعم الوفيرة كما في قول الإمام الصادق عليه السلام:

«اعمَلوا قَليلاً تنعَمُوا كَثيراً»[(٢)].

٤ـ يوجب حب الله تعالى ومن أحب الله فلا خوف عليه ولا يحزن من شيء وهو ما ذكره الإمام زين العابدين بقوله:

«إنَّ أَحَبَّكُمْ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَحْسَنُكُمْ عَمَلاً، وإنَّ أعظَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ عَمَلاً أعْظَمُكُمْ فيما عِنْدَ اللهِ رَغْبَةً».

٥ـ العمل الصالح يهيئ لصاحبه المكان المريح والحياة الهنيئة كما ذكر ذلك الإمام الباقر عليه السلام بقوله:

«إنَّ العَمَلَ الصّالِحَ يَذْهَبُ إلى الجَنَّةِ فَيُمَهِّدُ لِصاحِبِهِ كَما يَبْعَثُ الرَّجُلُ غُلامَهُ فَيَفْرُشُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

٦ـ يرفد صاحبه بالثواب بعد وفاته وهذا ما أكدته الأحاديث الكثيرة كقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«سَبْعَةُ أسْبابٍ يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ ثَوابُها بَعْدَ وَفاتِهِ: رَجُلٌ غَرَسَ نَخْلاً، أوحَفَرَ بِئْراً، أو أجْرى نَهْراً، أوبَنى مَسْجِداً، أو كَتَبَ مُصْحَفاً، أو وَرَّثَ عِلْماً، أوخَلَّفَ وَلَداً صالِحاً يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ وَفاتِهِ»[(٥)].

(١) غرر الحكم: ٤٢٩٦. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٧، ح١٤٢٦٨.

(٢) تنبيه الخواطر: ج٢، ص١٨٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٧، ح١٤٢٧٢.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٤.

(٤) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٨٥، ٤٦. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢١، ح١٤٢٨٦.

(٥) تنبيه الخواطر: ج٢، ص١١٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢١ ـ ٢٨٢٢، ح١٤٢٨٨.

ـ نصائح

١ ـ لا تنال الآخرة ولا ينجو العبد إلا بالعمل الصالح وإن كان ذا مال ومنصب كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّ لأحَدِكُمْ ثَلاثَةَ أخِلاّء: مِنْهُمْ مَنْ يُمَتِّعُهُ بِما سَألَهُ فَذلِكَ مالُهُ، ومِنْهُم خَليلٌ يَنطَلِقُ مَعَهُ حَتّى يَلِجَ القَبْرَ ولاَ يُعْطِيهُ شَيْئاً ولاَ يَصْحَبُهُ بَعْدَ ذلِكَ فأولئِكَ قَريبُهُ، ومِنْهُمْ خَليلٌ يَقولُ: وَاللهِ أنا ذاهِبٌ مَعَكَ حَيثُ ذَهَبْتَ ولَسْتُ مُفارِقَكَ! فذلِكَ عَمَلُهُ، إنْ كانَ خَيراً وإنْ كانَ شَرّاً»[١].

أو كان ذا نسب وحسب وهذا بعينه ما ذكره الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«مَنْ أبْطأ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ (حَسَبُه)»[٢].

٢ـ ضرورة الاستمرار على عمل الخير وإن كان قليلا لما في ذلك من أجر عظيم وفائدة كبرى، هذا ما ذكرته الأحاديث الشريفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«المُداوَمَةُ عَلَى العَمَلِ في اتِّباعِ الآثارِ والسُّنَنِ وإنْ قَلَّ أرْضى للهِ وأنفَعُ عِنْدَهُ في العاقِبَةِ مِنَ الاجْتِهادِ في البِدَعِ واتِّباعِ الأهْواءِ»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«المُداوَمَةُ المُداوَمَة! فإنّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِعَمَلِ الْمُؤْمِنينَ غايَةً إلاّ الْمَوْتَ»[٤].

---

(١) كنز العمال: ٤٢٧٥٩. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢١، ح١٤٢٨٤.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٣، ٣٨٩. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١٨، ص١٣٤. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨١٦، ح١٤٢٦٣.

(٣) الكافي: ج٨، ص٨، ح١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٢، ح١٤٢٩٣.

(٤) مستدرك الوسائل: ج١، ص١٣٠، ح١٧٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٢، ح١٤٢٩٢.

وعن الإمام الباقر عليه السلام بقوله:

«أَحَبُّ الأَعْمالِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ما داوَمَ عَلَيْهِ العَبْدُ، وَإنْ قَلَّ»(١).

٣ـ للمداومة على فعل الخير آثار حسنة يحتاجها الفرد والمجتمع هذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«أمّا المُداوَمَةُ عَلى الخَيْرِ فَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ: تَرْكُ الفَواحِشِ، والبُعْدُ مِنَ الطَّيْشِ، والتَّحَرُّجُ، وَاليَقينُ، وَحُبُّ النَّجاةِ، وطاعَةُ الرَّحْمنِ، وتَعْظيمُ البُرْهانِ، وَاجْتِنابُ الشَّيْطانِ، وَالإجابَةُ لِلْعَدْلِ، وَقَوْلُ الحَقِّ، فَهذا ما أصابَ العاقِلَ بِمُداوَمَةِ الخَيْرِ»(٢).

٤ـ العمل الصالح القليل أفضل من العمل الكثير الذي لا تطيقه النفس وتمل منه القلوب فلذا أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك بقوله:

«إنَّ النَّفْسَ مَلولَة، وإنَّ أحَدَكُم لا يَدري ما قَدْرُ المُدَّةِ، فَلْيَنظُرْ مِنَ العِبادَةِ ما يُطيقُ، ثُمَّ لِيُداوِمْ عَلَيْهِ، فإنَّ أحَبَّ الأعْمالِ إلَى اللهِ ما ديمَ عَلَيْهِ وإنْ قَلَّ»(٣).

٥ـ انتبه إلى عملك وأحرص أن تكون له عاقبة حسنة ولذة دائمة، وهذا ما نبهنا إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«شَتّانَ ما بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤونَتُهُ وَيَبْقى أجْرُهُ»(٤).

---

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢١٩، ح٢٥. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٢، ح١٤٢٩٥.

(٢) تحف العقول: ص١٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٤، ح١٤٣٠٦.

(٣) كنز العمال: ٥٣١٢. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٤، ح١٤٣٠٧.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ١٢١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٨، ص٣١٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣٤، ح١٤٣٧٥.

ـ أسئلة مهمة

السؤال: لَمَ نرى أن الجزاء على العمل أكبر وأضخم من العمل؟

الجواب: هناك بحث في بيان مدى الترابط بين العمل والجزاء وملخصه:

قبل بيان هذا الترابط لابد من توضيح السؤال أو الإشكال الوارد على العدل الإلهي ثم يتسنى لنا الجواب عنه.

الإشكال: إن الجزاء الأخروي في مقام العقاب لا يتناسب مع ا لذنب الذي يصدر عن العبد وهذا يدل على عدم عدل الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فمثلا:

لو عبث إنسان في طريق العامة وأحدث فيه ما يعيبه لابد له من عقوبة جزاءً لما فعل، إلا أن هذه العقوبة خروج عن العدالة ومخالفة لها.

وهكذا لو صدرت عن الإنسان غيبة مثلا فمات دون أن يتوب عنها لابد أن تكون لها عقوبة ولكن هذه العقوبة لابد أن تتناسب مع الفعل الحرام، إلا أننا نرى أن عقوبة فاعل الغيبة هي أن يكون طعاما لكلاب النار، أليس هذه العقوبة قاسية وشديدة، ومن هذا المنطلق نرى أن العقوبة لا تناسب الذنب وهذا ما يخالف العدل الإلهي؟

الجواب: ورد الجواب عند أهل الاختصاص من خلال هذه المقدمات وهي كما يلي:

١ـ إن الآخرة عالم لا يشبه عالم الدنيا في كثير من قوانينه، وعلى سبيل المثال:

ألف: في عالم الدنيا يحصل التغيير والانتقال من مرحلة إلى أخرى كالإنسان يبدأ طفلاً رضيعا ثم يكون صبيا ثم يصبح شابا ثم يعرّج على الكهولة فالشيخوخة، أمّا في عالم الآخرة لا طفولة ولا كهولة ولا شيخوخة بل لا موت ولا فناء.

باء: هذا العالم هو عالم الزراعة والآخرة عالم الحصاد وتحصيل الثمار، أي أن العمل هنا دون حساب، وهناك الحساب والجزاء فقط، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَإنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسابٌ، وإنَّ غداً حِسابٌ وَلاَ عَملٌ»[١].

جيم: في هذا العالم تستطيع أن تصحح الخطأ وتتوب عن الذنوب أمّا في الآخرة ليس لك الحق في ذلك.

٢ـ إننا نؤمن أن ما يفعله الإنسان هنا هو الذي يحدد نوع المصير هناك وهذا ما أكده رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الأحاديث الشريفة التي لو تأملها المنصف يجد الجواب على سؤاله والحل لإشكاله وهي كما يلي:

جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«لَمّا دَخَلْتُ الجَنَّةَ في لَيْلَةِ المِعْراجِ شاهَدْتُ مَلائِكَةً يَبْنُونَ بُيوتاً: بَعْضٌ مِنْ ذَهَبٍ وَآخَرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَأحْياناً يَتَوَقَّفونَ عَنِ العَمَلِ، فَسألْتُهُمْ لِماذا تَعْمَلونَ أحْياناً وَتَقِفونَ عَنِ العَمَلِ أحْياناً؟ فأجابوا، حَتّى تَصِلَنا إمْداداتُ صاحِبِ البِناءِ.

فسألتُ وَما تَقْصُدونَ بالإمْدادات؟ قالوا: ذِكْرُ المُؤمِنِ في الدُنْيا قولُ سُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولاَ إلهَ إلاّ اللهُ وَاللهُ أكبَرْ.

فَفي كُلِّ وَقْتٍ يَقولُ نَحْنُ نَبني وفي كُلِّ وَقْتٍ يَتَوَقَّفُ نَحْنُ أيْضاً نَتَوَقَّفُ»[٢].

وجاء في حديث آخر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«كُلُّ مَنْ يَقُولُ سُبْحانَ اللهِ يُغْرِسُ اللهُ لَهُ في الجَنَّةِ شَجَرَةً، وكُلُّ مَنْ يَقولُ الحَمْدُ

---

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، محمد الريشهري: ج٤، ص١٢٢، ح١٣٥١.

(٢) وسائل الشيعة: ج٤، ص١٢٠٨. العدل الإلهي، الشهيد مرتضى المطهري: ص٢٥٤.

لله يُغْرِسُ اللهُ لَهُ في الجَنَّةِ شِجَرَةُ، وكُلُّ مَن يَقولُ لاَ إلهَ إلاّ اللهُ يُغرِسُ لَهُ اللهُ شَجَرَةً في الجَنَّةِ، وكُلُّ مَنْ يَقولُ اللهُ أكبَرُ يُغرِسُ اللهُ لَهُ شَجَرَةً في الجَنَّةِ.

فقال لَهُ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ: إذَنْ أشْجارُنا في الجَنَّةِ كَثيرَة، فأجابَ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم:

نَعَمْ وَلكِنْ حاذِروا أن تَبعَثوا إلَيها ناراً تُحْرِقُها عَنْ بَكْرَةِ أبيها، وكَما قالَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ﴾[1])[2].

مما تقدم نخلص إلى جواب وهو أن الأعمال تتجسم في الآخرة وكما يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

وقوله تعالى:

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلۡكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3].

وهناك إضافة إلى ما تقدم من الجزاء هو أثر للعمل فلا يقال لماذا لا يتناسب الأثر مع العمل القبيح فمثلا: لو شرب رجل سما في خمس دقائق وبسهولة ودون أن يؤذي أحدا فإنه يموت فلا يقال لماذا مات؟

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) العدل الإلهي للشهيد مرتضى المطهري: ص٢٥٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

وإذا زنى أحد وأصيب بمرض زهري مدى حياته فلا يقال لماذا لا يوجد تناسب بين الفعل الذي لم يستغرق إلا ساعة وبين نتيجة الفعل التي امتدت طوال عمر الفاعل، فإن هذه آثار لتلك الأعمال وهكذا في الآخرة فإن للأفعال آثارا لا تناسب الفعل.

السؤال: ما هي العوامل التي تساعد على قبول الأعمال؟

الجواب: ذكرت الأحاديث الشريفة خصالاً كثيرة ينبغي أن يتصف بها العامل لكي يقبل عمله وهي كما يلي:

١ـ التقوى: ينبغي أن يتصف العامل بالتقوى والتلبس بالطاعات لأن الله تعالى لا يتقبل إلا من المتقين كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وأكد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته للصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه على أن التقوى سبب في قبول العمل وإن كان قليلا:

«يا أبا ذرٍّ كُنْ بِالعَمَلِ بِالتَّقْوى أشَدَّ اهتِماماً مِنْكَ بِالعَمَلِ؛ فَإنَّهُ لاَ يَقِلُّ عَمَلٌ بِالتَّقْوى، وكَيفَ يَقِلُّ عَمَلٌ يُتَقَبَّلُ؟! يَقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»[2].

٢ـ العقل: هو الملاك الذي يمتاز به المكلف عن غيره والميزان الذي توزن به الأمور، والقوة التي تدرك بها العلوم والأشياء فلذا ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام:

«قَليلُ العَمَلِ مِنَ العاقِلِ مَقْبولٌ مُضاعَفٌ، وَكَثيرُ العَمَلِ مِنْ أهلِ الهَوى وَالجَهْلِ مَردودٌ»[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ج٢، ص٣٧٥، ح٢٦٦١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٧، ح١٤٣٣٣.

(٣) تحف العقول: ص٣٨٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٧، ح١٤٣٣٤.

٣ـ الإخلاص: كل عمل لا يتصف بالإخلاص فهو رياء ومردود على صاحبه لأنه لم يرد به وجه الله تعالى يكله إلى من عمل له فإذا كان عمله لسمعة بين الناس أو تحصيل فائدة منهم فليأخذ أجره ممن عمل له وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«إنَّكَ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْ عَمَلِكَ إلاّ ما أَخْلَصْتَ فيهِ»[١].

السؤال: ما هي الموانع التي تمنع قبول الأعمال؟

الجواب: تقدم ذكر العوامل التي تساعد على قبول الأعمال والآن لابد أن نحذر المؤمنين من موانع قبول الأعمال وهي كما يلي:

١ ـ عدم الاتصاف بالورع عن المعاصي وافتقاد العامل للخلق الحسن الذي يعاشر به الناس وسرعة الانفعال والغضب هي ما تمنع قبول الأعمال كما في قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«ثَلاثٌ مَنْ لَم تَكُنْ فيهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ عَمَلٌ: وَرَعٌ يَحْجُزُهُ عَنِ مَعاصي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وخُلْقٌ يُداري بِهِ النّاسَ، وَحِلْمٌ يَرُدُّ بِهِ جهلَ الجاهِلِ»[٢].

٢ـ الاختلال في العقائد وانكار أصول الدين سبب مهم في منع قبول العمل، سوء الخلق مع الوالدين والتقصير معهما حاجبا لمنع العمل، والخيانة والهروب عند الجهاد مانع ثالث بمنع قبول الأعمال كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ثَلاثَةٌ لاَ يَنْفَعُ مَعَهُنَّ عَمَلٌ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وعُقُوقُ الوالِدَينِ، والفِرارُ مِنَ الزَّحَفِ»[٣].

(١) غرر الحكم: ٣٧٨٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٨، ح١٤٣٣٥.

(٢) الخصال: ص١٢٥، ح١٢١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٨، ح١٤٣٣٧.

(٣) كنز العمال: ٤٣٨٢٤، ٤٣٩٣٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٨، ح١٤٣٤١.

٣ـ إطلاق اللسان فيما حرم الله تعالى من الغيبة والنميمة والفحش بالقول والبذاءة والغناء وقذف المؤمنين وهجائهم والسخرية والاستهزاء بهم وغير ذلك من زلات اللسان لهو من أكبر الموانع لقبول العمل بل هو ينسف العمل نسفا كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما عَمِلَ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ لِسانَهُ»[١].

وكما في قول الإمام الصادق عليه السلام لعَبّاد بن كثير البصري الصوفي:

«وَيْحَكَ يا عَبّادُ! غَرَّكَ أنْ عَفَّ بَطْنُكَ وَفَرْجُكَ؟! إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ في كِتابِهِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[٢].

اعْلَمْ أنَّهُ لاَ يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْكَ شَيْئاً حَتّى تَقولَ قَولاً عَدْلاً»[٣].

٤ـ إخفاء الحقد والضغائن في القلب على المؤمنين سبب آخر يمنع قبول الأعمال كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْ مُؤْمِنٍ عَمَلاً وَهُوَ مُضْمِرٌ عَلى أخيْهِ الْمُؤْمِنِ سُوءاً»[٤].

٥ـ الاستمرار على المعصية بإصرار يعد من الكبائر التي لا يقبل معها أي طاعة كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لاَ وَاللهِ لاَ يَقْبَلُ اللهُ شَيْئاً مِنْ طَاعَتِهِ عَلى الإصْرارِ عَلى شَيْءٍ مِنْ مَعاصيهِ»[٥].

السؤال: كيف نشخص العمل السيئ عند إلتباس الحق بالباطل؟

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٨٥. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٨، ح١٤٣٤٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠ و٧١.

(٣) الكافي: ج٨، ص١٠٧، ح٨١. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٤٣.

(٤) الكافي: ج٢، ص٣٦١، ح٨. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٤٧.

(٥) الكافي: ج٢، ص٢٨٨، ح٣. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٤٦.

الجواب:

لاشك أن الأعمال الصالحة معروفة واضحة وكذلك الأعمال السيئة إلاّ أن هناك ميزانا نوزن به العمل نعرف من خلاله قبح العمل أو حسنه، ويمكن تلخيص ذلك من خلال هذه النقاط المهمة:

١ـ إذا كان العمل مخجلا يستحى منه فهو قبيح، كما هو في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«احْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحى مِنْهُ فِي العَلانِيَّةِ»[1].

٢ـ إذا كان العمل يدعو للاعتذار فهو قبيح، كما ورد في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«احْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إذا سُئِلَ عَنْهُ صاحِبُهُ أنْكَرَهُ أوِ اعْتَذَرَ مِنْهُ»[2].

٣ـ إذا كان العمل مما ينكره صاحبه فهو قبيح، حيث قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«إيّاكَ وَكُلَّ عَمَلٍ إذا ذُكِرَ لِصاحِبِهِ أنْكَرَهُ»[3].

٤ـ إذا كان العمل سببا في تفرق الناس عنك أو يحط من مقامك، أو يوقع عليك ضرراً في الدنيا وإثما في الآخرة، حيث ورد في قول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«إيّاكَ وَكُلَّ عَمَلٍ يُنفِّرُ عَنْكَ حُرّاً، أوْ يُذِلُّ لَكَ قَدْراً، يَجْلِبُ عَلَيْكَ شَرّاً، أو تَحْمِلُ بِهِ إلَى القِيامَةِ وِزْراً»[4].

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٦٩. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٥٦.

(٢) ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٥٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٦٩، ح١٩. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٢٩، ح١٤٣٥٨.

(٤) غرر الحكم: ٢٧٢٧. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣١، ح١٤٣٥٩.

ـ نصائح ضرورية

دأب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام على إسداء النصائح إلى المؤمنين وإرشاد الأمة إلى طريق السعادة الدنيوية والأخروية، ومما يدخل تحت هذا العنوان ما ورد عنهم (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) من أحاديث تعد من نعم الله تعالى علينا وهي كما يلي:

١ــ أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بالتمسك بالعلم واتخاذه في كل عمل يريدون عمله كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لابن مسعود:

«يا بْنَ مَسْعودٍ، إذا عَمِلْتَ عَمَلاً فَاعْمَلْ بِعِلْمٍ وَعَقْلٍ، وإيّاكَ وأن تَعْمَلَ عَمَلاً بِغَيْرِ تَدَ بُّرٍ وعِلْمٍ؛ فإنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ يَقولُ:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾[1]»[2].

٢ـ على كل من يعمل عملا لابد أن يضع نصب عينيه الثواب والعقاب لكي تستقيم أعماله وتكون عند الله تعالى مرضية مقبولة كما أكد ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

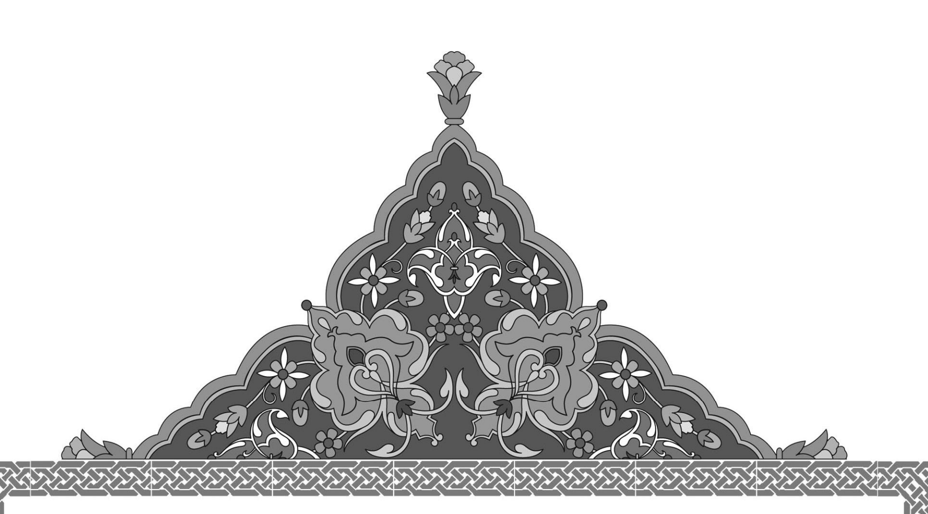
«اعْمَلْ عَمَلَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ مَجازيهِ بِإساءَتِهِ وإحْسانِهِ»[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٢.

(٢) مكارم الأخلاق: ج٣، ص٣٦١، ح٢٦٦٠. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣١، ح١٤٣٦٠.

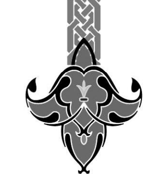
(٣) غرر الحكم: ٢٣٥٢. ميزان الحكمة: ج٧، ص٢٨٣١، ح١٤٣٦١.

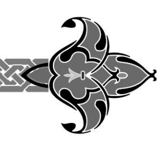


الخطبة السادسة

وفيها يُذكّر بفضائل أهل البيت

عليهم السلام ويأمر باتّباعهم





حمدَ الله وأثنى عليه، وصلّى على النّبي فقال:

نص الخطبة

(نَحْنُ حِزْبُ اللهِ الْغالِبُونَ، وَعِتْرَةُ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّم الأَقْرَبُونَ، وَأهْلُ بَيْتِهِ الطَّيِّبونَ، وَأحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذَيْنِ جَعَلْنا رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ثانِيَ كِتابِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى، الّذي فيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيءٍ، لا يَأتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْنا في تَفْسيرِهِ، لا يُبْطِئُنا تَأْويلُهُ، بَلْ نَتَّبِعُ حَقائِقَهُ، فَأَطيعُونا فَإنَّ طاعَتَنا مَفْرُوضَةٌ، أنْ كانَتْ بِطاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مَقْرُونَةٌ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1].

وَقالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2].

وَأحَذِّرُكُمْ الْإِصْغاءَ إِلى هُتُوفِ الشَّيْطانِ بِكُمْ فَإنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَتَكُونُوا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

كَأوْلِيائِهِ الّذينَ قالَ لَهُمْ:

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾(١).

فَتُلْقُونَ لِلسُّيُوفِ ضَرْباً، وَلِلرِّماحِ وِرْداً، وَلِلْعُمُدِ حَطْماً، وَلِلسِّهامِ غَرَضاً، ثُمّ لا يُقْبَلُ مِنْ نَفْسٍ إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً).

(نَحْنُ حِزْبُ الله الْغالِبُونَ، وَعِتْرَةُ رَسُولِ الله صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّم الأَقْرَبُونَ، وَأهْلُ بَيْتِهِ الطَّيِّبونَ، وَأحَدُ الثَّقَلَينِ الّذَيْنِ جَعَلْنا رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلّم ثانِيَ كِتابِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى، الّذي فيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيءٍ، لا يَأتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْنا في تَفْسيرِهِ، لا يُبْطِئُنا تَأْوِيلُهُ، بَلْ نَتَّبِعُ حَقائِقَهُ، فَأطيعُونا فَإنَّ طاعَتَنا مَفْرُوضَةٌ، أنْ كانَتْ بطاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مَقْرُونَةً، قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾.

يشير بضمير الجمع إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعرفهم بأنهم الجماعة القوية الصلبة القاهرة والفائزة التي ترتبط بالله تعالى، ونسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعشيرته الأقربون، وأهل بيته الأزكياء الطاهرون أو أحد الشيئين

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

العظيمين النفيسين الّذين جعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجهة المقابلة للقرآن الكريم، هذا الكتاب الذي فيه بيان أجزاء كل شيء، لا يأتيه الباطل أي لا يقع منه ما يخالف الحق أو ما يخالف الصحيح من أمامه أو من وراء ظهره، والمعتمد علينا في توضيح وشرح القرآن الكريم، ولا يتأخر علينا إرجاعه إلى أصله وحقيقته وباطنه، بل نطلب خالصه وكنهه، فانقادوا لنا فإن الانقياد لنا أمر واجب من الله تعالى، لأن طاعتنا ملازمة ومصاحبة لطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١).

(وَأحَذِّرُكُمْ الْإِصْغَاءَ إِلى هَتُوفِ الشَّيْطانِ بِكُمْ فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ، فَتَكُونُوا كَأَوْلِيائِهِ الَّذينَ قالَ لَهُمْ:

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾(٢).

فَتُلْقَوْنَ لِلسُّيُوفِ ضَرْباً، وَلِلرِّماحِ وِرْداً، وَلِلْعُمُدِ حَطْماً، وَلِلسِّهامِ غَرَضاً، ثُمَّ لا يَقْبَلُ مِنْ نَفْسٍ إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً).

وأخوفكم من الاستماع إلى صياح الشيطان بكم فإنه لكم عدو ظاهر، فإذا استمتعتم إلى هتوفه ستكونوا كأتباعه فتطرحون للسيوف الصوارم لتصيبكم، وتكونون مكانا لدخول الرماح، مكانا لتحطم وتكسر الأعمدة، وهدفا لرمي السهام، ثم بعد ذلك لا يرضى عنكم إذا لم تكونوا مؤمنين قبل هذا اليوم أو أنكم مؤمنون غير عاملين بالخير والمعروف.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

ـ فضل أهل البيت عليهم السلام

تختلف مقامات البشر ورتبهم تبعا لاختلاف ذواتهم من حيث الخصائص والصفات الذاتية والمؤهلات النفسية، وحيث إن بعض هذه الصفات والمؤهلات ما هو ظاهر فيعرف بها صاحبها، وبعضا منها يبقى باطنا فلا يحيط بها إلاّ خالقها سبحانه، ولذا صار المدح دليلا على مقام الممدوح وعلو رتبته، والذم دليلا على دنو رتبته وتسافله، إلاّ أننا نواجه سؤالا مهما في طرحنا هذا وهو: مَنْ له الحق في تقييم البشر وإعطائهم الرتبة التي تناسب خصائصهم ومؤهلاتهم؟ ومن البديهي أن يكون الجواب كالآتي:

أن من له القدرة على معرفة الخصائص والمؤهلات معرفة تامة دون الوقوع في الاشتباه أو الالتباس هو صاحب الحق في تقييم هؤلاء، وهذا لا ينطبق إلاّ على المعصوم في الرؤيا والتقييم، وهذا لا يكون إلا ممن له إحاطة تامة بهؤلاء البشر وهو ليس إلاّ خالقهم سبحانه بناء على أن العلّة عالمة بمعلولها.

فإذا تبين أن الله تعالى هو من له الحق في تقييم خلقه يلزم منه أن ما صدر من مدح إلهي في حق فرد أو مجموعة هو المعيار في تقديم وتفضيل هذا الفرد أو هذه المجموعة على غيرهم وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

فهو مدح إلهي صريح لفرد من أفراد البشر وهو الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم كما مدح غيره من الأنبياء في آيات كثيرة، وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

هو أيضا مدح صريح لمجموعة من الأفراد وهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا صار لأهل بيت العصمة عليهم السلام فضل على غيرهم فضلهم الله تعالى به، وهناك أحاديث كثيرة وردت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فنقف عليها ليتضح فضلهم وحقهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على الناس.

ـ فضلهم في القرآن الكريم

وردت الآيات الكريمة الكثيرة التي تبين فضل أهل البيت عليهم السلام عن طريق مصادر أهل السنة وهي كما يلي:

١ـ آية تبين طهارة وعصمة أهل البيت عليهم السلام كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

ورد في صحيح مسلم (في كتاب فضائل الصحابة، في باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم بسنده عن صفية بنت شيبة قالت:

قالت عائشة: خرج رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال:

«إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً»)[1].

(١) فضائل الخمسة: ج١، ص٢٧٠. (أقول) ورواه الحاكم أيضا في مستدرك الصحيحين: ج٣، ص١٤٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ورواه البيهقي أيضا في سننه: ج٢، ص١٤٩. ورواه ابن جرير أيضاً في تفسيره: ج٢٢، ص٥، عن عائشة. وذكره السيوطي أيضا في الدر المنثور في تفسير آية التطهير في سورة الأحزاب وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم، وذكره الزمخشري في الكشاف في تفسير آية المباهلة بمناسبة وهكذا الفخر الرازي، وقال: واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث (انتهى).

وجاء في سنن الترمذي (روى بسنده عن عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه ـ وآله وسلم قال: لمّا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه ــ وآله ــ وسلم:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1].

في بيت أم سلمة فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً فجللهم بكساء وعلي عليه السلام خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال:

«أنت على مكانك وأنت على خير»)[2].

٢ ـ آية المباهلة التي تبين عصمة أهل البيت عليهم السلام على النصارى فضلا عن الأمة الإسلامية كما في قوله تعالى:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[3].

ورد في سنن الترمذي (روى بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: لمّا أنزل الله هذه الآية (ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله صلى الله عليه ـ وآله

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) فضائل الخمسة: ج١، ص٢٧١. سنن الترمذي: ج٢، ص٢٠٩. (أقول) ورواه أيضا في: ج٢، ص٣٠٨، ثم قال: وفي الباب عن أم سلمة ومعقل بن يسار وأبي الحمراء وأنس. ورواه الطحاوي أيضا في مشكل الآثار: ج١، ص٣٣٥. ورواه ابن الأثير الجزري أيضاً في أسد الغابة: ج٢، ص١٢. ورواه ابن جرير الطبري أيضاً في تفسيره: ج٢٢، ص٦ ـ ٧، وقال عم أم سلمة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

ـ وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال:

«اللهم هؤلاء أهلي»[1].

وروى الزمخشري في الكشاف والفخر الرازي في تفسيره الكبير، في ذيل تفسير آية المباهلة في سورة آل عمران، والشبلنجي في نور الأبصار واللفظ للأخير قال:

قال المفسرون: لّما قرأ رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غداً فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب ـ وكان كبيرهم وصاحب رأيهم ـ ما ترى يا عبد المسيح؟ قال: لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ولئن فعلتم ذلك لنهلكن (وفي رواية) قال لهم: والله ما لاعن قوم قط نبياً إلا هلكوا عن آخرهم، فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم وقد احتضن الحسن عليه السلام وأخذ بيد الحسين عليه السلام وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وعلي عليه السلام يمشي خلفها، والنبي صلى الله عليه ـ وأله ـ وسلم يقول لهم:

«إذا دعوت فأمنوا».

فلما رآهم أسقف نجران قال: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نباهلك وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم:

«فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلم وعليكم ما عليهم»

(١) فضائل الخمسة: ج١، ص٢٩١. سنن الترمذي: ج٢، ص١٦٦. (أقول) ورواه الحاكم أيضا في مستدرك الصحيحين: ج٣، ص١٥٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ورواه البيهقي أيضا في سننه: ج٧، ص٦٣.

فأبوا ذلك فقال:

«إني أنابذكم».

فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكنا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، وأن نؤدي إليك في كل سنة ألفي حلة، ألفاً في صفر وألفاً في رجب (قال: وزاد في رواية) وثلاثاً وثلاثين درعاً عادية وثلاثةً وثلاثين بعيراً وأربعةً وثلاثين فرساً غازية فصالحهم رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم على ذلك، وقال:

«والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر، وما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا».

(قال) أخرجه الخازن وغيره)[1].

٣ـ سورة هل أتى تبين مقام ورتبة أهل البيت عليهم السلام عند ربهم كما في:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[2].

ورد في أسد الغابة لابن الأثير الجزري (في ترجمة فضة النوبية، روى بسنده عن مجاهد، عن ابن عباس قال: في قوله تعالى:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[3].

قال: مرض الحسن والحسين عليهما السلام فعادهما جدهما رسول الله صلى الله

---

(١) فضائل الخمسة: ج١، ص٢٩١ ـ ٢٩٢. نور الأبصار، الشبلنجي: ص١٠٠.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٨ و٩.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٧ و٨.

عليه ـ وآله ـ وسلم وعادهما عامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك نذراً، فقال علي عليه السلام:

«إن برئا مما بهما صمت لله عزّ وجل ثلاثة أيام شكراً».

وقالت فاطمة عليها السلام كذلك، وقالت جارية ـ يقال لها فضة نوبية ـ إن برئا سيداي صمت لله عزّ وجل شكراً فألب الغلامان العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير.

فانطلق علي عليه السلام إلى شمعون الخيبري فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير فجاء بها فوضعها فقامت فاطمة عليها السلام إلى صاع فطحنته واختبزته وصلى علي عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من أولاد المسلمين أطعموني أطعمكم الله عزّ وجل على موائد الجنة، فسمعه علي عليه السلام فأمرهم فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلاّ الماء.

فلما كان اليوم الثاني قامت فاطمة عليها السلام إلى صاع وخبزته وصلى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم ووضع الطعام بين يديه إذ أتاهم يتيم فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد يتيم بالباب من أولاد المهاجرين استشهد والدي أطعموني فأعطوه الطعام فمكثوا يومين لم يذوقوا إلا الماء.

فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة عليها السلام إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته فصلى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم ووضع الطعام بين يديه إذ أتاهم أسير فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهل بيت النبوة تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا، أطعموني فإني أسير فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا إلا الماء، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم فرأى ما

بهم من الجوع فأنزل الله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[١].

ثم قال: أخرجها أبو موسى)[٢].

وذكر الواحدي في أسباب النزول (في بيان نزول قوله تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

في سورة هل أتى قال: قال عطاء عن ابن عباس، وذلك أن علي بن أبي طالب عليه السلام نوبة آجر نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح وقبض الشعير وطحن ثلثه فجعلوا منه شيئا ليأكلوه يقال له الحريرة فلما تم إنضاجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام، ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأله فأطعموه إياه، ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فأطعموه وطووا، يومهم ذلك، فأنزلت فيه هذه الآية)[٣].

(١) سورة الإنسان، الآيات: ١ إلى ٩.

(٢) فضائل الخمسة للسيد مرتضى الفيروز آبادي: ص٣٠١ ـ ٣٠٢. أسد الغابة لابن أثير: ج٥، ص٥٣٠.

(٣) فضائل الخمسة للسيد مرتضى الفيروز آبادي: ج١، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣. أسباب النزول، الواحدي: ص٣٣١. (أقول) وذكره المحب الطبري أيضاً في الرياض النضرة: ج٢، ص٢٢٧، وقال فيه: يقال له الحريرة دقيق بلا دهن وقال: هذا قول الحسن وقتادة إن الأسير كان من المشركين، وقال سعيد ابن جبير: الأسير المحبوس من أهل القبلة. وذكره أيضا في ذخائره: ص١٠٢.

٤ـ آية المودة التي دعا الله تعالى فيها الأمة الإسلامية إلى محبة واحترام أهل البيت عليهم السلام، يفهم من هذه الآية الكريمة ما لهؤلاء الأطهار عليهم السلام من منزلة عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾[1].

ورد في تفسير ابن جرير الطبري:

(روى بسنده عن أبي إسحاق قال: سألت عمرة بن شعيب عن قول الله عزّ وجل:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

قال: قربى النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم)[2].

ورد عن السيوطي في الدر المنثور (وأخرج ابن مردويه من طريق ابن المبارك عن ابن عباس في قوله: (إلا المودة في القربى) قال ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «تحفظوني في قرابتي»)[3].

ورد أيضا عن السيوطي في الدر المنثور (وأخرج أبو نعيم والديلمي عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم:

«(لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم بي)»[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) فضائل الخمسة، السيد مرتضى الفيروز آبادي: ج١، ص٣٠٦. تفسير الطبري: ج٢٥، ص١٧.

(٣) فضائل الخمسة، السيد مرتضى الفيروز آبادي: ج١، ص٣٠٧. الدر المنثور للسيوطي.

(٤) المصدر السابق.

ـ فضلهم عليهم السلام في السنة النبوية

بعد أن بيّنا فضلهم عليهم السلام في القرآن الكريم عن طريق مصادر أهل السنة صار من المناسب أن نقرن ذلك الذي بينا ببيان ما جاء في فضلهم عليهم السلام على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعن ذات الطريق ليكون حجة لنا على غيرنا وهو كالآتي:

١ـ حديث الثقلين الذي يصرح بفضل أهل البيت عليهم السلام ودورهم في قيادة الأمة ويبين حاجتها لهم كحاجتها لكتاب الله تعالى كما ورد ذلك في سنن الترمذي:

(حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ ـ كُوفِيٌّ ـ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، قَالَ حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ وَالأَعْمَشُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِى ثَابِتٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالاَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم ـ:

«إِنِّى تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِى أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَعِتْرَتِى أَهْلُ بَيْتِى وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَىَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِى فِيهِمَا».

قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ)(١).

٢ـ وما ذكره صاحب مستدرك الصحيحين فيه بيان أن أهل البيت عليهم السلام هم المراجع الذي ترجع إليه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وهم الذين يرفعون الاختلاف الذي يقع فيها:

(عن سليمان الأعمش قال: ثنا حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حجة الوداع ونزل

---

(١) سنن الترمذي: ج١٣، ص٤٠٩، ح٤١٥٧.

غدير خم أمر بدوحات فقمن، فقال:

«كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»[1].

٣ـ الروايات التي تذكر أن نسب أهل البيت عليهم السلام وحسبهم فوق كل نسب وحسب وأفضل من كل نسب وحسب في الدنيا والآخرة كثيرة نذكر منها:

جاس في الجامع الصغير للسيوطي:

«كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»[2].

وجاء في مسند أحمد: (عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنِ الْمِسْوَرِ قَالَ: بَعَثَ حَسَنُ بْنُ حَسَنٍ إِلَى الْمِسْوَرِ يَخْطُبُ بِنْتًا لَهُ قَالَ لَهُ تُوَافِينِي فِي الْعَتَمَةِ فَلَقِيَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ الْمِسْوَرُ فَقَالَ مَا مِنْ سَبَبٍ وَلا نَسَبٍ وَلاَ صِهْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَسَبِكُمْ وَصِهْرِكُمْ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ـ وآله ـ وَسَلَّمَ قَالَ:

«فَاطِمَةُ شُجْنَةٌ مِنِّي يَبْسُطُنِي مَا بَسَطَهَا وَيَقْبِضُنِي مَا قَبَضَهَا وَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَنْسَابُ وَالأَسْبَابُ إِلاّ نَسَبِي وَسَبَبِي».

وَتَحْتَكَ ابْنَتُهَا وَلَوْ زَوَّجْتُكَ قَبَضَهَا ذَلِكَ فَذَهَبَ عَاذِرًا لَهُ)[3].

٤ـ هناك روايات متفرقة تشير إلى فضائل متعددة يقف المرء مذهولا أمامها وهي كالآتي:

---

(١) المستدرك على الصحيحين للنيسابوري: ج١٠، ص٣٧٧، ح٤٥٥٣، وج١١، ص١٨، ح٤٦٩٤، باختلاف بسيط (إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله، وأهل بيتي، وإنما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

(٢) الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي: ج٢، ص٢٨٨، ح٦٣٦١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ج٣٨، ص٣٩٢، ح١٨١٦٧.

عن النبي صلى الله عليه ــ وآله ــ وسلم:

«يا أيها الناس إني فرط لكم وإنكم واردون عليَّ الحوضَ حوض أعرض ما بين صنعاء وبصرى فيه عدد النجوم قدحان من فضة وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا عترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ».

الطبراني، وأبو نعيم في الحلية، والخطيب عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد)[1].

وجاء في مسند أحمد بن حنبل: (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ قَالَ حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ عَنْ شَدَّادٍ أَبِي عَمَّارٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَذَكَرُوا عَلِيًّا فَلَمَّا قَامُوا قَالَ لِي أَلا أُخْبِرُكَ بِمَا رَأَيْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ــ وآله ــ وَسَلَّمَ قُلْتُ بَلَى قَالَ أَتَيْتُ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا أَسْأَلُهَا عَنْ عَلِيٍّ قَالَتْ:

«تَوَجَّهَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ـ وآله ـ وَسَلَّمَ».

فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ــ وآله ــ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ عَلِيٌّ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ آخِذٌ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِيَدِهِ حَتَّى دَخَلَ فَأَدْنَى عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ فَأَجْلَسَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْلَسَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى فَخِذِهِ ثُمَّ لَفَّ عَلَيْهِمْ ثَوْبَهُ أَوْ قَالَ كِسَاءً ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2].

وَقَالَ:

---

(١) الجامع الكبير للسيوطي: ج١، ص٢٦٧٨٨، ح٦٧٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

«اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ»[1].

نكتفي بهذا المقدار لعلمنا أنه كاف لكل ذي لب، علما أن هناك فضائل لا يحيط بها أحد من الناس إلا الراسخون في العلم.

ـ بحث عقائدي

ـ العدل الثاني

الحديث عن القرآن والوقوف على حقائقه وبواطنه لا يتسنى إلا للمعصوم الذي سدده الله تعالى ليكون حجة على الناس، وهذا أمر لا جدال فيه كما في القرآن الكريم من غرائب وعجائب وعلوم وحكم عبر وأمثال محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وبلاغة وبيان وفصاحة وتحدي وانتصار وغيب وشهود وأدب وأخلاق وعقائد وسنن، ولخص كل ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بوصفه للقرآن عندما قال:

«ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيصوب آراءهم جميعا وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد. أفأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[2].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج٣٤، ص٣٥٠، ح١٦٣٧٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

وفيه تبيان كل شيء، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١].

وان القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق»[٢].

ولابد أن يكون القرآن الكريم هكذا لكي يصلح أن يكون منهاجاً البشر إلى الكمال والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولكي نسلط الضوء على وصف القرآن الكريم لابد أن نطّلع على أقوال محمد وآل محمد صلوات الله عليهم في وصف كتاب الله العظيم:

١ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لّما قيل له: أمَّتُكَ سَتُفتَنُ: ما المَخرَجُ مِن ذلك، قال:

«كِتابُ اللهِ العَزيزُ، الذي لاَ يَأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ، مَنِ ابْتَغى العِلْمَ في غَيْرِهِ أضَلَّهُ اللهُ»[٣].

٢ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن قال:

«جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ العُلَماءِ، وَرَبيعاً لِقُلوبِ الفُقَهاءِ، وَمَحاجّ لِطُرُقِ الصُلَحاءِ، وَدَواءً ليسَ بَعْدَهُ داءٌ، ونوراً ليسَ مَعَهُ ظَلَمَةٌ»[٤].

وعنه عليه السلام أيضا:

«اعْلَموا أنَّ هذا القرآنَ هُوَ النّاصِحُ الذي لاَ يَغُشُّ، والهادي الذي لاَ يَضِلُّ،

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) نهج البلاغة، الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج١، ص٥٤ ـ ٥٥، ح١٨.

(٣) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٥، ح١٦٤١١.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٠، ص١٩٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٥، ح١٦٤١٢.

والمُحَدِّثُ الذي لاَ يَكْذِبُ، وما جالَسَ هذا القرآنَ أحَدٌ إلاّ قامَ عَنْهُ بِزِيادَةٍ أو نُقْصانٍ، زيادَةٍ في هُدًى، أو نُقْصانٍ مِن عَمًى»[1].

٣ـ عن الإمام الحسن عليه السلام قال:

«إنّ هذا القرآنَ فيهِ مَصابيحُ النُورِ وشِفاءُ الصُدورِ، فَلْيَجلُ جالٍ بِضَوئِهِ، وليُلجمِ الصِّفَةَ قَلبَهُ فإنّ التَّفكيرَ حَياةُ القَلبِ البَصيرِ كما يَمشي المُستَنيرُ في الظُلُماتِ بالنّورِ»[2].

٤ـ عن الإمام الصادق عليه السلام لمّا سُئل: ما بالُ القرآن لا يَزدادُ عَلى النَّشرِ والدَّرس إلاّ غَضاضَةً؟، قال:

«لأنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَمْ يَجْعَلْهُ لِزَمانٍ دونَ زَمانٍ، ولاَ لِناسٍ دونَ ناسٍ، فَهُوَ في كُلِّ زَمانٍ جَديدٌ، وعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إلى يومِ القِيامَةِ»[3].

٥ـ عن الإمام الرضا عليه السلام في صفة القرآن قال:

«هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتينُ، وَعُرْوَتُهُ الوُثْقى، وَطَريقَتُهُ المُثلى، المُؤَدّي إلَى الجَنَّةِ، والمُنجي مِنَ النّارِ، لاَ يَخْلُقُ عَلى الأزْمِنَةِ، ولاَ يَغِثّ على الألْسِنَةِ، لأنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمانٍ دونَ زَمانٍ، بَلْ جُعِلَ دَليلَ البُرْهانِ، والحُجَّةَ عَلى كُلِّ إنسانٍ، لاَ يَأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ»[4].

بعد أن عرفنا وصف القرآن عن أهله صار تأكيد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على التمسك به هادياً ولازما للأمة التي تبغي النجاة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٠، ص١٨. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٥ ـ ٣٣٢٦، ح١٦٤١٣.

(٢) كشف الغمّة: ج٢، ص١٩٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٩ ـ ٣٣٣٠، ح١٦٤٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٢، ص١٥، ح٨ وح٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٨، ح١٦٤٣٥.س

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٣٠، ح٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٢٩، ح١٦٤٣٦.

ولكي نصل إلى معرفة من له القدرة على فهم القرآن الكريم لابد أن نقف على حقيقتهم:

١ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«ما أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةً إلاّ لَها ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وكُلُّ حَرْفٍ حَدٌّ، وكُلُّ حَدٍّ مُطَّلَعٌ»[١].

٢ـ عن الإمام زينُ العابدين عليه السلام قال:

«كِتابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على أرْبَعَةِ أشْياءَ: عَلى العِبارَةِ، وَالإشارَةِ، واللَّطائِفِ، وَالحَقائِقِ، فَالعِبارَةُ لِلْعَوامِّ، وَالإشارَةُ لِلْخَواصِّ، واللَّطائِفُ لِلأَوْلِياءِ، وَالحَقائِقُ لِلأَنْبِياءِ»[٢].

٣ـ عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«إنَّ لِلْقُرآنِ بَطْناً، ولِلْبَطْنِ بَطْناً، ولَهُ ظَهْرٌ، ولِلظَّهْرِ ظَهْرٌ... وَلَيْسَ شيءٌ أبْعَدَ مِنْ عُقولِ الرِّجالِ مِنْ تَفْسيرِ القرآنِ، إنَّ الآيَةَ لَتَكُونُ أوَّلُها في شَيءٍ وَآخِرُها في شيءٍ، وهُوَ كَلامٌ مُتَّصِلٌ يَتَصرَّفُ عَلى وُجوهٍ»[٣].

وبعد معرفة حقيقته اتضح لنا نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرين عليهم السلام عن تفسير القرآن الكريم بالفهم الخاص والرأي والجهل كما في قولهم (صلوات الله عليهم).

١ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قالَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: ما آمَنَ بي مَنْ فَسَّرَ بِرَأيِهِ كَلامي»[٤].

---

(١) كنز العمال: ٢٤٦١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٢، ص٢٠، ح١٨. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧١.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٢، ص٩٥، ص٤٨. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٩٢، ص١٠٧، ح١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧٥.

٢ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«مَنْ قالَ في القرآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»(١).

٣ـ عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«مَنْ تَكَلَّمَ في القُرآنِ بِرَأيْهِ فَأَصابَ فَقَدْ أخْطَأ»(٢).

٤ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أكْثَرُ ما أخافُ على أُمَّتِي مِنْ بَعْدي رَجُلٌ يَتأوَّلُ القُرْآنَ يَضَعُهُ عَلى غَيْرِ مَواضِعِهِ»(٣).

٥ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«مَنْ فَسَّرَ القُرآنَ بِرَأْيِهِ فَأَصابَ لَمْ يُؤْجَرْ، وَإنْ أخْطَأ كانَ إثْمُهُ عَلَيْهِ»(٤).

٦ـ قال الإمام الباقر عليه السلام لِقَتادةَ بنِ دِعامة:

«يا قَتادَةُ، أنْتَ فَقيهُ أهْلِ البَصْرَةِ؟».

فقالَ: هكَذا يَزْعُمونَ، فقالَ أبو جَعْفَرٍ عليه السلام:

«بَلَغَني أنَّكَ تُفَسِّرُ القُرآنَ».

قالَ لَهُ قَتادةُ: نَعَمْ، فقالَ أبو جَعْفَرٍ عليه السلام:

بِعِلْمٍ تُفَسِّرُهُ أمْ بِجَهْلٍ؟».

قال: لا، بِعِلْمٍ ـ إلى أن قالَ ـ:

«يا قَتادَةُ إنّما يَعْرِفُ القُرْآنَ مَنْ خُوطِبَ بِهِ»(٥).

(١) كنز العمال: ٢٩٥٨. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٢، ص١١١، ح٢٠. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٥٠، ح١٦٥٧٨.

(٣) منية المريد: ص٣٦٩. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٥٠، ح١٦٥٨٠.

(٤) بحار الأنوار: ج٩٢، ص١١٠، ح١١. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٤٩، ح١٦٥٧٦.

(٥) الكافي: ج٨، ص٣١١، ح٤٨٥. ميزان الحكة: ج٨، ص٣٣٥٠، ح١٦٥٨٢.

وبما تقدم من هذه الروايات الشريفة نصل إلى أن القرآن الكريم أهلاً يبينونه كما أمرهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس أولئك إلاّ عترة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يتقدمهم أبوهم أمير المؤمنين عليه السلام، وبمجرد الوقوف على قول أمير المؤمنين عليه السلام في حق القرآن الكريم يتضح صدق دعوانا أن عليا وأولاده هم القادرون على حمل القرآن الكريم وفهمه ومعرفته ــ فيقول أمير المؤمنين:

«إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى أَنْزَلَ القُرْآنَ عَلى سَبْعَةِ أَقْسامٍ، كُلٌّ مِنْها شافٍ كافٍ، وَهي: أَمْرٌ، وَزَجْرٌ، وَتَرْغيبٌ، وَتَرْهيبٌ، وَجَدَلٌ، وَمَثَلٌ، وَقُصَصٌ.

وَفي القُرْآنِ ناسِخٌ وَمَنْسُوخٌ وَمُحْكَمٌ وَمُتَشابِهٌ، وَخاصٌّ وَعامٌ، وَمُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ، وَعَزائِمُ وَرُخَصٌ، وَحَلالٌ وَحَرامٌ، وَفَرائِضُ وَأَحْكامٌ، وَمُنْقَطِعٌ وَمَعْطوفٌ، وَمُنْقَطِعٌ غَيْرُ مَعْطوفٍ، وَحَرْفٌ مَكانَ حَرْفٍ.

وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ خاصٌّ، وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ عامٌ مُحْتَمِلُ العُمُومِ، وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ واحِدٌ وَمَعْناهُ جَمْعٌ، وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ جَمْعٌ وَمَعْناهُ واحِدٌ، وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ ماضٍ وَمَعْناهُ مُسْتَقْبَلٌ، وَمِنْهُ ما لَفْظُهُ عَلى الخَبَرِ وَمَعْناهُ حِكايَةٌ عَنْ قَوْمٍ آخَرَ، وَمِنْهُ ما هُوَ باقٍ مُحَرَّفٌ عَنْ جِهَتِهِ، وَمِنْهُ ما هُوَ عَلى خِلافِ تَنزيلِهِ، وَمِنْهُ ما تَأْويلُهُ في تَنْزيلِهِ، وَمِنْهُ ما تَأْويلُهُ قَبْلَ تَنْزيلِهِ، وَمِنْهُ ما تَأْويلُهُ بَعْدَ تَنْزيلِهِ.

وَمِنْهُ آياتٌ بَعْضُها في سُورَةٍ وَتَمامُها في سُورَةٍ أخرى، وَمِنْهُ آياتٌ نِصْفُها مَنْسُوخٌ وَنِصْفُها مَتْروكٌ عَلى حالِهِ، وَمِنْهُ آياتٌ مُخْتَلِفَةُ اللَّفْظِ مُتَّفِقَةُ المَعْنى، وَمِنْهُ آياتٌ مُتَّفِقَةُ اللَّفْظِ مُخْتَلِفَةُ المَعْنى، وَمِنْهُ آياتٌ فيها رُخْصَةٌ وَإِطْلاقٌ بَعْدَ العَزيمَةِ، لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كَما يُؤْخَذُ بِعَزائِمِهِ.

وَمِنْهُ رُخْصَةٌ صاحِبِها فيها بِالْخِيارِ إِنْ شاءَ أَخَذَ وَإِنْ شاءَ تَرَكَها، وَمِنْهُ رُخْصَةٌ

ظاهِرُها خِلافُ باطِنِها يُعْمَلُ بِظاهِرِها عِنْدَ التَّقيَّةِ وَلاَ يُعْمَلُ بِباطِنِها مَعَ التَّقِيَّةِ، وَمِنْهُ مُخاطَبَةٌ لِقَومٍ وَالمَعْنى لآخَرينَ، وَمِنْهُ مُخاطَبَةٌ للنَّبي (صلى الله عليه وآله) وَمَعْناهُ واقِعٌ عَلى أمَّتِه، وَمِنْهُ لاَ يُعْرَفُ تحريمُهُ إلاَّ بِتَحْليلِهِ، وَمِنْهُ ما تأليفُهُ وَتَنْزيلُهُ عَلى غَيْرِ مَعنى ما أُنْزِلَ فِيه.

وَمِنْهُ رَدٌّ مِنَ اللهِ تَعالى وَاحْتِجاجٌ عَلى جَميعِ المُلْحِدينَ وَالزَّنادِقَةِ وَالدَّهْرِيَّةِ وَالثَّنَوِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ وَالمُجَبِّرَةِ وَعَبَدَةِ الأَوْثانِ وَعَبِدَةِ النّيرانِ، وَمِنْهُ احْتِجاجٌ عَلى النَّصارى في المَسيحِ (عليه السلام)، وَمِنْهُ الرَّدُّ عَلى اليَهُودِ، وَمِنْهُ الرَّدُّ عَلى مَنْ زَعَمَ أنَّ الإيمانَ لاَ يَزيدُ وَلاَ يَنْقُصُ وَأَنَّ الكُفْرَ كَذلِكَ، وَمِنْهُ رَدٌّ عَلى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَيْسَ بَعْدَ المَوْتِ وَقَبْلَ القِيامَةِ ثَوابٌ وَعِقابٌ»[1].

فالابتعاد عن أمير المؤمنين عليه السلام وعترة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في فهم القرآن الكريم يقود إلى الهلاك وهذا ما صرح به الإمام علي عليه السلام لّما سئل عن تفسير المحكم والمتشابه من كتاب الله عز وجل:

«أمّا المُحْكَمُ الذي لَمْ يَنْسَخْهُ شَيءٌ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾[2].

وإنَّما هَلَكَ النّاسُ في المُتَشابِهِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا عَلى مَعْناهُ وَلَمْ يَعْرِفوا حَقيقَتَهُ، فَوَضَعوا لَهُ تَأويلاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ بِآرائِهِم واسْتَغْنَوا بِذلِكَ عَنْ مَسْأَلَةِ الأَوْصِياءِ.... .

وَأمّا المُتَشابِهِ مِنَ القُرْآنِ فَهُوَ الّذي انْحَرَفَ مِنْهُ، مُتَّفِقُ اللَّفْظِ مُخْتَلِفُ المَعْنى، مِثلُ قَولِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٣، ص٤. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٥١ ـ ٣٣٥٢، ح١٦٥٨٨

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[١].

فَنَسَبَ الضَّلالَةَ إلى نَفْسِهِ فِي هَذا المَوْضِعِ، وَهَذا ضَلالُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الجَنَّةِ بِفِعْلِهِمْ، وَنَسَبَهُ إلى الكُفّارِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَنَسَبَهُ إلى الأصْنامِ فِي آيَةٍ أُخْرى»[٢].

ولكي نخلص إلى وجوب الابتعاد عن الضلال والهلاك علينا التمسك بعترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين هم العدل الثاني للقرآن الكريم كما جاء ذلك في حديث الثقلين الذي رواه جمع كبير من الصحابة.

وتأكيدا لصحة الحديث عند شيعة أهل البيت عليهم السلام نذكر الحديث من مصادر أهل السنة وهي كما يلي:

١. صحيح الترمذي

٢٩٨٠ــ عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم:

«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٣].

٢. القاموس المحيط

ومنه الحديث:

«إنّي تاركٌ فيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كتابَ اللهِ وعِتْرَتي»[٤].

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٣، ص١١، أنظر تمام الكلام. ميزان الحكمة: ج٨، ص٣٣٥٢ ــ ٣٣٥٣، ح١٦٥٨٩.

(٣) صحيح الترمذي: ج٣، ص٢٢٧، ح٢٩٨٠.

(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي: ج٣، ص٦٣.

٣. مسند أحمد

١٠٧٠٧ـ حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ يَعْنِي ابْنَ طَلْحَةَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ـ وآله ـ وَسَلَّمَ قَالَ:

إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِي كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانْظُرُونِي بِمَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا»[١].

٤. الطبقات الكبرى لابن سعد

أخبرنا هاشم بن القاسم الكناني، أخبرنا محمد بن طلحة عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي، صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم، قال:

«إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٢].

٥. المعجم الكبير للطبراني

٤٩٦٩ـ حدثنا محمد بن حيان المازني حدثنا كثير بن يحيى ثنا أبو كثير بن يحيى ثنا أبو عوانة وسعيد بن عبد الكريم بن سليط الحنفي عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عمرو بن واثلة عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمت ثم قال فقال:

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج٢٢، ص٢٥٢، ح١٠٧٠٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٢، ص١٩٤.

«كأني قد دعيت فأجبت إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟ فانهما لن يتفرعا حتى يردا علي علي الحوض».

ثم قال:

«إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن».

ثم أخذ بيد علي فقال:

«من كنت مولاه فهذا مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فقلت لزيد: أنت سمعته من رسول الله؟ فقال: ما كان في الدوحات أحد إلا قد راه بعينيه وسمعه بأذنيه[(١)].

٦. جامع الأصول

٦٧٠٨ـ يزيد بن حيان، قال: انطلقْتُ أنا وحُصينُ بنُ سَبْرَةَ وعمرُ بنُ مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حُصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيرا كثيرا رأيتَ رسولَ الله ـ صلى الله عليه (وآله) وسلم ـ، وسمعتَ حديثَه، حدِّثْنا يا زيدُ ما سمعتَ من رسولِ الله ـ صلى الله عليه (وآله) وسلم ـ، قال: يا ابنَ أخي، فما حدَّثْتُكم فاقْبلوا، ومالا فلا تُكلِّفونيه، ثم قال:

قام رسولُ الله ـ صلى الله عليه (وآله) وسلم ـ يوما فينا خطيبا بماء يُدعى: خُمّا، بين مكةَ والمدينةِ، فَحمِدِ الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال:

«أما بعدُ، ألا أيُّها الناس، إنما أنا بشر، يُوشِكُ أن يأتيَ رسولُ ربي فأُجيبَ، وإني تارِكٌ فيكم ثَقَلَيْن، أولُهما: كتابُ الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به».

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج٥، ص١٦٦، ح٤٩٦٩.

فحثَّ على كتاب الله، ورغَّب فيه، ثم قال:

«وأهلُ بيتي، أُذَكِّرُكُم الله في أهل بيتي، أُذَكِّركم الله في أهل بيتي، (أذكِّركم الله في أهل بيتي)».

فقال له حصين: ومَن أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهلُ بيته مَن حُرِمَ الصدقةَ بعدَه، قال: ومَن هم؟ قال: هم آلُ عليّ، وآلُ عقيل، وآلُ جعفر، وآلُ عباس، قال: كلُّ هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم).

زاد في رواية «كتابُ الله، فيه الهدى والنور، مَن استمسك ـ به ـ وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضلّ»[1].

٧ـ مسند عبد بن حميد

٢٦٧ـ عن يزيد بن حيان، قال: سمعت زيد بن أرقم، يقول: قام فينا رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فتمسكوا بكتاب الله وخذوا به».

فحث على كتاب الله، ورغب فيه، ثم قال:

«وأهل بيتي؛ أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات».

فقال حصين: يا زيد، ومن أهل بيته؟ أليست نساؤه من أهل بيته؟.

قال: بلى، إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده.

قال: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس.

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير: ج٩، ص٦٧٠٨، ح٦٧٠٨.

قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[١].

٨ـ الدر المنثور

وأخرج أحمد عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم:

«إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي وأهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض»[٢].

٩ـ الجامع الصغير

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«أما بعد ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي».

١٠ـ مصنف ابن أبي شيبة

٣٠٠٨١ـ حدثنا زكريا قال حدثنا عطية عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم قال:

«إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»[٣].

---

(١) مسند عبد بن حميد: ج١، ص٢٨٦، ح٢٦٧.

(٢) الدر المنثور للسيوطي: ج٢، ص٤٠١.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ج٦، ص١٣٣، ح٣٠٠٨١.

١١ ـ المستدرك على الصحيحين

٤٥٥٣ـ حدثنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن تميم الحنظلي، ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي، ثنا يحيى بن حماد، وحدثني أبو بكر محمد بن بالويه، وأبو بكر أحمد بن جعفر البزار قالا: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، ثنا يحيى بن حماد، ثنا صالح بن محمد الحافظ البغدادي، ثنا خلف بن سالم المخرمي، ثنا يحيى بن حماد، ثنا أبو عوانة، عن سليمان الأعمش قال: ثنا حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم قال:

لما رجع رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم من حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمن، فقال:

«كأني قد دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالى، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض[1]»[2].

١٢ـ كتاب السنة

١٣٣٥ـ (حدثنا أبو مسعود الرازي، حدثنا زيد بن عوف، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل، عن زيد بن أرقم، قال:

لما رجع رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم من حجة الوداع كان بغدير خم، قال:

«كأني قد دعيت فأجبت، وإني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، وإن الله مولاي، وأنا ولي المؤمنين».

---

(١) الحوض: نهر الكوثر.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: ج١٠، ص٣٧٧، ح٤٥٥٣.

ثم أخذ بيد علي رضي الله عنهما، فقال:

«من كنت وليه فعلي وليه[1]».

فقال: أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم؟ فقال: ما كان في الركاب إلا قد سمعه بأذنيه ورآه بعينيه.

قال الأعمش: فحدثنا عطية، عن أبي سعيد، بمثل ذلك)[2].

١٣ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

١٤٩٦٢ـ (عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم:

«إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

رواه الطبراني في الأوسط وفي إسناده رجال مختلف فيهم)[3].

الجامع الصغير بشرح المناوي

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إني تارك فيكم».

بعد موتي.

«خليفتين».

---

(١) الولي والمولى: من المشترك اللفظي الذي يطلق على عدة معان منها الرّبّ، والسيد والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه وكل من ولي أمرا أو قام به فهو وليه ومولاه.

(٢) السنة لابن أبي عاصم: ج٤، ص٧٢، ح١٣٣٥.

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: ج٩، ص٢٥٧، ح١٤٩٦٢.

زاد في رواية، أحدهما أكبر من الآخر.

«كتاب الله».

القرآن.

«حبل».

أي هو حبل.

«ممدود ما».

زائدة.

«بين السماء والأرض».

قيل أراد به عهده وقيل أراد به السبب الموصل لرضاه.

«وعترتي».

بمثناة فوقية.

«أهل بيتي».

تفصيل بعد إجمال بدلاً أو بياناً وهم أصحاب الكساء يعني أن علمتم بالقرآن واهتديتم بهدى عترتي العلماء لم تضلوا.

«وإنهما لن يفترقا».

أي الكتاب والعترة.

«حتى يردا عليّ الحوض».

الكوثر يوم القيامة وقيل أراد به بعترته العلماء العاملين لأنهم الذين لا يفارقون القرآن أما نحو جاهل وعالم مخلط فلا وإنما ينظر للأصل والعنصر عند التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل فكما أن كتاب الله فيه الناسخ والمنسوخ المرتفع الحكم فكذا ترتفع القدوة بالمخذولين منهم.

فيض القدير

٢٦٣١ـ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إني تارك فيكم».

بعد وفاتي.

«خليفتين».

زاد في رواية أحدهما أكبر من الآخر وفي رواية بدل خليفتين ثقلين سماهما به لعظم شأنهما.

«كتاب الله».

القرآن.

«حبل».

أي هو حبل.

«ممدود ما بين السماء والأرض».

قيل أراد به عهده وقيل السبب الموصل إلى رضاه.

«وعترتي».

بمثناة فوقية.

«أهل بيتي».

تفصيل بعد إجمال بدلا أو بيانا وهم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وقيل من حرمت عليه الزكاة ورجحه القرطبي يعني إن ائتمرتم بأوامر كتابه وانتهيتم بنواهيه واهتديتم بهدي عترتي واقتديتم بسيرتهم اهتديتم فلم تضلوا.

قال القرطبي: وهذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجوب احترام أهله وإبرارهم وتوقيرهم ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف

عنها هذا مع ما علم من خصوصيتهم بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبأنهم جزء منه فإنهم أصوله التي نشأ عنها وفروعه التي نشأوا عنه كما قال:

«فاطمة بضعة مني».

ومع ذلك فقابل بنو أمية عظيم هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق فسفكوا من أهل البيت دماءهم وسبوا نساءهم وأسروا صغارهم وخربوا ديارهم وجحدوا شرفهم وفضلهم واستباحوا سبهم ولعنهم فخالفوا المصطفى صلى الله عليه ـ وآله ـ وسلم في وصيته وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته فوا خجلهم إذا وقفوا بين يديه ويا فضيحتهم يوم يعرضون عليه:

«وإنهما».

أي والحال أنهما وفي رواية أن اللطيف أخبرني أنهما.

«لن يفترقا».

أي الكتاب والعترة أي يستمرا متلازمين.

«حتى يردا عليّ الحوض».

أي الكوثر يوم القيامة.

زاد في رواية كهاتين وأشار بأصبعيه وفي هذا مع قوله أولا إني تارك فيكم تلويح بل تصريح بأنهما كتوأمين خلفهما ووصى أمته بحسن معاملتهما وإيثار حقهما على أنفسهما واستمساك بهما في الدين أما الكتاب فلأنه معدن العلوم الدينية والأسرار والحكم الشرعية وكنوز الحقائق وخفايا الدقائق وأما العترة فلأن العنصر إذا طاب أعان على فهم الدين فطيب العنصر يؤدي إلى حسن الأخلاق ومحاسنها تؤدي إلى صفاء القلب ونزاهته وطهارته)[1].

---

(١) فيض القدير للمناوي: ج٣، ص١٤، ح٢٦٣١.

رواة حديث الثقلين (الصحابة)

١ـ أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ـ الحسن السبط عليه السلام.

٣ـ أبو ذر الغفاري.

٤ـ سلمان الفارسي.

٥ـ جابر بن عبد الله الأنصاري.

٦ـ أبو الهيثم بن التيهان.

٧ـ حذيفة بن اليمان.

٨ـ حذيفة بن أسيد.

٩ـ أبو سعيد الخدري.

١٠ـ خزيمة بن ثابت.

١١ـ عبد الرحمن بن عون.

١٢ـ طلحة.

١٣ـ أبو هريرة.

١٤ـ سعد بن أبي وقاص.

١٥ـ أبو أيوب الأنصاري.

١٦ـ عمرو بن العاص.

١٧ـ فاطمة الزهراء عليها السلام.

١٨ـ أم سلمة أم المؤمنين.

١٩ـ زيد بن ثابت.

٢٠ـ أم هانئ بنت أبي طالب.

رواة حديث الثقلين (التابعين)

١ـ سعيد بن مسروق الثوري.

٢ـ سليمان بن مهران الأعمش.

٣ـ محمد بن إسحاق، صاحب السيرة.

٤ـ محمد بن سعد، صاحب الطبقات.

٥ـ أبو بكر بن أبي شيبة، صاحب المصنف.

٦ـ ابن راهويه، صاحب المسند.

٧ـ أحمد بن حنبل، صاحب المسند.

٨ـ عبد بن حميد، صاحب المسند.

٩ـ مسلم بن الحجاج، صاحب الصحيح.

١٠ـ ابن ماجة القزويني، صاحب السنن.

١١ـ أبو داود السجستاني، صاحب السنن.

١٢ـ الترمذي، صاحب السنن.

١٣ـ ابن أبي عاصم، صاحب كتاب السنة.

١٤ـ أبو بكر البزاز، صاحب المسند.

١٥ـ النسائي، صاحب السنن.

١٦ـ أبو يعلى الموصلي، صاحب المسند.

١٧ـ محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ والتفسير.

١٨ـ أبو القاسم الطبراني، صاحب المعاجم.

١٩ـ أبو الحسن الدارقطني البغدادي.

٢٠ـ الحاكم النيسابوري، صاحب المستدرك.

٢١ـ أبو نعيم الإصفهاني.

٢٢ـ أبو بكر البيهقي، صاحب السنن.

٢٣ـ ابن عبد البر، صاحب الاستيعاب.

٢٤ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.

٢٥ـ محيي السنة البغوي، مصابيح السنة.

٢٦ـ رزين العبدري، الجمع بين الصحاح الستة.

٢٧ـ القاضي عياض، كتاب الشفاء.

٢٨ـ ابن عساكر الدمشقي، تاريخ دمشق.

٢٩ـ ابن الأثير الجزري، أسد الغابة.

٣٠ـ الفخر الرازي، التفسير الكبير.

٣١ـ الضياء المقدسي، كتاب المختارة.

٣٢ـ أبو بكر زكريا النووي، صاحب شرح صحيح مسلم.

٣٣ـ أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال.

٣٤ـ شمس الدين الذهبي، صاحب تاريخ الإسلام ـ ميزان الاعتدال.

٣٥ـ ابن كثير الدمشقي، التاريخ والتفسير.

٣٦ـ نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد.

٣٧ـ جلال الدين السيوطي، صاحب الدر المنثور.

٣٨ـ شهاب الدين القسطلاني، رثا البخاري.

٣٩ـ شمس الدين الصالحي الدمشقي.

٤٠ـ ابن حجر العسقلاني.

٤١ـ ابن طولوان الدمشقي.

٤٢ـ ابن حجر المكي، صاحب الصواعق.

٤٣ـ صاحب كنز العمال.

٤٤ـ على القاري الهروي، الأوقات في شرح المكان.

٤٥ـ المناوي، الجامع.

٤٦ـا لحلبي، السيرة.

٤٧ـ دحلان، صاحب السيرة.

٤٨ـ منصور علي ناصف، صاحب التاج.

٤٩ـ النبهاني.

٥٠ـ المبارك، شارح صحيح الترمذي.

طاعة الشيطان

قوله عليه السلام:

(وَأحَذِّرُكُمُ الإِصْغَاءَ إِلى هُتُوفِ الشَّيْطانِ بِكُمْ فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ، فَتَكُونُوا كَأَوْلِيائِهِ الَّذينَ قالَ لَهُمْ).

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾[1].

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

فَتُلْقُوْنَ لِلسُّيُوفِ ضَرْباً، وَلِلرِّمَاحِ وِرْداً، وَلِلْعُمُدِ حَطْماً، وَلِلسِّهامِ غَرَضاً، ثُمَّ لا يَقْبَلُ مِنْ نَفْسٍ إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً).

لا يحتاج المؤمن إلى بيان عداوة الشيطان ولا يحتاج إلى معرفة طرق النجاة منه بعد أن صرح القرآن الكريم بذلك ما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[3].

ولكن لا بأس في التذكير بعداوة الشيطان والتحذير من حبائله لاسيما إذا عرفنا أن لإبليس طرقا خفية ومكائداً كثيرة وأفخاخا متعددة يصطاد بها من يغفل عنه، ولكي نقف على تحذيرات أهل البيت عليهم السلام ونواهيهم عن اتباع الشيطان لابد من ذكر ما ورد عنهم (صلوات الله عليهم أجمعين):

١ـ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يبين أن الشيطان عدو لا صلح معه ولا هدنه حينما يعظ ابن مسعود يقول:

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

«يا بنَ مَسْعودٍ، اتَخِذِ الشَّيْطانَ عَدُوّاً، فَإنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[1]»[2].

٢ـ وحذر أمير المؤمنين عليه السلام من الشيطان لما له من قدرة على اقتحام قلوب المؤمنين:

«احْذَرُوا عَدُوّاً نَفَذَ في الصُّدورِ خَفِيّاً، ونَفَثَ في الآذانِ نَجِيّاً»[3].

٣ـ جاء عن الإمام الصادق عليه السلام ما يؤكد أن للشيطان أفخاخاً ومكائدَ كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَقَدْ نَصَبَ إبْليسُ حَبائِلَهُ في دارِ الغُرورِ، فَما يَقْصِدُ فيها إلاّ أوْلِياءَنا»[4].

٤ـ حذر أمير المؤمنين عليه السلام من فتن الشيطان دونك من خلال بيان هذه الفتن:

«الفِتَنُ ثَلاثٌ: حُبُّ النِّساءِ وَهُوَ سَيْفُ الشَّيْطانِ، وشُرْبُ الخَمْرِ وَهُوَ فَخُّ الشَّيْطانِ، وحُبُّ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ وهُوَ سَهْمُ الشَّيْطانِ»[5].

٥ـ ولشدة تأثير الشيطان على الإنسان يعلمنا الإمام السجاد عليه السلام في مناجاته كيف ندعو الله تعالى لينجينا منه كما في قوله عليه السلام:

«إلهي أشْكُو إلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّني، وَشَيْطاناً يُغْويني، قَدْ مَلأَ بِالوَسْواسِ صَدْري، وأحاطَتْ هَواجِسُهُ بِقَلْبي، يُعاضِدُ لي الهَوى، ويُزَيِّنُ لي حُبَّ الدُّنيا، وَيَحولُ بَيْني وَبَيْنَ الطّاعَةِ وَالزُّلْفى»[6].

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٢) مكارم الأخلاق: ج٢، ٢٣٥٤، ح٢٦٦٠. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩١٩ ـ ١٩٢٠، ح٩٣٦٩.

(٣) غرر الحكم: ٢٦٢٣. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٠، ح٩٣٧١.

(٤) تحف العقول: ص٣٠١. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٠، ح٩٣٧٥.

(٥) كنز العمال: ٣٠٨٨٣. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢١، ح٩٣٧٦.س

(٦) بحار الأنوار: ج٩٤، ص١٤٣، ح٢١. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٠، ح٩٣٧٢.

بعد أن عرفنا مكائد الشيطان وحبائله وفتنه صار لزاما علينا مجاهدة هذا المخلوق الذي لا هم له إلا إيقاعنا في معصية الله تعالى، وهذا ما أكده الإمام الكاظم عليه السلام بقوله لمّا سُئِلَ عن أوجب الأعداء مجاهدة:

«أقْرَبُهُمْ إلَيْكَ وَأعَداهُمْ لَكَ... وَمَنْ يُحَرِّضُ أعْداءَكَ عَلَيْكَ، وَهُوَ إبليسُ»[١].

فعدم الابتعاد عن الشيطان يوجب الوقوع في معصية الله تعالى بل يوجب الوقوع في شرك الطاعة وهذا الشرك هو أحد أنواع الشرك الذي قالت عنه الآية الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

ولنوضّح الأمر نقول: إن الأوامر تصدر من الله تعالى أو من قبل أنبيائه ورسله وأوليائه فلذلك قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣].

وهذه الأوامر لا شك أنها تصب في مصلحة الإنسان في الدنيا وتكسبه الجنان في الآخرة، إلا أن هناك طرفاً آخر يصدر أوامراً مخالفة للأوامر الإلهية بل يزين ويسوّل لنا لنطيعه في هذه الأوامر ألا وهو إبليس، فإن أطعناه في أوامره هذه وأطعنا الله تعالى في أوامر أخرى تكون قد أشركنا في طاعة الله تعالى أمرا آخر وخرجنا عن عنوان التوحيد في الطاعة فلذا الحذر الحذر من الوقوع في الشرك، وهذا لا يتم إلا من خلال مخالفة الشيطان والابتعاد عن المقدمات التي تفضي إلى معصية الله تعالى فضلا عن نفس المعصية والتمسك بأوامر الله تعالى ونواهيه.

---

(١) تحف العقول: ص٣٩٩. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٠، ح٩٣٧٠.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ـ آثار طاعة الشيطان

لكل عمل أثر وضعي أو غير وضعي، وهكذا طاعة الشيطان فإن لها آثاراً وخيمة وضعية أو غير وضعية كما في الزنا (على سبيل المثال) الذي يقع فيه الإنسان نتيجة وسوسة الشيطان وتزيّنه للزاني والزانية، نلاحظ أن الأثر الوضعي هو فساد الحرث والنسل والسقوط عن أعين الناس وغيرها من الآثار الوخيمة وأمّا الأثر الشرعي فهو الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن وغير ذلك من الأمثلة التي لها آثار وضعية أو شرعية أو غير ذلك.

ولكي يتضح الأمر جليا لابد من التأمل فيما ورد عن أهل بيت الحكمة والعصمة عليهم السلام.

قبل أن أشير إلى آثار طاعة الشيطان التي وردت في الروايات أريد أن ألخص ذلك في هذه العبارة المستقاة من الآيات والروايات ألا وهي (أن طاعة الشيطان توجب سخط الرحمن ودخول النيران في الآخرة، وضنك العيش وعدم راحة القلب والشقاء في الدنيا) وباختصار أكثر (طاعة الشيطان شقاء الدنيا والآخرة) ولكي نؤكد هذا المعنى لا بأس بالاطلاع على الآيات والروايات التي أشارت إليه وهي كما يلي:

١ـ قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[١].

يبين لنا ما حصل لأبوينا رغم أنهما لم يطيعوه في معصية، إذ إنهما خالفا الأمر الإرشادي الذي أمرهما الله تعالى به إلا أن طاعة الشيطان أخرجتهما عن الجنة وما فيها

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

من روح وريحان إلى دنيا الألم والعذاب والكد والتعب.

٢ـ قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

يوضح أن اتباع الشيطان يوصل إلى الضلال بل الهلاك في عذاب جهنم في الدنيا والآخرة.

٣ـ قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[2].

يؤكد على أن الشيطان لا يريد للإنسان إلا أن يعيش قبيحا نجسا بعيداً عن كل ألوان الطهارة والحسن والجمال.

٤ـ قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

تشير هذه الآية الكريمة إلى خذلان الشيطان للإنسان الذي وقع في إغرائه، وتصرح بأن طاعته قد تؤدي إلى الخروج عن الدين في بعض الأحيان.

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٢١

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٦.

٥ــ طاعة الشيطان توجب الوقوع في الزلل والخوض في الباطل، بل تلغي شخصية المؤمن ويحل إبليس بدلا عنها في أفعالها وأقوالها وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام في ذَمِّ أتْباعِ الشَّيْطانِ:

«اتَخذُوا الشَّيْطانَ لأمْرِهِمْ مِلاكاً، واتَّخَذَهُمْ لَهُ أشْراكاً، فَباضَ وفَرَّخَ في صُدُورِهِم، وَدَبَّ وَدَرَجَ في حُجُورِهِم، فَنَظَرَ بِأعْيُنِهِم، وَنَطَقَ بِألْسِنَتِهِم، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطانُ في سُلطانِهِ، وَنَطَقَ بِالباطِلِ عَلى لِسانِهِ!»[1].

٦ـ طاعة إبليس توجب الوقوع في الجرائم والكبائر حتى تصل إلى درجة الكفر كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«إنَّ رَجُلاً كانَ يَتَعَبَّدُ في صَوْمِعَةٍ، وإنَّ امرأةً كانَ لَها إخْوَةٌ فَعَرَضَ لَها شَيْءٌ فَأتَوهُ بِها، فَزَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَوَقَعَ عَلَيها، فَجاءَهُ الشَّيْطانُ فَقالَ: أقْتُلْها فَإنَّهُم إنْ ظَهَرُوا عَلَيْكَ افْتَضَحْتَ، فَقَتَلَها ودَفَنَها، فَجاؤوهُ فَأخَذُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ، فَبَينَما هُم يَمْشونَ إذْ جاءَهُ الشَّيْطانُ فقالَ: إنّي أنا الذي زَيَّنْتُ لَكَ فاسْجُدْ لي سَجْدَةً أُنْجيكَ، فَسَجَدَ لَهُ، فذلِكَ قَولُهُ:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]»[3].

٧ـ طاعة إبليس توجب الاتصاف بكل رذيلة كالتكبر والحسد والبغي كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٧. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٢، ح٩٣٨١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.

(٣) الدرّ المنثور: ج٨، ص١١٦. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٢ ـ ١٩٢٣، ح٩٣٨٣.

«يَقُولُ إِبْلِيسُ لِجُنُودِهِ: أَلْقُوا بَيْنَهُمُ الحَسَدَ وَالبَغْيَ؛ فَإِنَّهُمَا يَعْدِلانِ عِنْدَ اللهِ الشِّرْكَ»[1].

٨ـ أخطر ما يقع فيه الإنسان بعد طاعته للشيطان هو نسيان ربه ثم الوقوع في الخسران المبين كما في قوله تعالى:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

٩ـ اتباع الشيطان يوجب ضرورة التابع من أوليائه وحزبه فينالهم الخوف كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

ـ أسئلة مهمة

السؤال: ما مقدار حدود سلطة الشيطان على الإنسان؟

الجواب: ليس للشيطان سلطة أكثر من التزيين والتسويل والوسوسة والنزغ، أي لا يجبر الإنسان على ارتكاب المعاصي ولا يسلبه الاختيار في الأفعال وهذا ما جاء في لسان الآيات والأحاديث التالية:

١ـ آية تشير إلى النزغ أي الإغراء بين الناس وحمل بعضهم على بعض كما في قوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٢٧، ح٢. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٧، ح٩٣٩٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

٢ـ آية تشير إلى إظهار القبيح حسنا فيتصوره الإنسان نفعا فيقع فيه كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

٣ـ آية تشير إلى الوسوسة وأثرها القبيح كما في قوله تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(٢).

٤ـ آية تشير إلى التسويل كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾(٣).

السؤال: ما هي الوسائل التي يتخذها الشيطان لإيقاع الإنسان في المعاصي أو الكفر؟

الجواب: الوسائل كثيرة وقد ذكر منها أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث فتن هي بمثابة أصول الفتن ليفتتن بها الإنسان فيقع في معصية الله تعالى:

«الفِتَنُ ثَلاثٌ: حُبُّ النِّساءِ وَهُوَ سَيْفُ الشَّيْطانِ، وشُرْبُ الخَمْرِ وَهُوَ فَخُّ الشَّيْطانِ، وحُبُّ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ وهُوَ سَهْمُ الشَّيْطانِ»(٤).

السؤال: ما هو ردنا على الذي يلقي باللوم على الشيطان عند وقوعه في المعصية؟

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٥.

(٤) كنز العمال: ٣٠٨٨٣. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢١، ح٩٣٧٦.

الجواب: إن إلقاء اللوم على الشيطان هو هروب من المسؤولية وعدم الاعتراف بالتقصير، لما تقدم من أن إبليس ليس له إلا التزيين والوسوسة دون الإجبار على الفعل كما أن الشيطان يتبرأ من فعل الإنسان السيئ ويلقي باللائمة عليه كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وردّ أمير المؤمنين عليه السلام على من يلعن الشيطان الذي أوقعه في المعاصي بقوله:

«لاَ تَسِبَّنَ إبليس (الشَّيْطانَ) في العَلَنِ وَأنْتَ صَديقُهُ في السِّرِ»[2].

السؤال: ما هو ردنا على من يقول أن شيطانه تغلب عليه فأوقعه في المعصية؟

الجواب: هذا تبرير يدل على التنصل من المسؤولية ودفع التقصير عن النفس حيث إن الشيطان لا قدرة له على المؤمن القوي لسببين هما:

ألف. ضعف كيد الشيطان كما في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٢٠، ص٣٢٩، ح٧٦٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١.

باء. إن المؤمن القوي هو الذي يجاهد الشيطان فينتصر عليه، وأمّا من يضعف أمام الشيطان ويستسلم له لا يعد من المؤمنين الأقوياء (والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) ولذلك ينصحنا الإمام الكاظم عليه السلام في وصيّته لِهشام:

«فَلَهُ (أي لإبليس) فَلْتَشْتَدّ عَداوَتك، وَلاَ يَكُونَنَّ أصْبَرَ عَلى مَجاهَدَتِهِ لِهَلَكَتِكَ مِنْكَ عَلى صَبْرِكَ لِمُجاهَدَتِهِ؛ فَإنَّهُ أضْعَفُ مِنْكَ رُكناً في قُوَّتِهِ، وَأقَلُّ مِنْكَ ضَرَراً في كَثْرَةِ شَرِّهِ، إذا أنْتَ اعْتَصَمْتَ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيتَ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ»[1].

وفي رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام لَمّا سُئِلَ عن أوجب الأعداء مجاهدة قال:

«أقْرَبُهُمْ إلَيْكَ وَأعَداهُمْ لَكَ... وَمَنْ يُحَرِّضُ أعْدائَكَ عَلَيْكَ، وَهُوَ إبليسُ»[2].

السؤال: لماذا ترك الله تعالى الشيطان يعبث بعباده؟

الجواب: نعلم أن هذه الدنيا هي دار امتحان واختبار ولكي يتحقق الثواب والعقاب فلابد من فتنة يفتتن بها المؤمن لكي يستحق أحد الأمرين من الثواب أو العقاب وهذا هو عين العدل الإلهي كما في قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[3].

السؤال: ما هي الطريقة المثلى للتخلص من فتن الشيطان؟

---

(١) تحف العقول: ص٤٠٠. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٥، ح٩٣٨٧.

(٢) تحف العقول: ص٣٩٩. ميزان الحكة: ج٥، ص١٩٢٠، ح٩٣٧٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢١.

الجواب: الأمر واضح لكل ذي لب وهو أن الالتجاء إلى الله تعالى والتمسك بحبله والاستعاذة به خير الطرق المنجية من الشيطان الرجيم كما في قوله تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

وهذا ما أكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«أحْمَدُ اللهَ وَأسْتَعِينُهُ على مَداحِرِ الشَّيْطانِ وَمَزَاجِرِهِ (مَزاجِرِهِ)، وَالاعْتِصامِ مِنْ حَبائِلِهِ وَمَخاتِلِهِ»[5].

السؤال: من هو الذي ينجو من إبليس؟

الجواب: لا ينجو منه إلا العباد الذين يخشون الله تعالى ويعبدونه كأنما يرونه وهذا ما أشار إليه قوله تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧ و٩٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٥١.

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾[2].

وهذه العبادة التي يجب أن يتصف بها من يريد النجاة من إبليس بينها الإمام الصادق عليه السلام بقوله:

«قالَ إبْليسُ: خَمْسَةٌ (أشْياءَ) لَيْسَ لي فيهِنَّ حِيلَةٌ وَسائِرُ النّاسِ في قَبْضَتي: مَنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ عَنْ نِيَّةٍ صادِقَةٍ وَاتَّكَلَ عَلَيْهِ في جَميعِ أمُورِهِ، وَمَنْ كَثُرَ تَسبيحُهُ في لَيلِهِ وَنَهارِهِ، وَمَنْ رَضِيَ لأَخِيهِ المؤْمِنِ بِما يَرْضاهُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجْزَعْ عَلى المُصيبَةِ حينَ تُصِيبُهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِما قَسَمَ اللهُ لَهُ وَلَم يَهْتَمَّ لِرِزْقِهِ»[3].

وكما أشار الإمام الباقر عليه السلام إلى ضرورة الخوف من الله تعالى خوفا حقيقيا بقوله:

«تَحَرَّزْ مِنْ إبْليسَ بِالخَوْفِ الصّادِقِ»[4].

وهناك طريقة سهلة يتبعها العبد ليسلم من براثن إبليس أشار إليها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«أكْثِرِ الدُّعاءَ تَسْلَمْ مِنْ سَوْرَةِ الشَّيْطانِ»[5].

السؤال: إذا لم يكن لإبليس سلطانٌ على الذين آمنوا كما تصرح به الآية الكريمة:

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٣) الخصال: ص٢٨٥، ح٣٧. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٨، ح٩٤٠١.

(٤) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٦٤، ح١. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٨، ح٩٤٠٢.

(٥) بحار الأنوار: ج٧٨، ص٩، ح٦٤. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٨، ح٩٤٠٣.

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١).

كيف نفسر تعرض بعض المؤمنين لأضرار إبليس؟

الجواب:

إن سلطة إبليس محصورة بالجانب المادي أي لا يستطيع أن يلحق الضرر إلا بالجنبة المادية من الإنسان دون الجنبة المعنوية، أي أن دينه وعقائده مصونة من قبل الله سبحانه وتعالى وهذا ما يصرح به الإمام الصادق عليه السلام:

«يُسَلَّطُ وَاللهِ مِنَ المؤْمِنِ عَلى بَدَنِهِ وَلاَ يُسَلَّطُ عَلى دِينِهِ، قَدْ سُلِّطَ عَلى أيُوبَ عليه السلام فَشَوَّهَ خَلْقَهُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلى دِينِهِ»(٢).

ـ وقفة تأمل

أمرنا الله سبحانه أن نتدبر القرآن الكريم لكي نقف على روائعه الأدبية وحقائقه العلمية وبواطنه وأسراره الغيبية، وبما أننا غير معصومين من الخطأ أو الاشتباه لابد أن نستعين بمن هو معصوم من ذلك لكي يدلنا على ما هو صائب وصحيح، ولذا عند تأملنا وتدبرنا لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾(٣).

لابد أن نستعين بقول الإمام الصادق عليه السلام لنقف على حدود سلطان الشيطان على الإنسان فيقول الإمام عليه السلام:

«يُسَلطُ وَاللهِ مِنَ المؤْمِنِ عَلى بَدَنِهِ وَلاَ يُسَلطُ عَلى دِينِهِ، قَدْ سُلِّطَ عَلى أيُوبَ عليه السلام فَشَوَّهَ خَلْقَهُ وَلَمْ يُسَلَّطْ عَلى دِينِهِ».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.

(٢) الكافي: ج٨، ص٢٨٨، ح٤٣٣. ميزان الحكمة: ج٥، ص١٩٢٩، ح٩٤٠٥.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

وبعد معرفة حدود سلطة الشيطان يتضح لنا أن الشيطان لا يتسلط إلاّ على الجانب المادي للمؤمن بإذن الله تعالى لحكمة يريدها سبحانه، وأمّا الجانب المعنوي لا يصل إليه إبليس.

فلذا أقول: ... الخ.

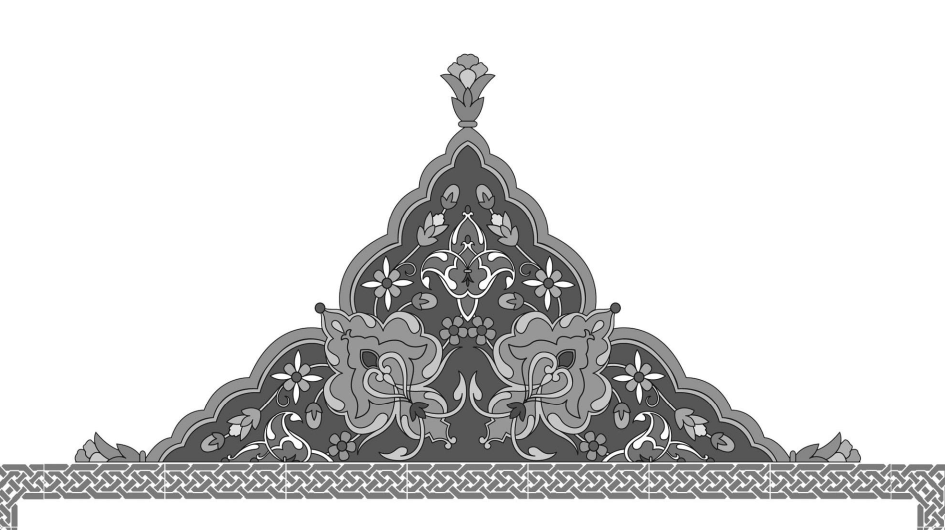
إن العباد على رتب متفاوتة في العبودية فمنهم من هو خطاء ومنهم من هو معصوم، والمعصومون فضل بعضهم على بعض كما في قوله تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٖۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[1].

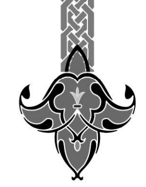
فلا سلطة لإبليس على المعصومين مطلقا، كما لا سلطة له إلاّ على بعض العباد الذين اتبعوه باختيارهم، فزاد في غوايتهم بتسلطه عليهم فصاروا أتباعا له بل صار بعضهم من جنده الذين يستخدمهم لإغواء الناس، وهناك شرح مفصل موكول إلى كتب التفسير فراجع.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.



الخطبة السابعة





وفيها يصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويوبّخ معاوية، ويستنكر عليه ظلمه، ويدحض أباطيله، ويحذّره سوء منقلبه.

نص الخطبة

«أمّا بَعْدُ، يا مُعاوِيَةُ! فَلَنْ يُؤَدِّيَ الْقائِلُ وَإنْ أطْنَبَ في صِفَةِ الرَّسُولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَميعٍ جُزْءاً، وَقَدْ فَهِمْتُ ما لَبِسْتَ بِهِ الْخَلَفَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ مِنْ إيجازِ الصِّفَةِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ إسْتِبْلاغِ الْبَيْعَةِ، وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ يا مُعاوِيَةُ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجى وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أنْوارَ السُّرُجِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتّى أفْرَطْتَ، وَاسْتَأْثَرْتَ حَتّى أجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ حَتّى بَخِلْتَ، وَجُرْتَ حَتّى جاوَزْتَ، ما بَذَلْتَ لِذي حَقٍّ مِنْ أتَمِّ حَقِّهِ بِنَصيبٍ حَتّى أخَذَ الشَّيْطانُ حَظَّهُ الأوْفَرَ، وَنَصيبَهُ الأكْمَلَ، وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزيدَ مِنْ اكْتِمالِهِ وَسِياسَتِهِ لأمَّةِ مُحَمَّدٍ، تُريدُ أنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ، كَأنَّكَ تَصِفُ مَحجُوباً، أوْ تَنْعَتُ غائِباً، أوْ تُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ وَقَدْ دَلَّ يَزيد مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ الْمُهارَشَةَ عِنْدَ

التَحارُشِ، وَالْحَمامِ السَّبْقِ لأتْرابِهِنْ، وَالقِيناتِ ذَواتِ الْمَعازِفِ، وَضُرُوبِ الْمَلاهي، تَجِدُهُ ناصِراً، وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ.

فَما أغناكَ أنْ تَلْقى اللهَ جورَ هذا الْخَلْقِ بِأكْثَرَ مِمّا أنْتَ لاقِيهِ، فَوَاللهِ ما بَرِحْتَ تُقَدِّرُ باطِلاً في جَوْرٍ، وَحَنَقاً في ظُلْمٍ، حَتّى مَلأتَ الأسقِيَةَ، وَما بَينَكَ وَبَيْنَ الْمَوتِ إلاّ غَمْضَةٌ، فَتَقْدِمَ عَلى عَمَلٍ مَحفوظٍ في يَوْمٍ مَشهُودٍ، وَلاتَ حينَ مَناص، وَرَأيْتُكَ عَرَضْتَ بِنا بَعْدَ هذا الأمْرِ، وَمَنَعْتَنا عَنْ آبائِنا، وَلَقَدْ لَعَمْرُ اللهِ أوْرَثَنا الرَّسُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم وِلادَةً، وَجِئْتَ لَنا بِما حَجَجْتُم بِهِ القائِمَ عِنْدَ مَوْتِ الرسولِ، فَأذْعَنَ لِلحُجَّةِ بِذلِكَ، وَرَدَّهُ الإيمانُ إلَى النَّصْفِ، فَرَكِبْتُمُ الأعالِيلَ، وَفَعَلْتُمُ الأفاعيلَ، وَقُلْتُمْ: كانَ وَيَكُونُ، حَتّى أتاكَ الأمْرُ يا مُعاوِيَةُ مِنْ طَرِيقٍ كانَ قَصْدُها لِغَيرِكَ، فَهُناكَ فَاعْتَبِرُوا يا أولِي الأبْصارِ، وَذَكَرْتَ قِيادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم وَتَأمِيرَهُ لَهُ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ، وَلِعَمْرِو بْنِ العاصِ يَوْمَئِذٍ فَضيلَةٌ بِصُحْبَةِ الْرَّسُولِ وَبَيْعَتِهِ لَهُ، وَما صارَ لِعَمْرٍو يَوْمَئِذٍ حَتّى أنِفَ الْقَوْمُ إمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْدِيمَهُ، وَعَدُّوا عَلَيْهِ أفْعالَهُ فَقالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم: لا جَرَمَ مَعْشَرَ الْمُهاجِرِينَ لا يَعْمَلُ عَلَيْكُم بَعدَ اليَوْمِ غَيْرِي.

فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنْسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ في أوْكَدِ الأحْوالِ وَأوْلاها بِالْمُجْمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوابِ؟ أمْ كَيْفَ صاحَبْتَ بِصاحِبٍ تابِعٍ وَحَوْلُكَ مَنْ لا يُؤْمِنُ في صُحْبَتِهِ، وَلا يُعْتَمَدُ في دِينِهِ وَقَرابَتِهِ، وَتَتَخَطّاهُم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ، تُرِيدُ أنْ تَلْبِسَ الناسَ شُبْهَةً يَسعَدُ بِهَا الْباقِي في دُنْياهُ، وَتشقى بِها في آخِرَتِكَ، إنَّ هذا لَهُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ، وأستَغْفِرُ اللهَ لي وَلَكُمْ).

المعنى العام

﴿أَمّا بَعْدُ، يا مُعاوِيَةُ! فَلَنْ يُؤَدِّي الْقائِلُ وَإِنْ أطْنَبَ في صِفَةِ الرَّسُولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَميعِ جُزْءاً، وَقَدْ فَهِمْتُ ما لَبِسْتَ بِهِ الْخَلَفَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ مِنْ إيجازِ الصِّفَةِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ اسْتِبْلاغِ الْبَيْعَةِ، وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ يا مُعاوِيَةُ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجى وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أنْوارَ السُّرُجِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتّى أفْرَطْتَ، وَاسْتَأْثَرْتَ حَتّى أجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ حَتّى بَخِلْتَ، وَجُرْتَ حَتّى جاوَزْتَ، ما بَذَلْتَ لِذي حَقٍّ مِنْ أتَمِّ حَقِّهِ بِنَصيبٍ حَتّى أخَذَ الشَّيْطانُ حَظَّهُ الأوْفَرِ، وَنَصيبَهُ الأكْمَلِ، وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزيدَ مِنْ اكْتِمالِهِ وَسِياسَتِهِ لأمَّةِ مُحَمَّدٍ، تُريدُ أنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ، كَأنَّكَ تَصِفُ مَحجُوباً، أوْ تَنْعَتُ غائِباً، أوْ تُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ وَقَدْ دَلَّ يَزيد مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ الْمُهارَشَةَ عِنْدَ التَحارُشِ، وَالْحَمامِ السَّبْقِ لأتْرابِهِنْ، وَالقِيناتِ ذَواتِ الْمَعازِفِ، وَضُرُوبِ الْمَلاهي، تَجِدْهُ ناصِراً، وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ﴾.

أما بعد: أمر يقال في الخطبة.

يا معاوية: اسم لكلبة عوت، فلن يوصل الواصف وإن بالغ وأكثر في نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جزءا من صفاته، وقد علمت وعرفت ما سترت به يزيد من اختصار النعت والتنحي عن إيصال البيعة، هيهات هيهات يا معاوية، كشف الصبح سواد الليل وظلمته، وأضاءت الشمس أنوار المصابيح، ولقد رجحت حتى جاوزت الحد، وخصصت نفسك دون غيرك حتى أوقعت الضرر الشديد بغيرك، وحرمت حتى حرصت أن لا تنفق، وظلمت حتى تعديت الحدود، وما أعطيت لصاحب حق حقه وحصته حتى أخذ الشيطان نصيبه الأكبر، وحصته الأكثر وعرفت ما ذكرته

عن يزيد من كماله وقابليته وإدارته وتدبيره لأمة محمد، تريد أن تشبه على الناس في يزيد، كأنك تنعت شخصا غير ظاهر، أو تصف غير حاضر، أو تخبر عن شخص أحطته بعلم خاص وقد أظهر يزيد من نفسه على مكانة عقله وقوة رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من تتبعه الكلاب المقاتلة عند التهيج، والحمام التي تسابق مثيلاتهن، والجواري ذوات الدفوف والطبول وأنواع اللهو، تجده جديراً بذلك، واترك محاولة تجميله وإظهاره بالمظهر اللائق للخلافة.

(فَما أغناكَ أنْ تَلْقى اللهَ جَورَ هذَا الْخَلْقِ بِأَكْثَرَ مِمّا أنْتَ لاقِيهِ، فَوَاللهِ ما بَرِحْتَ تُقَدِّرُ باطِلاً في جَوْرٍ، وَحَنَقاً في ظُلْمٍ، حَتّى مَلَأتَ الأسقِيَةَ، وَما بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَوتِ إلاّ غَمْضَةٌ، فَتَقْدِمَ عَلى عَمَلٍ مَحفوظٍ في يَوْمٍ مَشهُودٍ، وَلاتَ حينَ مَناص، وَرَأيْتُكَ عَرَضْتَ بِنا بَعْدَ هذا الأمْرِ، وَمَنَعْتَنا عَنْ آبائِنا، وَلَقَدْ لَعَمْرُ اللهِ أوْرَثَنا الرَّسُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم وِلادَةً، وَجِئْتَ لَنا بِها ما حَجَجْتُم بِهِ القائِمَ عِنْدِ مَوْتِ الرسولِ، فَأذعَنَ لِلحُجَّةِ بِذلِكَ، وَرَدَّهُ الإيمانُ إلَى النِّصْفِ، فَرَكِبْتُمُ الأعالِيلَ، وَفَعَلْتُمُ الأفاعيلَ، وَقُلْتُمْ: كانَ وَيَكُونُ، حَتّى أتاكَ الأمْرُ يا مُعاوِيَةُ مِنْ طَريقٍ كانَ قَصْدُها لِغَيرِكَ، فَهُناكَ فَاعْتَبِرُوا يا أولِي الأبْصارِ، وَذَكَرْتَ قِيادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم وَتَأميرُهُ لَهُ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ، وَلِعَمْرِو بْنِ العاصِ يَوْمَئِذٍ فَضيلَةٌ بِصُحْبَةِ الْرَّسُولِ وَبَيْعَتِهِ لَهُ، وَما صارَ لِعَمْرٍو يَوْمَئِذٍ حَتّى أنِفَ الْقَوْمُ إمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْديمَهُ، وَعَدُّوا عَلَيْهِ أفْعالَهُ فَقالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لا جَرَمَ مَعْشَرَ الْمُهاجِرينَ لا يَعْمَلُ عَلَيْكُم بَعدَ اليَوْمِ غَيْرِي).

وأنت غني عن أن تلقى الله تعالى بظلم هذه الأمة أكثر مما أنت فيه من الظلم، فيقسم الإمام عليه السلام بالله تعالى ويقول إنك ظللت تُهيّء ما هو غير صحيح أصلا في ميل عن العدل، وغيظا شديدا في ظلم، حتى ملأت آواني السقي كناية عن أكل

الحرام، وما يفصلك عن الموت إلا انطباق الجفن، فتأتي يوم القيامة مع عملك المحفوظ والموثّق، ولا ملجأ ولا مفر حينئذ من قباحة الأعمال، ويخاطب الإمام عليه السلام معاوية قائلا: إنك ظهرت بنا أي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماذا قال؟ ومع ذلك حجبتنا عن وراثة أبينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نسبنا إليه ولادة فسمانا أبنيه.

ـ صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

لا يمكن للقلم أن يوصف كمال وجمال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يمكن للعقل أن يدرك مقام ورتبة من كان قاب قوسين أو أدنى من ربه، لقد وصفه القرآن الكريم بصفة لا يحاط بها ولا يجدها أحد فقال عز من قائل:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

إلا أننا لا نستغني عن ذكر كمال وجمال وجلال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال ذكر ما ورد في حقه من الآيات الكريمة والروايات الشريفة وباختصار شديد لما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حضور وظهور ووضوح وبيان:

الآيات الكريمة

١ ـ أية كريمة تؤكد أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو سفير الله تعالى وواسطة فيضة كما في قوله تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١).

٢ ـ آية أخرى تبين صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم التي فضل بها على غيره من البشر كما في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

٣ـ آية ثالثة ترشد إلى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلهاً، بل هو بشر ركبت فيه الغرائز والشهوات والعقل والروح إلا أنه رسمى وارتفع حتى صار حبيبا لربه وخليلا لخالقه عز وجل كما ورد ذلك في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٣).

٤ ـ آية رابعة تشير إلى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم له من المؤهلات بما جعله شاهداً على الناس مطلعاً على أعمالهم وأقوالهم ونياقم، ثم مارس دورا آخراً ألا وهو دور من يدخل السرور على قلب البشر ودور من يزرع الخوف في ذلك القلب فقالت الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤).

٥ ـ آية خامسة دلت وأيدت على أن هذا الوجود المقدس الذي اسمه (محمد)

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

صلى الله عليه وآله وسلم هو الداعي بالحق إلى الله تعالى بدليل قوله (بإذنه) وهو النور الذي يستعان به في ظلمات الجهل والشرك والكفر فقالت:

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[(١)].

وهناك آيات كثيرة لا يسمح المقام بذكرها.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصف نفسه

١ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

أنا أشْبَهُ النّاسِ بِآدَمَ، وَإبْراهيمُ أشْبَهُ النّاسِ بي خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ، وَسَمّانيَ اللهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ عَشْرَةَ أسْماءٍ، وَبَيَّنَ اللهُ وَصْفي، وبَشَّرَني عَلى لِسانِ كُلِّ رَسولٍ بَعَثَهُ اللهُ إلى قَوْمِهِ، وسَمّاني وَنَشَرَ في التَّوْراةِ اسمي، وَبَثَّ ذِكْري في أهلِ التَّوْراةِ والإنْجيلِ، وَعَلَّمَني كِتابَهُ، وَرَفَعَني في سَمائِهِ، وَشَقَّ لي اسماً مِنْ أسمائِهِ، فَسَمّاني مُحَمَّداً وَهُوَ مَحْمودٌ، وأخْرَجَني في خَيْرِ قَرْنٍ مِنْ أمَّتي، وَجَعَلَ اسمي في التَّوْراةِ أُحَيْدُ[(٢)]، فَبالتَّوْحِيدِ حَرَّمَ أجْسادَ أُمَّتي علَى النّارِ.

وَسَمّاني في الإنجيلِ أحمَدَ، فأنا مَحْمودٌ في أهلِ السَّماءِ، وجَعَلَ أُمَّتي الحامِدينَ، وَجَعَلَ اسمي في الزَّبورِ ماحي، مَحا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بي مِنَ الأرْضِ عِبادَةَ الأوْثانِ، وَجَعَلَ اسمي في القُرْآنِ مُحَمَّداً، فَأنا مَحْمُودٌ في جَميع القِيامَةِ[(٣)] في فَصلِ القَضاءِ لا يَشْفَعُ أحَدٌ غَيْري.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٢) قال شارح الشّفاء للقاضي عياض: أُحَيد بضمّ الهمزة، وفتح المهملة، وسكون التحتيّة، فدال مهملة، وقيل: بفتح الهمزة، وسكون المهملة، وفتح التحتية، قال: سُمّيت أحيد لأني أحيدُ بأمّتي عن نار جهنّم، أي أعدِلُ بِهِم، انتهى. بحار الأنوار: ج١٦، ص٩٣، ح٢٧.

(٣) في معاني الأخبار: ص٥٠، ح١، جميع أهل القيامة.

وَسَمّاني في القِيامَةِ حاشِراً، يُحْشَرُ النّاسُ على قَدَمي، وسَمّاني الموقِفَ، أُوقِفُ النّاسَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وسَمّاني العاقِبَ، أنا عَقِبُ النَّبِيِّينَ لَيْسَ بَعْدي رَسولٌ، وَجَعَلَني رَسولَ الرَّحْمَةِ ورَسولَ التَّوْبَةِ ورَسولَ المَلاحِمِ والمُقتفيَ[1]، قَفَّيتُ النَّبيِّينَ جَماعَةً، وأنا المُقيمُ الكامِلُ الجامِعُ.

ومَنَّ عليَّ رَبِّي وَقالَ لي: يا مُحَمَّدُ صَلّى اللهُ عَلَيكَ فَقَدْ أرسَلتُ كُلَّ رَسولٍ إلى أمّتِهِ بِلِسانِها، وأرسَلْتُكَ إلى كُلِّ أحْمَرَ وأسْوَدَ مِنْ خَلْقي، ونَصَرْتُكَ بالرُّعْبِ الّذي لَمْ أنْصُرْ بِهِ أحَداً، وأحْلَلْتُ لَكَ الغَنيمَةَ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلَكَ، وأعطَيْتُكَ لَكَ ولأُمّتِكَ كَنْزاً مِنْ كُنوزِ عَرْشي: فاتِحَةَ الكِتابِ، وخاتِمَةَ سُورَةِ البَقَرَةِ، وجَعَلْتُ لَكَ ولأُمّتِكَ الأرضَ كُلَّها مَسجِداً وتُرابَها طَهُوراً، وأعْطَيْتُ لَكَ ولأُمَّتِكَ التَّكْبيرَ، وقَرَنْتَ ذِكْرَكَ بِذِكْري حَتّى لاَ يَذْكُرَني أحَدٌ مِنْ أمّتِكَ إلاّ ذَكَرَكَ مَعَ ذِكْري، فَطُوبى لَكَ يا مُحَمَّدُ ولأُمّتِكَ»[2].

٢ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا سأله يهودي عن وجه تسميته بمحمد وأحمد وأبي القاسم وبشير ونذير وداع قال:

«أمّا مُحَمَّدٌ فإنّي مَحْمُودٌ فِي الأرْضِ، وأمّا أحْمَدُ فَإنّي مَحْمُودٌ فِي السَّماءِ، وأمّا أبو القاسِمِ فإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْسِمُ يَوْمَ القِيامَةِ قِسْمَةَ النّارِ؛ فَمَنْ كَفَرَ بي مِنَ الأوَّلينَ وَالآخِرينَ فَفي النّارِ، ويَقْسِمُ قِسمَةَ الجَنَّةِ؛ فَمَنْ آمَنَ بي وأقَرَّ بِنُبُوَّتي فَفي الجَنَّةِ.

وأمّا الدّاعي فَإنّي أدعُوَ النّاسَ إلى دِينِ رَبّي عَزَّ وَجَلَّ، وأمّا النَّذيرُ فَإنّي أُنْذِرُ بِالنّارِ مَنْ عَصاني، وأمّا البَشيرُ فَإنّي أُبَشِّرُ بِالجَنَّةِ مَنْ أطاعَني»[3].

---

(١) في معاني الأخبار: ص٥٠، ح١، المقفّي.

(٢) علل الشرائع: ص١٢٧، ح٣. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤١٩٨ ـ ٤١٩٩، ح١٩٧٤١.

(٣) معاني الأخبار: ص٥٢، ح٢. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤١٩٩، ح١٩٧٤٢.

٣ـ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنا أديبُ اللهِ وَعَليٌّ أدِيبِي»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«قيلَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم: هَلْ عَبَدْتَ وَثَناً قَطُّ؟ قالَ: لا، قالوا: فَهَلْ شَرِبْتَ خَمْراً قَطُّ؟ قالَ: لا، وما زِلتُ أعْرِفُ أنّ الّذي هُمْ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَما كُنْتُ أدْري ما الكِتابُ وَلاَ الإيمانُ»[2].

فلا يسعني أن أعلق على ما ورد عنه في نفسه الكريمة صلى الله عليه وآله وسلم.

أمير المؤمنين عليه السلام

وصف أمير المؤمنين أخاه صلى الله عليه وآله وسلم وصفا يدل على جمال الظاهر بقوله:

«كانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أبْيَضَ اللّونِ مُشْرَباً حُمْرَةً، أدْعَجَ العَيْنِ، سَبْطَ الشَّعْرِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، سَهْلَ الخَدِّ، ذا وَفْرَةٍ، دَقيقَ المَسْرُبَةِ، كَأنَّ عُنُقَهُ إبْريقُ فِضَّةٍ، لَهُ شَعْرٌ مِنْ لَبَّتِهِ إلى سُرَّتِهِ يَجْري كالقَضيبِ، لَيْسَ في بَطْنِهِ وَلاَ صَدْرِهِ شَعرٌ غَيْرُهُ، شَثْنُ الكَفِّ والقَدَمِ، إذا مَشى كَأنَّما يَنْحَدِرُ مِنْ صَبَبٍ، وإذا قامَ كَأنَّما يَنْقَلِعُ مِنْ صَخْرٍ، إذا التَفَتَ، التَفَتَ جَميعاً، كَأنَّ عَرَقَهُ في وَجْهِهِ اللُّؤلؤُ، ولَريحُ عَرَقِهِ أطْيَبُ مِنَ المِسْكِ الأذْفَرِ، لَيْسَ بالقَصيرِ ولا بالطَّويلِ، وَلاَ بالعاجِزِ ولاَ اللَّئيمِ، لَمْ أرَ قَبْلَهُ ولاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم»[3].

---

(١) مكارم الأخلاق: ج١، ص٥١، ح١٩. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٢١، ح١٩٧٨٦.

(٢) كنز العمال: ٣٥٤٣٩. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٢٤، ح١٩٨١٨.

(٣) الطبقات الكبرى: ج١، ص٤١٠. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٢٤، ح١٩٨٢١.

ووصفه وصفا آخر يدل على كمال الباطن بقوله عليه السلام:

«طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أحْكَمَ مَراهِمَهُ، وَأحْمى (أمْضى) مَواسِمَهُ، يَضَعُ ذلِكَ حَيْثُ الحاجَةُ إلَيْهِ، مِنْ قُلوبٍ عُمي، وآذانٍ صُمٍّ، وألْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوائِهِ مَواضِعَ الغَفْلَةِ ومَواطِنَ الحَيْرَةِ، لَمْ يَسْتَضيئُوا بِأضْواءِ الحِكْمَةِ، ولَمْ يَقْدَحوا بِزِنادِ العُلومِ الثّاقِبَةِ، فَهُمْ في ذلِكَ كالأنْعامِ السّائِمَةِ، والصُّخُورِ القاسِيَةِ»[1].

ـ بعض كمالاته

١ـ ذكر صاحب المناقب بعضاً من كمالات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

(كانَ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ المَبْعَثِ مَوْصوفاً بِعِشْرينَ خِصْلَةٍ مِنْ خِصالِ الأنْبِياءِ، لَوْ انْفَرَدَ واحِدٌ بِأحَدِها لَدَلَّ عَلى جَلالِهِ، فَكَيفَ مَنِ اجْتَمَعَتْ فيهِ؟! كانَ نَبِيّاً أميناً، صادِقاً، حاذِقاً، أَصيلاً، نَبيلاً، مَكيناً، فَصيحاً، نَصيحاً، عاقِلاً، فاضِلاً، عابِداً، زاهِداً، سَخِيّاً، كَمِيّاً، قانِعاً، مُتَواضِعاً، حَليماً، رَحيماً، غَيوراً، صَبوراً، مُوافِقاً، مُرافِقاً، لَمْ يُخالِط مُنَجِّماً ولاَ كاهِناً، ولا عَيّافاً)[2].

٢ـ ذكر صاحب الطبقات الكبرى عن عائشة لّما سُئِلَت عَن خُلقِ النبي صلّى اللهُ علَيه وآله وسلّم في بَيتِهِ قالت:

(كانَ أحْسَنَ النّاسِ خُلُقاً، لَمْ يَكُنْ فاحِشاً ولاَ مُتَفَحِّشاً، ولاَ صَخّاباً في الأسْواقِ، ولا يَجزي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَها، وَلكِنْ يَعْفو وَيَصْفَحُ)[3].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٨. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٢٨، ح١٩٨٣٥. ذكر السيد عبد الله شبر في كتابه (الأخلاق) وصفا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مأخوذا من لسان الحديث فمن أراد المزيد فليراجع، ص٢٢ـ ٢٥.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب: ج١، ص١٢٣. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٤٥، ح١٩٨٩٧.

(٣) الطبقات الكبرى: ج١، ص٣٦٥. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٤٥، ح١٩٨٩٩.

٣ـ ذكر صاحب الغارات عن إبراهيم بن محمد مِن وُلدِ علي عليه السلام قال: (كانَ عليٌّ عليهِ السّلامُ إذا نَعَتَ النَّبيَّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلّمَ قالَ:

«هُوَ خاتَمُ النّبيّينَ، أجْوَدُ النّاسِ كَفّاً، وأجْرأُ النّاسِ صَدْراً، وأصْدَقُ النّاسِ لَهْجَةً وَأوْفَى النّاسِ ذِمَّةً، وَألْيَنُهُمْ عَريكَةً، وَأكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، (مَنْ رَآهُ بَديهَةً هابَهُ، ومَنْ خالَطَهُ مَعْرِفَةً أحَبَّهُ، يَقولُ ناعِتُهُ: لَمْ أرَ قَبْلَهُ ولاَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ)»[1].

معاوية

(أمّا بَعْدُ، يا مُعاوِيَةُ! فَلَنْ يُؤَدّي الْقائِلُ وَإنْ أطْنَبَ في صِفَةِ الرَّسُولِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جَميعٍ جُزْءاً، وَقَدْ فَهِمْتُ ما لَبِسْتَ بِهِ الْخَلَفَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ مِنْ إيجازِ الصِّفَةِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ اسْتِبْلاغِ الْبَيْعَةِ، وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ يا مُعاوِيَةُ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجى وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أنْوارَ السُّرُجِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتّى أفْرَطْتَ، وَاسْتَأثَرْتَ حَتّى أجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ حَتّى بَخِلْتَ، وَجُرْتَ حَتّى جاوَزْتَ، ما بَذَلْتَ لِذي حَقٍّ مِنْ أتَمِّ حَقِّهِ بِنَصيبٍ حَتّى أخَذَ الشَّيْطانُ حَظَّهُ الأوْفَرَ، وَنَصيبَهُ الأكْمَلَ، وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزيدَ مِنْ اكْتِمالِهِ وَسِياسَتِهِ لأمَّةِ مُحَمَّدٍ، تُريدُ أنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ، كَأنَّكَ تَصِفُ مَحجُوباً، أوْ تَنْعَتُ غائِباً، أوْ تُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ وَقَدْ دَلَّ يَزيد مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ الْمُهارَشَةَ عِنْدَ التَحارُشِ، وَالْحَمامَ السَّبْقَ لأتْرابِهِنْ، وَالقِيناتِ ذَواتِ الْمَعازِفِ، وَضُرُوبِ الْمَلاهي، تَجِدُهُ ناصِراً، وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ).

قبل الخوض في شخصية معاوية لا بأس أن نشير إلى بعض العوامل المحيطة بهذه

(١) الغارات: ج١، ص٣٦٤. ميزان الحكمة: ج١٠، ص٤٢٤٦، ح١٩٩٠٣.

الشخصية التي شقت الأمة شقتين، شق بقي ثابتا مرابطا على الحق صابرا على إيذاء أصحاب الباطل، مستيقظا لألاعيبهم ومكائدهم، وشق انطلت عليه تلك الحيل والألاعيب فانساق وراء الباطل رغم وضوحه وترك الحق الذي لا ريب فيه.

ومن العوامل التي كان لها الأثر الكبير في صنع هذه الشخصية القبيحة ما يلي:

أولا: العامل التربوي

ورث معاوية من أبيه أبي سفيان الحقد والعداء للإسلام الذي أطاح بعروش المشركين وسيادة الجاهلية الأولى، وورث من أمه هند التحريض والدعوة إلى قتل النبي وبني هاشم بل إلى قتل جميع المسلمين، ونشأ معاوية بين أحضان أسرة رجالها جردوا سيوفهم وألبوا الرجال على قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونساؤها حملت الحطب ودقت الدفوف للتحريض والمحاربة لنبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وهجه.

ولكي نضع الأمور جلية بين يدي القارئ الكريم لابد أن نعرض بعض الصور القبيحة لأسرة معاوية التي كان لها الأثر الأكبر على نشأته:

قال أبو سفيان: (يا بني أمية تلاقفوها تلقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار).

انطلق أبو سفيان إلى قبر سيد الشهداء حمزة، فركله برجله وقال: يا أبا عمارة، إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا يتلعبون به)[1].

هند

يكفيها عارا أنها آكلة الأكباد، والمحرضة على الإسلام.

---

(١) معاوية أمام محكمة الجزاء، الشيخ مهدي القريشي: ص٢٩ ـ ٣٠.

أم جميل

هي حمالة الحطب التي لعنها القرآن الكريم وبقيت ملعونة إلى يوم يبعثون.

الحكم بن أبي العاص

يقول حويطب في حديث له مع مروان بن الحكم: (والله لقد هممت بالإسلام غير مرة، كل ذلك يعوقني أبوك يقول: تضع شرفك، وتدع دين آبائك لدين محدث وتصيرنا بعار).

أبو جهل

يقول:

(تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، حتى إذا تجانبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه)[1].

عتبة والوليد

قتلا بسيف الإسلام وتركا هندا ناقمة حاقدة على الإسلام وعلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: العامل الاقتصادي

كان للعامل الاقتصادي السقيم دور في بناء شخصية معاوية إذ كانت الحياة الاقتصادية قائمة على الربا والغزو الاستغلال، فللربا دور كبير في سيادة بعض الأسر القرشية والتي منها أسرة معاوية.

---

(١) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي: ج١٣، ص١٢٥. الدر المنثور للسيوطي: ج٤، ص١٨٧.

فلذا جاء في التاريخ (أن معاوية باع سقاية من ذهب أو فضة بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن مثل هذا، إلا مثلاً بمثل، فقال معاوية: ما أرى بمثل هذا بأساً، فاستاء أبو الدرداء من جراءته على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورده لحكم من أحكام الإسلام، فاندفع يقول: من يعذرني من معاوية أنا أخبره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويخبرني عن رأيه، لا ساكنتك بأرض أنت بها، ثم ترك الشام وانصرف إلى يثرب)[١].

ثالثا: العامل الأخلاقي

من العوامل الرئيسية في تكوين شخصية الإنسان هو العامل الأخلاقي، فلقد كانت الحياة الأخلاقية في العصر الجاهلي لاسيما في مكة في غاية السوء والابتعاد عن الطهارة والفضيلة لانتشار المنكر والفحشاء وتعاطي الخمر وإباحة الزنى والعدوان والظلم وإلى غير ذلك من الفساد مما لا يخفى على أحد، وفي هذه الأجواء نشأ معاوية في أسرة لا تتورع عن مثل هذه الأمور كما هو مشهور عن أبي سفيان في تعاطيه الزنا مع سمية أم زياد وغيرها بل أن هناك روايات تاريخية تشير إلى زنا هند أم معاوية، وهذا مما لا يخفى على قارئ منصف للتاريخ[٢].

بعد هذا العرض الذي قدمناه بين يدي القارئ الكريم والذي تظهر من خلاله خسة هذه الشخصية الفاسدة التي غيرت الإسلام وشوهت صورته الناصعة نرغب في بيان رأي سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينطق عن الهوى لكي نزداد بصيرة في شخصية معاوية.

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام: ج٢، ص١٥٠. بحار الأنوار: ج٣٤، ص٣٨٣. السنن الكبرى للبيهقي: ج٥، ص٢٨٠.

(٢) معاوية أمام محكمة الجزاء، الشيخ مهدي القريشي: ص٢٤٣.

ـ القول القاصم

لا يختلف اثنان في كون محمد بن عبد الله بن عبد المطلب هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشك امرء في أن هذا الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو قول الله سبحانه وتعالى وحكمه حكم الله تعالى ومدحه وذمه هو مدح الله تعالى وذمه، ومن نال ذماً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لا شك في هلاكه وخلوده في نار جهنم، ولكي نقف على رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقوله في معاوية نطلع على ما يلي:

١ ـ رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان مقبلا على حمار، ومعاوية يقوده، ويزيد ابنه يسوقه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعن الله القائد والراكب والسائق»[(١)].

٢ـ أقبلت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرادت التزويج بمعاوية فنهاها صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك وقال لها:

«إنه صعلوك»[(٢)].

٣ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه:

«إنه يطلع من هذا الفج رجل يحشر على غير ملتي، فتشوق إليه المسلمون، وإذا بمعاوية قد طلع منه»[(٣)].

٤ـ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على معاوية وابن العاص فقال:

«اللهم اركسهم في الفتنة ركسا، اللهم دعهم إلى النار دعّاً»[(٤)].

---

(١) معاوية أمام محكمة الجزاء، الشيخ مهدي القريشي: ص١٨. تاريخ الطبري: ج١١، ص٣٥٧.

(٢) تاريخ الخميس: ج٢، ص٢٩٦.

(٣) تاريخ الطبري: ج١١، ص٣٥٧.

(٤) معاوية أمام محكمة الجزاء، الشيخ مهدي القريشي: ص١٨. وقعة صفين: ص٢٤٦. مسند أحمد بن حنبل: ج٤، ص٤٢١.

٥ـ وهناك قول مشهور للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه:

«إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه»[1].

إلا أنّ، أهل التحريف والوضع حرّفوا الحديث إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إنه مأمون أمين) ولا شك في سخافة هذا التحريف وما أسهل الرد عليهم وهو كما يلي:

ألف: إن شخصية معاوية ومساوئها تكذب أنه أمين مأمون.

باء: محاربته لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تكذب هذا الحديث.

جيم: لا يوجد داع أو مناسبة لكي يمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم معاوية، كما أن هناك من الصحابة من هو مأمون حقا وأمين صدقا وقد خطب في الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأبي ذر أو عمار ولم يقل في حقهما شيئا من ذلك.

دال: كيف يناقض قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعضه بعضا، لقد تقدم ذم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاوية وهو ذم لا يقبل التغيير، فكيف يغير النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله فيمتدح معاوية؟

تدليس معاوية

قول الإمام الحسين عليه السلام:

«تُريدُ أنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ، كأنَّكَ تَصِفُ مَحجُوباً، أوْتَنْعَتُ غائِباً، أوْتُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ وَقَدْ دَلَّ يَزيد مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ الْمُهارَشَةَ عِنْدَ التَحارُشِ، وَالْحَمامِ السَّبِّقِ لأتْرابِهِنْ، وَالقِيناتِ ذَواتِ الْمَعازِفِ، وَضُرُوبِ الْمَلاهي، تَجِدُهُ ناصِراً، وَدَعْ

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٣٣، ص١٨٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج٤، ص٣٢.

عَنْكَ ما تُحاوِلُ».

يدل دلالة صريحة على تدليس معاوية بإظهار يزيد بمظهر حسن لكي ينال بذلك رضا الناس ومن ثم ينتزع بيعتهم له، إلا أن هذا التدليس لا يرفع من مقام يزيد شيئا لما في يزيد من خصال قبيحة ورذائل يندى منها جبين الإنسانية وهذا ما ورد في قول الإمام الحسين عليه السلام إذ يقول:

«وَقَدْ دَلَّ يَزيد مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أخَذَ بِهِ مِنْ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ الْمُهارَشَةَ عِنْدَ التَحارُشِ، وَالْحَمامِ السَّبْقِ لأِتْرابِهِنْ، وَالقِيناتِ ذَواتِ الْمَعازِفِ، وَضُرُوبِ الْمَلاهي، تَجِدُهُ ناصِراً، وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ».

يا لها من صفعة شديدة على فم معاوية الذي أراد تزكية يزيد وتزويقه، ويا له من قطع لسان لكل من تسول له نفسه أن يمتدح الفاسقين الظلمة يدلس على الناس حقيقتهم وقذارتهم.

عمرو بن العاص

أراد معاوية أن يرفع من عمرو بن العاص ويعطيه شأنا فالتجأ إلى ذكر صحبته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيعته له، إلا أن الإمام عليه السلام قطع عليه الطريق بذكر ما حصل من شكوى ضد هذا الوزغ فجاء رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سريعا إذ قال للأنصار:

«لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

ولكي نرفد القارئ الكريم بحقيقة عمرو بن العاص لابد أن نطلع على هذه الشخصية الانتهازية المتذبذبة حسب مصالحها ومنافعها من خلال هذه الصور:

١ــ هذه الرواية التاريخية تبين أن عمرو بن العاص يبحث عن الدنيا وحب الظهور ولا يريد أن يكون أحد المسلمين بل يرى نفسه فوق ذلك.

(وقال جويرية بن أسماء: حدثني عبد الوهاب بن يحيى بن عبد الله بن الزبير: ثنا أشياخنا أن الفتنة وقعت، وما رجل من قريش له نباهة أعمى فيها من عمرو بن العاص، وقال: ما زال معتصماً بمكة ليس في شيء مما فيه الناس، حتى كانت وقعة الجمل، فلما فرغت بعث إلى ولديه عبد الله ومحمد، فقال: إني قد رأيت رأياً، ولستما باللذين تردانني عن رأيي، ولكن أشيرا عليَّ، إنّي رأيت العرب صاروا عيرين يضطربان، وأنا طارح نفسي بين جداري مكة، ولست أرضى بهذه المنزلة، فإلى أي الفريقين أعمد؟ قال عبد الله: إن كنت لابد فاعلا، فإلى عليّ، قال: إني إن أتيت عليّاً قال: إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه، ويشركني في أمره فأتى معاوية)[1].

٢ـ هذه الرواية فيها تصريح من عمرو بحب الدنيا والمصالح الخاصة.

(ثم إنّ عمراً قال: يا معاوية، أحرقت كبدي بقصصك، أترى أنّا خالفنا علياً لفضل منا عليه، لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك، أو لأنابذنك، قال: فأعطاه مصر، يعطي أهلها عطاءهم، وما بقي فله)[2].

٣ـ حوار يكشف خباثة عمرو بن العاص ودوره في فتنة عثمان.

(قال جويرية بن أسماء أن عمرواً قال لابن عباس: يا بني هاشم، أما والله لقد تقلدتم لقتل عثمان قرم الإماء العوارك، أطعتم فساق أهل العراق في عتبة، وأجزرتموه مراق أهل مصر، وآويتم قتلته، فقال ابن عباس: إنما تكلم لمعاوية، وإنما تكلم عن رأيك، وإن أحق الناس أن لا يتكلم في أمر عثمان لأنتما، أمّا أنت يا معاوية، فزينت له ما كان يصنع، حتى إذا حُصر طلب منك نصرك، فأبطأت عنه، وأحببت قتله وتربصت

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٢، ص٢٦٧.

(٢) المصدر السابق.

به، وأمّا أنت يا عمرو، فأضرمت المدينة عليه، وهربت إلى فلسطين تسأل عن أبنائه، فلما أتاك قتله أضافتك عداوة عليّ أن لحقت بمعاوية، فبعت دينك منه بمصر، فقال معاوية: حسبك يرحمك الله، عرضني لك عمرو، وعرض نفسه)[1].

٤ـ تصريحه بأنه من العصاة الذين ماتوا بأوزارهم:

(قال الزهري: عن حميد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر: اللهم أمرت بأمور ونهيت عن أمور، تركنا كثيراً مما أمرت، ووقعنا في كثير مما نهيت)[2].

٥ـ عاقبة عمرو بن العاص سيئة كبدايته وهذا ما يظهر الحوار التالي:

(قال الطحاوي: ثنا المزني: سمعت الشافعي يقول: دخل ابن عباس على عمرو بن العاص وهو مريض، فقال: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً، وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت)[3].

٦ـ عمرو ينجو بكشف عورته أمام سيد أهل الحياء والمعروف أمير المؤمنين عليه السلام.

(فلما سمع عمروٌ شعره قال: والله لو علمت أنّي أموتُ ألف مَوتَةٍ لَبارزتُ عليّاً في أوَّلِ ما ألقاه، فلما بارزه طعنه عليٌّ فصرَعه، واتَّقاه عمروٌ بعَورته، فانصرف عليٌّ عنه.

وقال عليٌّ حين بدت له عورةُ عمروٍ فصرف وجهَهُ عنه[4]:

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٢، ص٢٦٨.

(٢) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٢، ص٢٦٩.

(٣) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج٢، ص٢٦٩.

(٤) وقعة صفين، نصبر بن مزاحم المنقري: ص٤٢٤.

ضربي ثُبى الأبطال في المَشَاغِبُ[١] ضـــربُ الغـــلام البطـــلِ المُلاعِـــبِ

أيـن الـضرّاب فـي العَجـاجِ الثائـبِ حـــين احمـــرار الحَـــدَقِ الثواقـــبِ

بالـــسَّيْفِ فـــي تهتهـــة الكتائـــب[٢] والـــصبر فيـــه الحمـــدُ للعواقـــب

وهناك الكثير من الصور القبيحة التي تبين شخصية عمرو بن العاص تركناها للاختصار.

عاقبة الظالمين

قول الإمام الحسين عليه السلام:

(فَما أغناكَ أنْ تَلْقى اللهَ جَورَ هذَا الْخَلْقِ بِأكْثَرَ مِمّا أنْتَ لاقِيهِ، فَوَاللهِ ما بَرِحْتَ تُقَدِّرُ باطِلاً في جَوْرٍ، وَحَنَقاً في ظُلْمٍ حَتّى مَلَأتَ الأسقِيَةَ، وَما بَينَكَ وَبَيْنَ الْمَوتِ إلاّ غَمْضَةٌ، فَتَقْدِمَ عَلى عَمَلٍ مَحفوظٍ في يَوْمٍ مَشهُودٍ، وَلاتَ حِينَ مَناص، وَرَأيْتُكَ عَرَضْتَ بِنا بَعْدَ هذا الأمْرِ، وَمَنَعْتَنا عَنْ آبائِنا، وَلَقَدْ لَعَمْرُ اللهِ أوْرَثَنا الرَّسُولُ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وِلادَةً، وَجِئْتَ لَنا بِما حَجَجْتُمْ بِهِ القائِمَ عِنْدِ مَوْتِ الرسولِ، فَأذْعَنَ لِلحُجَّةِ بِذلِكَ، وَرَدَّهُ الإيمانُ إلَى النَّصْفِ، فَرَكِبْتُمُ الأعالِيلَ، وَفَعَلْتُمُ الأفاعيلَ، وَقُلْتُمْ: كانَ وَيَكُونُ، حَتّى أتاكَ الأمْرُ يا مُعاوِيَةُ مِنْ طَرِيقٍ كانَ قَصْدُها لِغَيرِكَ، فَهُناكَ فَاعْتَبِرُوا يا أولِي الأبْصارِ، وَذَكَرْتَ قِيادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَأمِيرَهُ لَهُ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ، وَلِعَمْرِو بْنِ العاصِ يَوْمَئِذٍ فَضيلَةٌ بِصُحْبَةِ الْرَّسُولِ وَبَيْعَتِهِ لَهُ، وَما صارَ لِعَمْرٍو يَوْمَئِذٍ

---

(١) الثبة: الجماعة، والعصبة من الفرسان. وثبى: هي تبين جمع ثبة، مع الجمع الملحق بالسالم، كمزين وعضين، وحذفت النون للإضافة: وفي الأصل: (ضرب ثبا)، والوجه ما أثبت.

(٢) التهتهة: مصدر قولهم هتته في الشيء ـ بالبناء للمفعول: أي ردد فيه، وقد تكون: (هنهة) بنونين، وهو الكف والزجر.

حَتّى أنِفَ الْقَوْمُ إمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْديمَهُ، وَعَدُّوا عَلَيْهِ أفْعالَهُ فَقالَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لا جَرَمَ مَعْشَرَ الْمُهاجِرينَ لا يَعْمَلُ عَلَيْكُم بَعدَ اليَوْمِ غَيْري.

فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنْسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ في أوْكَدِ الأحْوالِ (الأحْكام) وَأوْلاها بِالْمُجْمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوابِ؟ أمْ كَيْفَ صاحَبْتَ بِصاحِبٍ تابِعٍ وَحَوْلَكَ مَنْ لا يُؤْمِنُ في صُحْبَتِهِ، وَلا يُعْتَمَدُ في دينِهِ وَقَرابَتِهِ، وَتَتَخَطّاهُم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ، تُريدُ أنْ تَلْبِسَ الناسَ شُبْهَةً يَسعَدُ بِهَا الْباقِي في دُنْياهُ، وَتشقى بِها في آخِرَتِكَ، إنَّ هذا لَهُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ).

الظلم كلمة واضحة المفهوم والمعنى نظريا وعمليا لكثرة من يتعاطها ولكثرة وقوعها يوميا، فلذا لا حاجة لنا في بيان معناها إلا أننا لابد أن نبين عاقبة الظلم وعاقبة الظالمين من خلال الآيات الكريمة والروايات الشريفة الآتية:

١ـ قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

يشير إلى أن الظالم لا ينال شيئا من هدى الله تعالى وتوفيقاته بل يبقى في عماه وغيه.

٢ـ قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٧.

يشير إلى أن الظالمين حرموا من محبة الله تعالى الذي بيده كل شيء ومنه الخير الحقيقي والفوز الصادق.

٣ـ قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[1].

يشير بصراحة إلى عاقبة الظالمين التي هي الخسران المبين وإن كانوا بحسب الظاهر فائزين.

٤ـ قوله تعالى:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[2].

يشير إلى أن الظالمين في شقاق بعيد.

٥ـ قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[3].

ـ آثار الظلم في الدنيا

ورد في الروايات والأحاديث الشريفة ما يشير إلى آثار الظلم وما يحل بالظالمين في الحياة الدنيا قبل الحياة الآخرة نذكر منها ما يلي:

١ـ الظلم يوجب الخسران وضياع الجهد سدى لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٢١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

«الظُّلْمُ في الدُّنيا بوارٌ، وَفي الآخِرَةِ دَمارٌ»(١).

٢ـ الظلم يؤدي إلى الانزلاق إلى الهاوية والوقوع في الباطل ويزيل العطاء الإلهي ويقضي على الأمم مهما كانت قوية وشديدة كما في قول الإمام علي عليه السلام:

«الظُّلْمُ يُزِلُّ القَدَمَ، وَيَسْلُبُ النِّعَمَ وَيُهْلِكُ الأُمَمَ»(٢).

٣ـ الظلم يؤدي إلى مقت الناس وكراهيتم ولعنتهم لأيام الظالم ولياليه كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«إيّاكَ وَالظُّلْمَ؛ فَمَنْ ظَلَمَ كَرُهَتْ أيّامُهُ»(٣).

٤ـ يؤدي الظلم إلى فساد القلوب وقساوتها كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«إيّاكُمْ وَالظُّلْمَ؛ فَإنَّهُ يُخْرِبُ قلُوبَكُمْ»(٤).

٥ـ يوجب الظلم ارتفاع النعم ونزول النقم بالظالم فلا يهنأ ولا يستقر كما ورد ذلك في قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«لَيْسَ شَيءٌ أدْعى إلى تَغْييرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إقامَةٍ عَلى ظُلْمٍ؛ فَإنَّ اللهَ سَميعُ دَعْوَةِ الْمُضْطَهِدِينَ (المَظْلومِينَ)، وهُوَ للظالِمِينَ بِالمِرصادِ»(٥).

٦ ـ يؤدي إلى قصر العمر وسرعة الموت كما صرح بذلك سيد المتقين عليه السلام بقوله:

---

(١) غرر الحكم: ١٧٠٧. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٤، ح١١٣٧٤.

(٢) غرر الحكم: ١٧٣٤. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٤، ح١١٣٧٥.

(٣) غرر الحكم: ٢٦٣٨. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٥، ح١١٣٨٨.

(٤) كنز العمّال: ٧٦٣٩. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٦، ح١١٣٩٢.

(٥) نهج البلاغة: الكتاب ٥٢. غرر الحكم: ٧٥٢٣. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٦، ح١١٣٩٥.

«مَنْ ظَلَمَ قُصِمَ عُمْرُهُ»[١].

٧ ـ الظلم يكون مرآة عاكسة لعيوب الظالم فيفتضح عند تتبع عيوبه وهذا ما أكده الإمام علي عليه السلام بقوله:

«إنَّ البَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغانِ المَرْءَ في دِينِهِ ودُنْياهُ، ويُبْدِيانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ»[٢].

٨ ـ الظلم يوجب لعنة الله تعالى للظالم في حالات عبادة الظالم على وجه الخصوص كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

«أوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلَيَّ: يا أخا المُرْسَلِينَ، يا أخا المُنْذِرِينَ، أنْذِرْ قَوْمَكَ أنْ لاَ يَدْخُلُوا بَيْتاً من بيوتي إلاّ بِقُلوبٍ سَلِيمَةٍ وَألْسُنٍ صادِقَةٍ، وأيْدٍ نَقِيَّةٍ، وَفُروجٍ طاهِرَةٍ، ولاَ يَدْخُلُوا بَيْتاً مِنْ بُيوتِي ولأَحَدٍ مِنْ عِبادِي عِنْدَ أحَدٍ مِنْهُم ظُلامَةٌ فَإنِّي ألْعَنُهُ ما دامَ قائماً بَيْنَ يَدَيَّ يُصَلِّي حَتَّى يَرُدَّ تلك الظُّلامَةَ إلى أهْلِها»[٣].

ـ آثار الظلم في الآخرة

١ ـ إذا حشر الله تعالى عباده سيحشر منهم على نورهم وفي نورهم فيبصرون فلا يكونوا من العمي، وهناك من يحشر في ظلمة لا يرى الحقيقة فلذا حذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الظلم لأنه يؤدي إلى العمى والظلمة فقال لِرَجُلٍ يُحِبُّ أنْ يُحْشَرَ يَوْمَ القِيامَةِ في النّورِ:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإنَّهُ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيامَةِ»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) غرر الحكم: ٧٩٤٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٦، ح١١٣٩٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١٧، ص١٢.

(٣) كنز العمال: ٤٣٦٠٠. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٤٣ ـ ٢٣٤٤، ح١١٤٤٣.

(٤) الكافي: ج٢، ص٣٣٢، ح١١. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٧، ح١١٤٠٦.

«لاَ تَظْلِمْ أحَداً، تُحْشَرْ يَوْمَ القِيامَةِ في النّورِ»[١].

٢ـ عند الحساب ووضع الموازين ونشر الصحف تظهر ثلاث حالات من الظلم، ظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم يغفر وهذا ما أكده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول:

«الدَّواوِينُ عِنْدَ اللهِ ثَلاثَةٌ: دِيوانٌ لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً، ودِيوانٌ لا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئاً، ودِيوانٌ لا يَغْفِرُهُ اللهُ، فأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَغْفِرُهُ اللهُ فالشِّرْكُ، قالَ اللهُ تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢].

وَأمّا الدّيوانُ الذي لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئاً فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مِنْ صَوْمِ يومٍ تَرَكَهُ، أو صَلاةٍ تَرَكَها، فإنَّ اللهَ يَغْفِرُ ذلكَ وَيَتَجاوَزُ إنْ شاءَ اللهُ.

وأمّا الدِّيوانُ الذي لا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئاً فَظُلْمُ العِبْادِ بَعْضَهُم بَعْضاً، القِصاصُ لاَ مَحالَةَ»[٣].

٣ـ يؤكد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن ظلم الناس له عاقبة وخيمة لا يتحملها الإنسان كما جاء ذلك عنه عليه السلام بقوله:

أمّا الظُّلْمُ الذي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمُ العِبادِ بَعْضَهُمْ بَعْضاً، القِصاصُ هُناكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالمُدى، ولاَ ضَرْباً بِالسِّياطِ، ولكِنَّهُ ما يُسْتَصْغَرُ ذلِكَ مَعَهُ»[٤].

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٣٢، ح١١. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٧، ح١١٤٠٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٩، ح١١٤١٤. مسند أحمد: ج٦، ص٢٤٠. مستدرك الحاكم: ج٤، ص٥٧٦.

(٤) ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٣٩ ـ ٢٣٤٠. نهج البلاغة: ج٢، ص٩٥. مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٠٤.

٤ـ يعيش الظالم يوم القيامة حسرة شديدة وندامة مرة تصل إلى حد أنه يعبر عنها بفعل حسي كما ورد ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[1].

وأكده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«للظالِمِ غَداً يَكْفِيهِ عَضُّهُ يَدَيْهِ»[2].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٧، ص٣٩٧، ح١٨. ميزان الحكمة: ج٦، ص٢٣٤٤، ح١١٤٤٦.

المحتويات

مقدمة الشعبة الدراسات والبحوث ٥
مقدمة المؤلف ٧

الخطبة الأولى: في التوحيد

نص الخطبة ١١
المعنى العام ١٢
التحذير من الفكر المنحرف ١٥
الشبه بين المارقين وبين الكافرين ١٦
ما هو التشبيه؟ ١٨
التشبيه محال عقلاً ٢١
التشبيه لا يصح ولا يجوز في القرآن الكريم ٢٢
التشبيه لا يجوز ولا يصح نقلا في السنة النبوية ٢٥
هل أن الله تعالى شيء؟ ٣٢
السميع البصير اسمان من أسمائه تعالى ٣٦
الوصفان في القرآن الكريم ٣٧
السميع ٣٧
البصير ٣٩
الوصفان في حديث أهل البيت عليهم السلام ٤٣
السميع ٤٣
سمعه لا كسمعنا ٤٦
البصير ٤٧
هل هما من صفات الذات؟ ٥٣

في السمع ٥٣
البصر ٥٤
سؤال مهم ٥٥
ألف........ ٥٥
باء ٥٦
لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار........ ٥٧
امتناع الرؤية........ ٥٧
الآيات الكريمة ٥٨
الأحاديث الشريفة ٥٩
الرؤية القلبية ٦٤
ما هو سبب شبهة الرؤية؟ ٦٧
معنى الإدراك الإلهي ٧٠
وهو اللطيف الخبير........ ٧١
اللطيف ٧١
الخبير ٧٣
استخلص الوحدانية والجبروت ٧٤
معنى الجبروت ٧٩
المشيئة والإرادة........ ٨٢
حقيقة الإرادة الإلهية........ ٨٤
أسئلة مهمة في الإرادة ٨٦
قدرة الله تعالى........ ٩٢
ألف: دليل الفطرة........ ٩٣
باء: دليل النظام في الخلقة ٩٤
جيم: قدرة المخلوق دليل على قدرة الخالق........ ٩٥
أسئلة في القدرة........ ١٠٠
(وهو الواحد الصمد)........ ١٠٨
معنى الواحد ١٠٨
معنى الصمد ١٠٩
التصور والتصديق........ ١١٢
الوهميات ١١٣

الخطبة الثانية

وفيها يوصي بتقوى الله، وينذر من عقابه

نص الخطبة ١٢١
المعنى العام ١٢٢
بحث أخلاقي ١٢٤
التقوى ميزان القرب الإلهي ١٢٤
آثار التقوى في الدنيا ١٢٧
آثار التقوى في الآخرة ١٣٠
التقوى ضرورة لابد منها ١٣١
رفع التوهم ١٣٣
مسألة: منزلة المتقين وصفاهم ١٣٤
الطرق الموصلة إلى التقوى ١٣٩
ما يمنع التقوى ١٤١
أسئلة مهمة ١٤٢
بحث أخلاقي ١٤٤
النصيحة علامة المحب ١٤٤
النصيحة لمن؟ ١٤٥
فوائد ١٤٧
ـ لا تنسى نفسك ١٤٨
ـ أسئلة مهمة ١٤٩
ـ وقفة وتأمل ١٥٢
بحث عقائدي ١٥٣
الحياة البرزخية ١٥٣
أحوال البرزخ ١٥٤
أسئلة مهمة ١٥٩
تذكير ١٦٩

الخطبة الثالثة

في مكارم الأخلاق

نص الخطبة ١٧٧
المعنى العام ١٧٨
بحث أخلاقي ١٨٠
صنع المعروف ١٨٠
لمن يبذل المعروف؟ ١٨٤
إشكال وتوجيه ١٨٦
آثار فعل المعروف ١٨٩
الآثار في الآخرة ١٩٠
فوائد ١٩٢
صفات أهل الفضل ١٩٤

الخطبة الرابعة

في مكارم الأخلاق

نص الخطبة ١٩٩
بحث أخلاقي ١٩٩
مكارم الأخلاق شيمة المؤمنين ١٩٩
الخلق وعاء الدين ٢٠٠
مكارم الأخلاق في نظر أهل البيت عليهم السلام ٢٠٢
ـ نصائح ٢٠٤
أسئلة مهمة ٢٠٦
ثمرات حسن الخلق ٢٠٨

ـ سوء الخلق في نظر أهل البيت عليهم السلام ٢٠٩
آثار سوء الخلق ٢١٠
ـ الحلم ٢١١
بحث عقائدي ٢١٢
غضب وحلم الله تعالى ٢١٢
الحلم في نظر أهل البيت عليهم السلام ٢١٧
ـ آثار الحلم ٢١٨
ـ أسئلة مهمة ٢١٩
ـ الوفاء ٢٢١
ـ سؤال مهم ٢٢٣
وقفة ٢٢٣
ـ نصيحة معصومية ٢٢٥
الاستكبار ٢٢٥
ـ فوائد ٢٢٧
ـ السفه ٢٣٠
أسئلة مهمة ٢٣١
بحث عقائدي ٢٣٢
ـ الغلو ٢٣٢
الإمام الحسين عليه السلام يحذر من الغلو ٢٣٣
ـ الشيعة براء من الغلو ٢٣٤
ـ سؤال مهم ٢٣٥
بحث أخلاقي ٢٣٧
الفِسق ٢٣٧
ـ الفسق والفاسق في نظر أهل البيت عليهم السلام ٢٣٩
ـ آثار الفسق ٢٤٠

الخطبة الخامسة

وفيها يذمّ الدّنيا ويحذّر منها

نص الخطبة ٢٤٥
المعنى العام ٢٤٥
بحث أخلاقي ٢٤٦
ذم الدنيا ٢٤٦
أسئلة مهمة ٢٤٨
ـ نصيحة معصومية ٢٥٩
صور حوارية ومواعظ ٢٦٣
الصورة الثانية ٢٦٤
الصورة الثالثة ٢٦٦
الصورة الرابعة ٢٦٧
الصورة الخامسة ٢٦٨
بحث عقائدي ٢٦٨
الرضا بقضاء الله تعالى ٢٦٨
أسئلة مهمة ٢٦٩
ـ نصيحة يجب أن تسمعها ٢٧٤
ـ التزود بالأعمال الصالحة ٢٧٤
ـ العمل مفتاح السعادة ٢٧٥
آثار وثمرات العمل الصالح في الدنيا ٢٧٦
ـ آثار العمل الصالح في الآخرة ٢٧٧
ـ نصائح ٢٧٩
ـ أسئلة مهمة ٢٨١
ـ نصائح ضرورية ٢٨٨

الخطبة السادسة

وفيها يُذكّر بفضائل أهل البيت عليهم السلام ويأمر باتّباعهم

نص الخطبة ٢٩١

ـ فضل أهل البيت عليهم السلام ٢٩٤

ـ فضلهم في القرآن الكريم ٢٩٥

ـ فضلهم عليهم السلام في السنة النبوية ٣٠٢

ـ بحث عقائدي ٣٠٥

ـ العدل الثاني ٣٠٥

١ـ صحيح الترمذي ٣١٢

٢ـ القاموس المحيط ٣١٢

٣ـ مسند أحمد ٣١٣

٤ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ٣١٣

٥ـ المعجم الكبير للطبراني ٣١٣

٦ـ جامع الأصول ٣١٤

٧ـ مسند عبد بن حميد ٣١٥

٨ـ الدر المنثور ٣١٦

٩ـ الجامع الصغير ٣١٦

١٠ـ مصنف ابن أبي شيبة ٣١٦

١١ ـ المستدرك على الصحيحين ٣١٧

١٢ـ كتاب السنة ٣١٧

١٣ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣١٨

الجامع الصغير بشرح المناوي ٣١٨

فيض القدير ٣٢٠

رواة حديث الثقلين (الصحابة) ٣٢٢

رواة حديث الثقلين (التابعين) ٣٢٣

طاعة الشيطان ٣٢٥

ـ آثار طاعة الشيطان ٣٢٩

ـ أسئلة مهمة ٣٣٢

ـ وقفة تأمل ٣٣٨

الخطبة السابعة

نص الخطبة ٣٤٣

المعنى العام ٣٤٥

ـ صفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.. ٣٤٧

الآيات الكريمة.. ٣٤٧

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصف نفسه ٣٤٩

أمير المؤمنين عليه السلام ٣٥١

ـ بعض كمالاته ٣٥٢

معاوية ٣٥٣

أولا : العامل التربوي.. ٣٥٤

هند ٣٥٤

أم جميل ٣٥٥

الحكم بن أبي العاص ٣٥٥

أبو جهل ٣٥٥

عتبة والوليد ٣٥٥

ثانيا : العامل الاقتصادي.. ٣٥٥

ثالثا : العامل الأخلاقي ٣٥٦

ـ القول القاصم ٣٥٧

تدليس معاوية ٣٥٨

عمرو بن العاص.. ٣٥٩

عاقبة الظالمين.. ٣٦٢

ـ آثار الظلم في الدنيا.. ٣٦٤

ـ آثار الظلم في الآخرة ٣٦٦